دروس من سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله

سلسلة المعارف الإسلاميّة





الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



دروس

من سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب : دروس من سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم
إعداد : مركز نون للتأليف والترجمة.
نشر : جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة.
تاريخ الطبع : أيار ٢٠١٠م - ١٤٣١هـ



بيروت - لبنان - المعمورة - الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

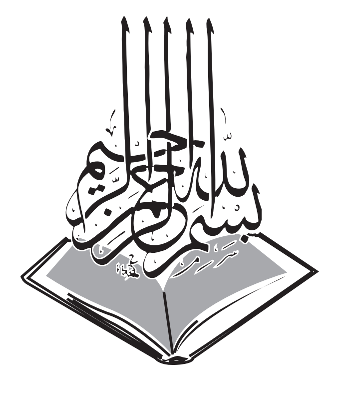
سلسلة المعارف الإسلاميّة

دروس

من سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمــد للّه ربّ العالميــن والصلاة والسلام علــى أشرف الأنبيــاء والمرسلين سيّدنا ونبيّنا أبي القاسم محمّد بن عبد الله وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

يمثّــل رسول اللّه محمّد بن عبــد اللّه ﷺ النموذج الإنسانيّ الكامل الذي اجتمعت في شخصيّتــه كلّ الصفات والخصائص والقيم الإنسانيّــة والإلهيّة، فهو رجل العلم والفضل والعقــل والكمال، ومثــال الحكمة والوقار والجــلال، عارف حكيم تقيّ شجــاع حازم، وهو الرجل المعصوم من الخطأ المبرّء من الزلل، أكمل الخلق وأفضلهم وأعظمهم أخلاقاً، لا ترى في أعماله أيّ خلل أو ضعف، ولا في تصرّفاته وسلوكه أيّ تشتّت أو تناقض.

وقــد اتســع قلبــه لآلام الناس ومشكلاتهم، فجاهــد في اللّه حقّ جهــاده، ووقف بحزم وثبات وقوّة في وجه القوى الجاهلية، الوثنيّة واليهوديّة، من أجل العدالة والحريّة والمحبّة والرحمة، ومن أدل مستقبلٍ أفضل لجميع الناس.

ولأجــل ذلك فقد جعله اللّه قدوة وأسوة للناس جميعاً، وفرض عليهم أن يقتدوا به وأن يتّبعــوه في كلّ شيء؛ حتّــى في جزئيّات أفعالهم فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُــولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾[1].

ولذلــك أيضاً فقد حظيــت شخصيّة رسول اللّه ﷺ وكذلك حياتــه وسيرته باهتمام التاريــخ والمؤرّخيــن والباحثيــن، وأُلّفت حــول شخصيّته وسيرته العطــرة مئات بل آلاف الكتــب والدراســات، ولا نعلم سيرة رجل قــد نُقّحت وحُقّقت ومُحّصــت بالحجم الذي تمّ لسيرة رسول اللّه ﷺ .

ولم يكتف تاريخ الإسلام المدوّن بتسجيل الأحداث والمواقف العامّة من حياة النبيّ ﷺ ،

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

بل سجّل لنا تفاصيل حياته ودقائق تصرّفاته، حتّى الحركات واللفتات واللمحات، فضلاً عن الكلمات والمواقف والحوادث بدقّة متناهية واستيعاب لا نظير له.

وبالرغم من كثرة ما كتب حول السيرة النبويّة عرضاً وتحليلاً إلّا أنّ المكتبة الإسلاميّة والمعاهد الثقافيّة ظلّت تفتقر إلى كتاب ممنهج في السيرة والتاريخ يمكن الاعتماد عليه في تقديم صورة واضحة ونقيّة عن حياة وسيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لكلّ طلّاب المعرفة.

ومن هنا فقد قمنا بوضع كتاب «السيرة والتاريخ» ليسدّ هذه الحاجة الماسّة، وليكون متناً دراسياً يعتمد عليه الطالب والأستاذ في دراسة هذه المادّة. وبعد أن قام هذا الكتاب بدوره في المرحلة السابقة، وجدنا الحاجة إلى تحسينه وتصحيحه وإضافة بعض التعديلات عليه، فكان هذا الكتاب الجديد الذي بين يدي القارئ الكريم، يحمل اسم «دروس من سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم».

وقد اشتمل الكتاب على عرض تحليلي لسيرته صلى الله عليه وآله وسلم منذ ولادته إلى أن اختاره الله إليه. والمراحل التي مرّ بها في صباه وشبابه، ومسيرة الدعوة إلى الله منذ أن بعثه الله في مكّة إلى أن تكاملت حروبه وغزواته، وما يتّصل بذلك من أحداث ومواقف وتحدّيات رافقت الدعوة، مع دراسة موضوعيّة لأهم جوانبها ومحاولة الاستفادة منها وأخذ العبرة.

وقد اعتمدنا في جميع ذلك على أوثق المصادر الإسلاميّة، وفي مقدّمتها كتاب الله عزَّ وجلَّ وما رواه المعصومون الأطهار عليهم السلام ممّا يتعلّق بسيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، على اعتبار أنّ أهل البيت أدرى بما فيه.

واقتصرنا على تناول وبيان بعض الوقائع المهمّة التي تنطوي على قدر أكبر من الفائدة والعبرة، وأعرضنا عن ذكر الحوادث الجزئيّة، لكنّنا خصّصنا بعد كلّ بحث مقطعاً خاصّاً للمطالعة تناولنا فيه شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الذاتية، وسيرته الأخلاقيّة من أجل تكوين صورة واضحة عن صفات النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وخصائصه وعلاقته بربّه وطريقة تعامله مع أسرته والأمّة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين



الدرس الأوّل

الجزيرة العربيّة قبل الإسلام



أهداف الدرس

١- أن يستطلع الطالب جغرافيّة شبه الجزيرة العربيّة.

٢- أن يُدرك مقوّمات العصر الجاهليّ.

٣- أن يُحدِّد ملامح الحياة السياسيّة في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام.

٤- أن يتعرّف إلى الحالة الدينيّة عند العرب قبل الإسلام.



الموقع الجغرافيّ والأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة

تقــع شبه جزيرة العــرب، والتي تُسمّــى أيضاً «جزيرة العــرب»، في الجنوب الغربيّ من قارّة آسيا، وهي أكبر شبه جزيرة في العالم.

ويحدُّهــا من الجنوب خليج عدن والمحيــط الهنديّ وبحر عُمان، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق خليج عُمان والخليج الفارسيّ والعراق، وتُتاخمها من الشمال صحراء واسعة تنتهي بسهل الفرات.

مناخهــا قاسٍ، وهواءها جافّ، وليس في طول البلاد وعرضهــا مياه - عدا الأقســام الجنوبيــة - ولا أنهار صالحــة للملاحة فيها، والسبب فــي جفافها هو كونها محاطة بجدار جبليّ شاهق من ثلاث جهات[١].

وهذا الجدار هو الذي يصدّ رطوبة البحار ويمنعها من الوصول إلى هذه المنطقة.

(١) تمتـدّ هـذه الجبال من شبه جزيـرة سيناء في موازاة البحر الأحمـر على شكل سلسلة كأنّها جدار عــازل، ثمّ تلتفّ عند الزاوية الجنوبية الغربية، وتدور في موازاة الساحل الجنوبي والشرقي لجزيرة العرب.

أقسام الجزيرة الرئيسة:

١ ـ الوسطيّ الذي يُسمّى بالصحراء العربيّة.

٢ ـ الشماليّ وهو ما يُعرف باسم الحجاز.

٣ ـ الجنوبيّ الذي يُعرف باسم اليمن[١].

ويتميّز القسم الجنوبيّ (اليمن) بكثرة هطول الأمطار فيه، وكونه منطقة زراعية مزدهرة وتقطنها أعداد غفيرة من السكان. ولهذا لا تكاد تُقارَن بشمال ووسط جزيرة العرب؛ وهذا ما استدعى نشوء القرى والمدن واجتماع الناس في هذا القسم، ممّا أدّى إلى وجود أنظمة وقوانين (وإن كانت بدائية)، وما يُلازِم ذلك من تأسيس الحكومات التي ظهرت في هذه المنطقة قبل ولادة المسيح عليه السلام بمئات السنين، نذكر منها:

١ ـ الدولة المعينية: (١٤٠٠ ـ ٨٥٠ قبل الميلاد).

٢ ـ الدولة السبئية: (٨٥٠ ـ ١١٥ قبل الميلاد).

٣ ـ دولة قتبان (٨٦٥ ـ ٥٤٠ قبل الميلاد).

٤ ـ دولة حضرموت: (١٠٢٠ قبل الميلاد ـ ٦٥ بعد الميلاد).

٥ ـ دولة سبأ وريدان وحضرموت وأطراف اليمن، وكان يُسمّى ملوكها «تُبَّع»، واستمرّ حكمها من عام ١١٥ قبل الميلاد إلى عام ٥٢٣ بعد الميلاد[٢].

وأثنى المؤرّخون كثيراً على الحضارة الزاهرة التي نشأت في اليمن، ووصفوا قصور سبأ بأنّها قصور نضرة ذات أبواب مُرصَّعة بالجواهر، ومساكنها عامرة، وفيها أوانٍ من الفضّة والذهب، وفيها سدّ مأرب الذي انهار قبل أربعمائة سنة

(١) قال المقدسيّ، وهو من العلماء المسلمين في القرن الرابع، إنّها تُقسم إلى أربعة أقسام كبرى، وهي: الحجاز، واليمن، وعُمان، وهجر (أحسن التقاسيم، ص١٠٢)، وقسّمها غيره إلى خمسة أقاليم.

(٢) شرف الدين، أحمد حسين، اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنّة المحمّديّة، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ، ص ٥٣.

من ظهور الإسلام[1] نتيجة إهمال من أمّة آخذة في الإنحطاط.

أدّى هذا الخراب والانحـلال إلى مهاجرة عدد كبير من أهل اليمن، وحدوث تحـوّلات كبيـرة في شبه جزيـرة العرب، حيث توجّه رهط تنّـوخ من قبيلة الأزد اليمانية إلى الحيرة (العراق)، وتوجّه آل جفنة إلى الشام، وسارت قبيلتا الأوس والخـزرج إلى يثـرب (المدينة المنـوّرة)، بينمـا توجّهت خزاعة إلـى مكّة وما جاورها[2].

الجاهليّة والقبيلة

عُـرف عصر ما قبـل الإسلام في الجزيـرة العربيّة بـ«العصـر الجاهليّ». ورغم أنّ كلمة الجاهليّة مشتقّة من الجهل، إلّا أنّ الجهل هنا لا يقع في النقطة المقابلـة للعلـم، وإنّمـا يقع فـي النقطة المقابلـة للعقل والمنطـق، فهي تعني السفـه والغضب والأنفة، وهي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام لِما كانـوا عليـه من مزيد جهل في كثيـر من الأعمال والأحـكام[3]. فإطلاق كلمة جاهـل على ذلـك المجتمع يُعـزى إلى رؤيتهـم المغلوطة والبعيـدة عن العقل والمنطـق.

ويذهـب بعض المؤرّخين إلى القـول بأنّ تسمية الجاهليّـة الأولى الواردة في القـرآن الكريـم يُراد منها الزمـن الذي وِلد فيـه النبيّ إبراهيـم عليه السلام، وقيل: إنّهـا الفترة ما بيـن آدم ونوح عليهما السلام، وهي ثمانمائة سنـة، في حين ذهب بعض المعاصريـن للقـول بأنّها الفترة مـا بين عيسى عليه السلام ومحمّـد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الذي

(١) الآلوسي البغدادي، محمود شكري، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ص٢٠٤.
أشـار القـرآن الكريم إلى قوم سبأ فـي سورتين، إحداهما بمناسبة ذكر ملكة سبأ وكتاب النبـيّ سليمان إليها في سورة النمل، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣، وثانيهما بمناسبة ذكر الآثار الناتجة عن انهيار السدّ في سورة سبأ، الآيات: ١٥ ـ ١٩.

(٢) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسيّ، ج ١، ص٤٤.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، ط بولاق، ١٣٠٣هـ، ج١٣/ص١٣٦.

تنصرف إليه الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر أحكام الجاهليّة، وظنُّ الجاهليّة، وحميّة الجاهليّة، وتبرّج الجاهليّة الأولى[١].

وكانت القبيلة هي الوحدة السياسيّة عند العرب في عصر ما قبل الإسلام، فأفراد القبيلة ينتمون أو يعتقدون أنّهم ينتمون إلى أصل واحد مشترك، تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة الدم والعصبيّة للأهل والعشيرة.

العصبيّة

العصبيّة عند العرب نوعان:

١. عصبيّة الدم وهي أساس القرابة ومصدر الترابط.

٢. وعصبيّة الانتماء إلى أبٍ بعيد أو جدٍّ مشترك، من نسله تكوّنت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه. وعلى هذا الأساس كان شعور العرب بالقوميّة الشاملة ضعيفاً، ذلك لأنّ وعيها السياسيّ كان ضعيفاً محدوداً لا يتجاوز القبيلة.

وهكذا كان المجتمع العربيّ قبل الإسلام مجتمعاً مفكّكاً سياسيّاً ينقسم إلى وحدات متعدّدة قائمة بذاتها، تُمثّلها القبائل المختلفة.

نُظُم الحكم

كان لكلّ قبيلة مجلس من شيوخها، يرأسه رجل يَتمُّ اختياره من بين أفراد القبيلة، ويُطلقون عليه ألقاباً منها: الرئيس والشيخ والأمير والسيّد، ويُشترط أن تتوفّر فيه بعض الصفات، منها: الشجاعة والحكمة والصبر والكرم وسعة النفوذ.

ويتولّى سيّد القبيلة واجبات؛ أهمّها: قيادة الجيش، وأمر المفاوضات مع القبائل الأخرى، وفضّ النزاعات، والحُكم في الخلافات، وإعانة الضعفاء،

(١) راجع سورة المائدة، الآية: ٥٠، وسورة آل عمران، الآية: ١٥٤، وسورة الفتح، الآية: ٢٦، وسورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

والمحافظة على وحدة القبيلة. وكان مجلس القيادة يعقد اجتماعاته في دار الندوة، أو المنتدى، حيث تُناقش الأمور والمسائل التي تخصّ القبيلة كإعلان الحرب، أو إقرار السلم.

خلاصة الكلام: لم يكن يخضع عرب الحجاز قبل ظهور الإسلام لسلطة حكومة، ولم يكن لهم نُظُم ولا تشكيل سياسيّ، ولهذا السبب كانت حياتهم تختلف اختلافاً كليّاً عمّا كانت عليه حياة المجتمعات في بلاد فارس وبلاد الروم، حيث الحكومة المركزية التي تتولّى شؤون الناس في كلّ أرجاء البلاد، ولهذا كان العرب يشعرون بالضعف مقابل الفرس والروم.

مفاسد المجتمع العربيّ

المجتمع العربيّ كان قائماً على:

١- التعصُّب القبليّ الأعمى؛ ينتصرون للقبيلة سواء أصابت أم أخطأت[١].

٢- الثأر من القبيلة كلّها حتّى ولو كان المُخطئ فيها أحد أفرادها.

٣- التفاخر بالأنساب[٢] ولا سيّما بين العدنانيّين (عرب الشمال)، والقحطانيّين (عرب الجنوب).

٤- الحروب والنهب والقتل؛ حيث لم يكن العربيّ يحمل مشاعر ودّية للناس خارج إطار قبيلته، سوى تحريمهم للقتال في الأشهر الحُرم (ذي القعدة، وذي الحجّة، ومحرّم، ورجب) وكان ذلك ممّا تمسّك به العرب من ملّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

---

(١) رفض الإسلام العصبيّة الجاهليّة العمياء، واعتبرها نوعاً من التوجه الجاهليّ البعيد عن المنطق: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (سورة الفتح: ٢٦). وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من تعصّب أو تُعصّب له فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»، ثواب الأعمال للصدوق، ص٢٦٣.

(٢) ولهذا السبب كانت هناك قيمة وأهميّة لعلم الأنساب عند العرب

ومـن أبرز المفاسد ومظاهر الجهل عند عرب الجاهليّة نظرتهم إلى المرأة، التـي حُرِمت من قيمتهـا الإنسانيّة ومن حقوقها الاجتماعيّـة، ومن الإرث. وكان الرجـل إذا مـات ولـه زوجـة تزوّجها ابنه مـن بعده إن لـم تكن أمّـه، لأنّها من المواريث، فضلاً عن وأدهم للبنات وهُنَّ أحياء لكونهنّ عاراً على القبيلة، ولعدم قدرة المرأة على القتال والدفاع عن نفسها في الحروب، وخوفاً من السبي.

الحالة الدينيّة في الجزيرة العربيّة

لـم يكن سكان الجزيرة العربيّة جميعهم على دينٍ واحد إبّان ظهور الإسلام، فكانـت الديانة الغالبة آنذاك هي عبـادة الأصنام، كما كان هناك أتباع ديانات أخـرى كالمسيحيّـة واليهوديّة والحنيفيّة والمانويّـة والصابئة، يقطنون في بقاع شتّى من الجزيرة.

ولم يَسْلَم أيّ من تلك الأديان من التشويش والتحريف اللّذين طرآ عليها عبر الزمن، فانطوت على كثير من المغالطات والتضليل فنفرت النفوس منها.

وفيما يلي شرحٌ موجزٌ عن الأديان المعروفة والمتَّبعة آنذاك:

الموحّدون:

الموحّـدون أو الحنفاء[1]، هم الذين كانوا يرفضون عبادة الأصنام، ويُؤمنون بوحدانيـة اللّه تعالـى، وأحياناً بالبعـث والحساب ويوم القيامـة، وكان قسمٌ من هذه الجماعة من أتباع الديانة المسيحيّة، ومنهم: ورقة بن نوفل، وعبيد اللّه بن جحش، وقُسّ بن ساعدة الأياديّ، وزهير بن أبي سلمى...

ونزوع هـؤلاء الأشخاص إلى التوحيد يرجـع إلى سلامة فطرتهـم، والفراغ الدينـيّ في ذلك المجتمـع، وفقدان الديانتين المسيحيّـة واليهوديّة لأصالتهما،

(١) حنيف وجمعها أحناف، تطلق هذه الكلمة على من يتَّبع دين النبيّ إبراهيم عليه السلام.

وعدم قدرتهما على بثّ السكينة في النفوس، ولذلك كان الموحِّدون يبحثون عن الديانة الحقّة، ويقطعون المسافـات للقاء علماء من النصارى واليهود، للتحقُّق منهم حول العلامات الواردة فـي الكتب السماويّة عن بعثة رسول الإسلام ﷺ. وغالباً ما كانوا يَصِلون إلى نتيجة مفيدة.

المسيحيّة:

انتشــرت المسيحيّة في بعض أجزاء جزيــرة العرب، ففي الجنوب عن طريق الحبشــة، وفــي الشمال عن طريــق سورية[1]، وشبــه جزيرة سينــاء، إلّا أنّها لم تجتـذب إليها أنصاراً كُثُر، وكان من هؤلاء النصارى: قيس بن ساعدة، وحنظلة الطائي، وأُميّة بن أبي الصلت.

وتغلغلــت المسيحيّــة فــي اليمن منذ القــرن الرابــع الميــلاديّ. وعند ظهور الإســلام كانت بعض أحياء العرب في اليمن على دين النصرانيّة. وأهمّ مواطن النصرانيّــة في جزيرة العرب كان نجران، وهي مدينــة خصبة عامرة بالسكان والتجارة[2].

وبقيت النصرانيّة رائجة في اليمن إلى أن حَكَمَ ذو نوّاس أرض اليمن، فوقع بالنصارى وقتلهم إرغاماً لهم على ترك دينهم، وعندما رأى ثباتهم أحرقهم في أخدود نارٍ حفره لهم. وقد استنجد النصارى بالحبشة فأنجدوهم، وغزوا بلاد العرب سنة ٥٢٥م، وهزموا ذا نوّاس، وعاد المسيحيّون إلى الحُكم من جديد[3].

(١) كانت الشام آنذاك تحت سيطرة الدولة الرومانية الشرقية.

(٢) حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسيّ، ج: ١/ص٦٤.

(٣) يروي بعض المفسّرين أنّ الآيات ٤ ـ ٩ من سورة البروج نزلت في قتل النصارى، أو أنّ هذه الواقعة ممّا تنطبق عليه هذه الآيات (الميزان في تفسير القرآن: ج٢٠/ص٢٥١ ـ ٢٥٧) حيث قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾سورة البروج الآيات٣-٩.

وكذلـك انتشرت المسيحيّة في الحِيرة قـرب الكوفة، بواسطة أسرى الحرب الرومانيّيـن... وأهمّ دليل يشهد على وجود هذا الدين في زمن نزول القرآن في جزيرة العرب، هو مباهلة رسول الله ﷺ قساوسة وفد نجران[١].

اليهوديّة

انتشـرت اليهوديّة فـي جزيرة العرب قبل ظهور الإسـلام لا سيّما في اليمن، وخيبـر ويثرب، حيث بنو قريظة وبنـو النضير وبنو قينقـاع. وكان لليهود وزنهم السياسيّ والعسكريّ والاقتصاديّ، واستطاعوا أن يستهلكوا من الدولة الإسلاميّة فيما يُقارب سبع سنوات من الحروب والغزوات، حتّى استطاع الإسلام أن يقضي عليهـم سياسيّاً وعسكريّاً. وقد كان اليهود هـم المحرِّضون الفعليّون للمشركين على حـرب رسول الله ﷺ، وهم المتآمرون الأكثر خبثـاً ودهاءً مع الفرس على الدولة الإسلاميّة وعقيدتها.

لقـد كان اليهود يعتبـرون أنفسهم شعـبَ الله المختار، وأنّهـم القادة الذين رشّحهـم الله تعالـى لقيادة البشريّـة، ولذلك كانوا يَرَون بعثـة الرسول ﷺ من العـرب - لا من بنـي إسرائيل - انتزاعاً للقيادة من أيديهـم وتسليمها لغيرهم، ولذلك كانت عداوتهم عنيفة، وكان حقدهم شديداً.

نشـر اليهود في جزيرة العرب تعاليـم التوراة (المُحرَّفة) وما جاء فيها حتّى تهـوّد كثيرٌ من قبائـل اليمن. ومن أشهر المتهوِّدين ذو نوّاس - ملك اليمن - وقد اشتُهـر بتحمُّسه لليهوديّة واضطهـاده لنصارى نجران، وإعلانـه اليهوديّة ديناً رسميّاً[٢].

(١) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: إنتشارات إسماعيليان، قم، ط٣، ١٣٩٣هـ ج٣، ص٢٢٨.
(٢) راجع أمين، أحمد، فجر الإسلام، مكتبة النهضة العربيّة، القاهرة، ط٩، ١٩٦٤م ص ٢٣ - ٢٤ - ٢٧.

الوثنيّة:

كانت الوثنيّة منتشرة في جميع أنحاء الجزيرة العربيّة، فكادت تُعتبر الديانة الأكثر أتباعاً وانتشاراً فيها، وهنا لا بدّ من ذكر النقاط التالية:

١ ـ **نشأة الوثنيّة**: يُنقل أنّ أوّل من أدخل عبادة الأصنام إلى مكّة عمرو بن لُحيّ الخُزاعي، الذي أُصيب بمرض الحكّة في جلده، فَوُصفَ له الاغتسال بماءٍ حارّة في بلاد حوران، فذهب واغتسل بها فشفاه اللّه، ووجد الناس هناك يعبدون الأصنام، فحمل معه صنماً فنصبه في الكعبة الشريفة، وقيل غير ذلك[١].

٢ ـ **أصنام العرب**: من أصنامهم مناة، اللاّت، العُزّى، هُبل (وهو الذي جاء به عمرو بن لُحيّ)، إساف ونائلة، ودّ، يغوث، يعوق، نَسر...

٣ ـ **إيمان الوثنيّين بالله تعالى**: كان الوثنيّون يؤمنون باللّه العليِّ الأعلى، وأنّه هو الخالق البارئ المصوّر، وقد حكى القرآن الكريم إيمانهم هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[٢].

وهم لا يعبدون هذه الأصنام إلّا لتكون وسيلتهم إلى اللّه، كما قال تعالى على لسانهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[٣]، وبذلك وقعوا في مفارقات غريبة لا يقبلها عقل، ولا يُقرُّ بها منطق.

الصابئة:

ظهرت هذه الديانة في عهد حكم طهمورث، ومؤسّس هذه الديانة هو يوذاسف.

(١) ومن ذلك أنّ أصل عبادة الأصنام حدثت عندما كَثُر أبناء إسماعيل عليه السلام واضطرّوا إلى أن يخرجوا من مكة طلباً للعيش، فكانوا يحملون عند خروجهم شيئاً من تراب الحرم الذي يحمل ذكرى الكعبة، أثر أبيهم إسماعيل، ثمّ حملوا هذا التراب للحفاظ عليه، وتطوّرت الذكرى إلى تقديس، فعبادة.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

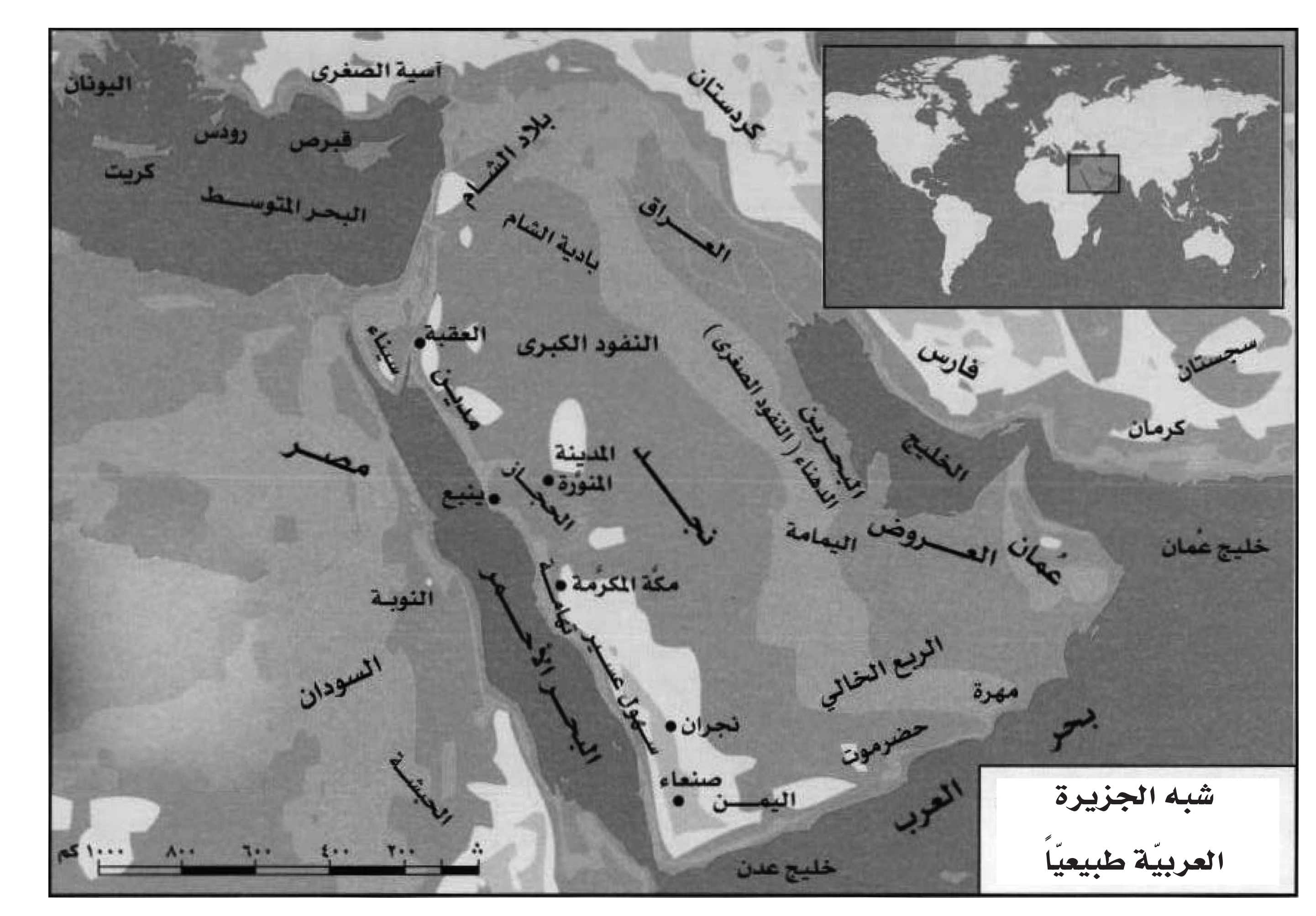
(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.

وقيل عنهم بأنّهم أُناسٌ يوحّدون الله ويُنزِّهونه عن القبائح ويصفونه بالسلب لا بالإيجاب، كقولهم: لا يُحدّ ولا يُرى ولا يَظلم ولا يجور، وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامه، ويقولون بحياتها ونطقها وسمعها وبصرها، وكانت لهم هياكل وأصنام بأسماء الشمس معلومة الأشكال؛ مثل هيكل بعلبكّ لصنم الشمس، وهياكل في حرّان منسوبة إلى القمر. وقد آلت هذه الديانة في عصرنا إلى الانقراض[1].

هذا بالإضافة إلى الديانة المانويّة والزردشتية التي تُقدِّس النار (المجوسيّة) والمزدكية. وقال بعضٌ: بأنّ هذه الديانات لم تكن منتشرة في الجزيرة العربيّة باستثناء المانويّة.

كما وكان قسم من أهالي الجزيرة العربيّة يعبدون الجنّ والملائكة.

(١) البيرونيّ الخوارزميّ، أبو الريحان محمّد بن أحمد، الآثار الباقية، مطبعة المثنى، بغداد، ص ٢٠٥.



شبه الجزيرة العربيّة طبيعيّاً



خلاصة

إنّ التعـرُّف إلـى تاريـخ وجغرافيّــة المنطقــة التي وُلِـد فيها خاتـم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، ونشأ وعاش في أرجائها حتّى بعثه اللّه برسالته؛ يُساعدنا على الوقوف على الدور الذي لعبه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته المباركة، في النقلة الحضارية الكبـرى لإنسان هذا الموطن، الـذي كانت همومه وآمالـه تُؤطِّرها هموم وآمال القبيلة، حيث لم يعرف الدولة وقوانينها، ولم يحمل مظاهر الحضارة، حتّى إذا ظهـر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأسّس الدولة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة، حدث التحوُّل التاريخي في حياة إنسان الجزيرة وجوارها.

إنّ دراســة الظواهــر والحــالات التي كانــت تكتنــف المجتمع الجاهلــيّ قبل الإسلام، تُسهم في التعرُّف.

أوّلاً: إلى قِيَم هذا المجتمع وأحواله.

ثانيـاً: تُساعدنــا أيضاً في التعرُّف إلى الدور الــذي لعبته الرسالة في تحرير هذا الإنسان، ونقله بنورها إلى عالم أرحب هو عالم العدل وكرامة الإنسان والمساواة التي لم يكن ينعم بها الإنسان من قبل.

كانــت الحالــة السياسيّة للمجتمع العربــيّ الجاهليّ قبل الإســلام عبارة عن الحُكـم القَبَلــيّ، فالقبيلة هــي الوحــدة السياسيّة، وأفـراد القبيلــة ينتمون إلى أصـل واحد مشترك، تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهـم رابطة الدم والعصبيّة للعشيــرة، وهذا ما أدّى إلى وجود الانحلال والتفكّك في ذلك المجتمع، ولم يكن هنــاك وجود لسلطة حكوميّة ولا نُظُـم ولا تشكيل سياسيّ، والحاكم السياسيّ هو التعصُّب القبليّ الأعمى. وهذا ما رفضه الإسلام بدعوته.

تعــدّدت الأديــان التي كانت منتشرة قبل ظهور الإسلام فــي الجزيرة العربيّة والمناطق المحيطة بها، فبالإضافة إلــى الموحِّدين والمسيحيّة واليهوديّة كانت هناك المجوسيّة، وكانت الوثنيّة أكثر انتشاراً في أنحاء الجزيرة العربيّة.



منزلة النبيّ ﷺ الأخلاقيّة في العهد الجاهليّ

إنّ الصيغة القرآنيّة، لمواصفات الشخصيّة المؤمنة بنماذجها المختلفة، قد أخذت طريقها للتجسيد العمليّ في شخصيّة رسول اللّه ﷺ.

فشخصيّة رسول اللّه ﷺ قد مثّلت قمّة التسلسل، بالنسبة لدرجات الشخصيّة الإسلاميّة، التي توجد عادة في دنيا الإسلام، فكان ﷺ عظيماً في فكره ووعيه، قمّة في عبادته وتعلّقه بربّه الأعلى، رائداً في أساليب تعامله مع أسرته والناس جميعاً، مثاليّاً في حسم الموقف، والصدق في المواطن، ومواجهة المِحن، فما من فضيلة إلّا ورسول اللّه ﷺ سابقٌ إليها، وما من مكرُمة إلّا وهو متقلّد لها.

ومهما قيل من ثناء أخلاقيّاته السامية قديماً وحديثاً، فإن ثناء اللّه تعالى عليه في كتابه العزيز، يظلّ أدقّ تعبير وأصدق وصف لمواصفات شخصيّته العظيمة دون سواه.

فقول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١] عجز كلّ قلم وكلّ تصوّر وبيان عن تحديد عظمته، فهو شهادة من اللّه سبحانه وتعالى على عظمة أخلاق الرسول ﷺ، وسمو سجاياه، وعلوّ شأنه، في مضمار التعامل مع ربّه ونفسه ومجتمعه، بناءً على أنّ الأخلاق مفهوم شامل لجميع مظاهر السلوك الإنسانيّ.

وقبل أن يتحدّث القرآن عن عظمة أخلاقه، فقد نطق الكفّار والمشركون بهذه الحقيقة، والنبيّ ﷺ لم يُبعث بعد، فاتّصاف النبيّ ﷺ بالخُلُق العظيم، لم يكن وليد الفترة التي بُعث فيها، أو من إفرازات تلك المرحلة تمشّياً مع أهميّة

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

الدور الملقى على عاتقه، لا، بل التاريخ يذكر أنّ النبيّ ﷺ كان ذا منزلة أخلاقيّة عظيمة في العهد الجاهليّ، وكان محلّ إعجاب وتقدير قومه ومجتمعه، بل ومضرب المثل في ذلك. وقد شهد الكفّار أنفسهم لرسول الله ﷺ بصدق اللهجة والأمانة والعفاف ونزاهة الذات.

فقد روي أنّ الأخنس بن شريق لقي أبا جهل يوم بدر فقال له: يا أبا الحكم، ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا، تُخبرني عن محمّد صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إنّ محمّداً لصادق وما كذب قطّ.

وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمّد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتّى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر؟! لا والله ما هو بساحر.

ولمّا بعث رسول الله ﷺ إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، أحضر قيصر أبا سفيان وسأله بعض الأسئلة مستفسراً عن النبيّ ﷺ، وممّا سأله، قال: فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلت والكلام لأبي سفيان: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، قال: كيف عقله ورأيه؟ قلت: لم نعب له عقلاً ولا رأياً قطّ..

وروى الطبريّ: كانت قريش تُسمّي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي (الأمين).

ورُوي عن أبي طالب (رضوان الله عليه) في حديث عن سيرة النبيّ ﷺ في الجاهليّة قال: لقد كنت أسمع منه إذا ذهب من الليل كلاماً يُعجبُني، وكنّا لا نُسمّي على الطَّعام والشَّراب حتّى سمعتُه يقول: بسم الله الأحد، ثمّ يأكل فإذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله كثيراً، فتعجّبت منه، وكنت ربّما أتيت غفلة فأرى من لدن رأسه نوراً ممدوداً قد بلغ السماء، ثمّ لم أرَ منه كذبة قطّ ولا جاهليّة قطّ، ولا رأيته يضحك في غير موضع الضحك، ولا وقف مع صبيان في لعب، ولا التفت إليهم، وكانت الوحدة أحبّ إليه والتواضع».



الدرس الثاني

السيرة ومصادرها الأصيلة



أهداف الدرس

١- أن يتعرّف الطالب إلى الهدف من السيرة ومعناها.

٢- أن يطّلع على التشويه والتحريف الذي تعرّضت له السيرة النبويّة.

٣- أن يُعدّد أهمّ مصادر السيرة النبويّة.

٤- أن يستذكر الضوابط والقواعد الصحيحة للسيرة.





معنى السِّيرة النبويّة والهدف من دراستها

كلمــة السِّيرة مشتقّة من كلمــة السَّير، والسَّير يعني المشــي والحركة، بينما السِّيرة تعني طريقة المشي والحركة والسلوك.

وبعبــارة أُخــرى: السيرة عبارة عن الأسلوب والنمط الــذي يتّبعه الإنسان في حياته وفي أعماله اليومية.

وعندما نبحث في السيرة النبويّة، فإنّنا نُريد التعرُّف إلى الأسلوب والنمط الذي كان يتّبعه النبيّ محمّد بن عبد اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في أعماله اليوميّة، للوصول إلى أهدافه النبيلة، مثلاً: كيف كان سلوكه؟ كيف كانت أخلاقه وعلاقاته بأصحابِه وزوجاته ومجتمعه؟ كيف كان يُبلّغ رسالته؟ ما هي الأحداث التي واجهها في طريق الدعوة إلى اللّه؟ وكيف كان يتعامل معها؟ كيف كان يقود مجتمعه إداريّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً وتربويّاً وتعليميّاً؟ وغير ذلك.

إنّ الكشف عن جوانب شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وما يرتبط بحياته ومواقفه وسلوكه وأوضاعه وطريقة تعامله مع الأحداث والتحدّيات والمستجدّات

وغير ذلك، هو ما يُراد بحثه عادة في السيرة النبويّة[1].

وتتجلّى هذه السيرة في مجموع أقوال المعصومين عليهم السلام وأفعالهم ومواقفهم تجاه الأحداث والظواهر المختلفة، التي عاصروها وعاشوها منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتّى انتهاء الغيبة الصغرى للإمام الثاني عشر المهديّ المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

وقد اهتمّ القرآن الكريم ببيان سيرة الأنبياء عليهم السلام والصلحاء، ودعا إلى الاقتداء بسيرتهم، والاعتبار بسيرة الغابرين والاتّعاظ بها، كما دعا وأكّد على الاهتمام بسيرة خاتم الأنبياء وسيّدهم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحثّ المسلمين على الاقتداء برسوله الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2].

ثمّ أمر المسلمين جميعاً بالالتزام بما يصدر عن رسوله الذي لا ينطق عن الهوى بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[3].

ومن المعلوم أنّ السيرة العظيمة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد تعرّضت للكثير من الجعل والافتراء والتشويه على أيدي الكثيرين من حكّام ومندسّين وغيرهم.. حيث كانت لدى هؤلاء خطّة خبيثة تستهدف النيل من شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته. وقد نُفِّذت هذه الخطّة عن طريق دسّ نصوص مُختَلَقة ومزيَّفة في كتب السيرة والتاريخ تُسيء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتنسب إليه ما لا يليق به.

مصادر السيرة النبويّة

إذا عرفنا أهميّة دراسة السيرة وما لحق بها من تشويش وتحريف، كان من

(١) تفرّدت مدرسة أهل البيت عليهم السلام بالحثّ على تدوين السنّة الشريفة والاهتمام بحفظها ونشرها، بالرغم من خطر السلطة الحاكمة والضغط الذي كانت تمارسه على الصحابة والتابعين تحت شعار: يكفيكم كتاب الله تعالى، ومن كان عنده شيء غير القرآن فليمحُه!

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

الضـــروريّ جدّاً أن نُكـــوِّن صورةً واضحةً ونقيّة عن حيـــاة وسيرة رسول اللّه ﷺ وأن نعتمــد على مصـــادر صحيحة، ومعايير وضوابط تكون قـــادرةً على إعطائنا الصـــورة الحقيقيّة الأكثر نقاءاً وصفاءاً عن شخصيّـــة النبيّ ﷺ، وتكون قادرة أيضـــاً على تمييز الجانب المُصطنَع والمُزيَّف عن الصحيح وإبعاده عن محيطنا الفكريّ والعمليّ بصورة كاملة، طبق ضوابط ومعايير حقيقيّة.

هنـــاك عدّة مصـــادر يُمكننا بالاعتمـــاد عليها أن نستخلـــص معالم شخصيّة النبيّ ﷺ، وتفاصيل حياته وسيرته وهي:

1 - القرآن الكـريـم:

لقد قدّم القرآن الكريم صورةً واضحة ورائعة عن شخصيّة النبيّ ﷺ وصفاته وخصائصـــه ومواقفـــه في كثير من الســـور والآيات. ويستطيع قـــارئُ القرآن من خـــلال التدبُّر التامّ في الآيات التي نزلت في شـــأنِ رسول اللّه، أنْ يُحيط بالكثير من جوانب شخصيّته وحياته، مُنذ أن بعثه اللّه وإلى أن فارق هذه الدنيا.

فقد أشار القرآن مثلاً إلى مكانة النبيّ (ومنزلته وعظمته) ﷺ، في كلٍّ من سور الحجرات والنور والأحزاب وغيرها، وأشار إلى أسمائه وألقابه ﷺ في سور الصفّ وآل عمران والمائدة، وإلى صفاته وخصائصه ﷺ، كالعصمة والطهارة والرأفة والرحمة والعطف والشجاعة، في كلٍّ من سور آل عمران والتوبة والأحزاب والأنبياء وغيرها، وأشار القرآن إلى أخلاقه وصبره وثباته ﷺ في مواقع التحدّي، وإلى طريقة تبليغه للرسالة، وإلى مواقفه من عدم استجابة قومه لدعوته وغير ذلك ممّا يرتبط بحياته وسيرته، في كثير من الآيات والسور.

فالرجوع إلى نفس القرآن لاستخراج سيرة النبيّ يُعتبر من أوثق وأصحّ الطرق والمصادر لدراسة السيرة النبويّة الصحيحة.

٢- النصوصُ الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام

التي عرضت سيرة وحياة رسول الله، فإنّ هذه النصوص تُعتبر في الأهميّة بعد القرآن الكريم؛ لأنّ أهل البيت عليهم السلام أدرى بما فيه، وهم الأئمّة المعصومون الذين يحملون العلم الإلهيّ ... وعندهم علم الكتاب وعلم ما كان ويكون بإذن الله تعالى. وليس لأحد- كائناً من كان - أن يُناقش فيما يُنقل بطريق صحيح عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، الذي لازم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع مراحل حياته، وكان يتّبعه اتبّاع الفصيل أثرَ أمّه، ويراه في الأوقات التي لا يراه فيها غيرُه.

وقد ورد عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام مئات بل آلاف النصوص والروايات، التي تحدّثت عن حياة رسول الله العامّة والأحداث الكبرى التي عاشها في حياته، وعن سيرته الذاتيّة والخاصّة.

٣- الروايات التاريخيّة المرويّة بالتواتر عن المسلمين الأوّلين

فالنصوص المرويّة عن الأثبات من الصحابة الذين لا يميل بهم هوى عن جادّة الحقّ، والتي تتحدّث عن سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، تُعتبر من مصادر السيرة والتاريخ إذا ثبتت صحّتها بالتواتر أو بإحدى وسائل الإثبات الأخرى.

ضوابط السيرة الصحيحة

أهمُّ الضوابط والقواعد التي ينبغي اعتمادها في تصحيح السيرة هي:

١ - دراسة أحوال وأوضاع الناقلين للحديث:

فإنَّ أوّل ما ينبغي ملاحظته في الحديث المنقول السندُ: وهو عبارةٌ عن مجموع أسماء الأشخاص الذين نقلوا لنا الحديث أو الحدث التاريخيّ، فلا بُدّ من دراسة أحوال وأوضاع هؤلاء الرواة لمعرفة ميولهم وارتباطاتهم السياسيّة والمصلحيّة، ولمعرفة مدى صدقهم ودقّتهم فيما أخبرونا به، لتحديد مدى امكانيّة الوثوق والاعتماد على نقلهم.

وطبيعـيٌّ أنّ من عُرف عنــه أنّه يكذب في خبره أو لا يُدقِّـق في نقله، لا يُمكن الاعتماد عليه، إلّا بعد أن نتأكد من صحّة ما نقله من مصادر وجهات أخرى.

وكذلـك من عُـرف عنه أنــه ينســاقُ وراء أهوائــه السياسيّــة أو المذهبيّة أو المصلحيّــة، لا يُمكن الأخذ بما ينقله لنا؛ لأنّه يكون بذلك قد أخلّ بدرجة الوثوق والاطمئنان.

٢- انسجام مضمون النصّ مع صفات وخصائص الشخصيّة النبويّة ومميّزاتها:

المثاليّــة والرساليّــة، عندها يكون مقبــولاً ونأخُذ بمضمونــه إذا توافرت فيه سائرُ شروط القبول الأخرى.

مثـلاً: إذا ثبت لدينــا بالدليل القطعيّ الصحيح؛ أنّ شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هي في أعلى درجات الطُّهر والعصمة والحكمة والشجاعة، وأنّه يتحلّى بكلّ الصفات النبيلة والفاضلة، جامعاً لكلّ القيم الإنسانيّة السامية، فلا بُدّ من جعل كلّ ذلك معياراً وميزاناً لأيّ نصٍّ يُروى بشأنه، أو يُريد أن يُسجّل لنا قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو موقفاً له صلى الله عليه وآله وسلم.

فــإذا لم يكن النصُّ منسجماً مع هــذه الخصائص والمميّزات الثابتة بالدليل القطعيّ الصحيح فإنّه لا يُمكن قبوله، كما لو نسب النصُّ ـ والعياذ بالله، الرذيلة أو الفجور لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو عبادة الأصنام، أو التصرّفات التي تُعبّر عن جهله أو عـدم اتِّزانه، فإنّنا لا نتردّد في رفض مثل هذا النص. كذلك لا نقبل أن تُنسب إلى أحدٍ من أئمّة أهل البيت عليهم السلام تصرُّفات لا تليق بمقامهم الثابت.

٣- عرضُ النصوص على القرآن الكريم:

هذه قاعدةٌ لا بُدَّ أن نعتمدها في كلّ الأحاديث المنقولة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو عن أحــد أئمّة أهل البيت عليهم السلام سواء أكانــت تاريخيّة أم فقهيّة أم أخلاقيّة أم غير

ذلك، فما وافق كتاب اللّه نأخذ به وما خالفه نتركه.

فقد رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**تكثُر لكم الأحاديث بعدي، فإذا رُوي لكم عنّي حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلُوه وما خالفَ فردُّوه**»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**ما لم يُوافق من الحديث القرآنَ فهو زُخرُفٌ**»[2].

٤- عدم التناقض والتنافي بين النصوص:

فإنّ وجود التناقض فيما بينها يُشير إلى وجود نصّ مجهول، أو تعرّض النصّ لتصرُّف ما أزاله عن وجهته الصحيحة، الأمر الذي يستدعي مزيداً من الانتباه، وبذل المزيد من الجهد لمعرفة الصحيح من المزيَّف منها.

٥- عدم مخالفة النصّ للواقع المحسوس:

كما لو ادّعى النصّ: أنّ أقرب طريق من مكّة إلى المدينة يمرّ عبر الأندلس.

٦- عدم مخالفة البديهيّات والضرورات العقليّة الثابتة:

ومن ذلك قولهم: إنّ اللّه عادل وحكيم، ولكنه يُجبر عباده على أفعالهم، ثمّ يُعاقبهم عليها. وقولهم: إنّه تعالى لا يحدّه مكان ولا جهة، ثمّ يقولون إنّ له ساقاً وقدماً وأصابع وما إلى ذلك.

٧- عدم مخالفة الحقائق العلميّة الثابتة بالأدلّة القطعيّة:

كالنصّ الذي يقول: إنّ الأرض تقوم على قرن ثور.

(١) الشيخ الأميني، الغدير، ج٨، ص٢٦.

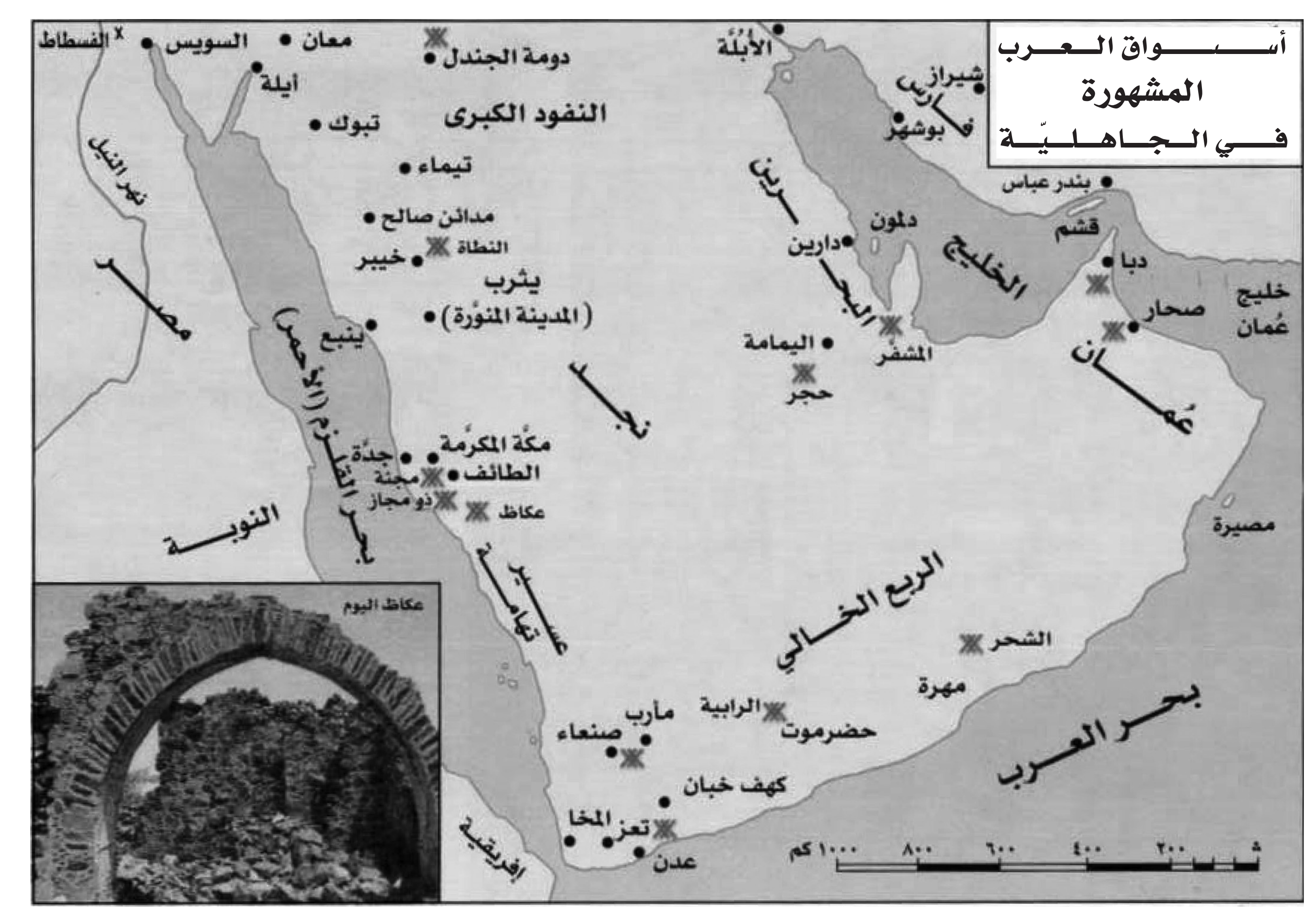
(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٦٩.

٨- عدم التناقض مع الثوابت التاريخيّة القطعيّة:

فـإذا كان من الثابت أنّ الإسراء والمعراج قـد حصلا قبل الهجرة، وثبت أن عائشة انتقلت إلى بيت رسول اللّه ﷺ بعد الهجرة، فلا يُمكن - بعد هذا - تصديق النصّ الـذي يُنقل عن عائشة نفسها من أنّها قالت: مـا فقدت جسد رسول اللّه ﷺ في تلك الليلة؛ يعني ليلة الإسراء والمعراج.

٩- عدم مخالفة الأحكام العقليّة والفطريّة السليمة:

ومـن ذلك حكم العقل بوجوب عصمة النبـيّ ﷺ والإمام عليه السلام عن الخطأ، فالنصّ الذي يُريد أن ينسب إلى النبيّ ﷺ والإمام المعصوم عليه السلام خطأً معيّناً، لا نتردّد في رفضه ولا نشكّ في أنّه من الأخبار المصطنعة.


أسواق العرب المشهورة في الجاهليّة
الفسطاط
السويس
معان
أيلة
دومة الجندل
النفود الكبرى
تبوك
تيماء
مدائن صالح
النطاة
خيبر
يثرب
(المدينة المنوّرة)
ينبع
نهر النيل
مصر
بحر القلزم (الأحمر)
مكّة المكرّمة
جدّة
الطائف
مجنّة
ذو مجاز
عكاظ
النوبة
نجد
تهامة
عسير
إفريقية
صنعاء
مأرب
الرابية
حضرموت
كهف خبان
المخا
تعز
عدن
الربع الخالي
الشحر
مهرة
بحر العرب
مصيرة
عُمان
صحار
دبا
خليج عُمان
قشم
بندر عباس
الخليج
دلمون
دارين
البحرين
المشقّر
اليمامة
حجر
الأبُلّة
شيراز
فارس
بوشهر
عكاظ اليوم
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ ١٠٠٠ كم

خلاصة

إنّ سيرة الرسـول ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام هي طريقتهم ومنهجهم في الحياة، ويتجلّى ذلك في مجمـوع أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم. وسيرة النبيّ محمّـد ﷺ هي الأسلوب والنمط الذي كان يتّبعه فـي أعماله اليومية من خلال سلوكه وأخلاقه وعلاقاته بالآخرين.

المصـادر الأسـاس التي يُمكن الاعتمـاد عليها للتعرُّف إلـى معالم شخصيّة النبيّ ﷺ وسيرته هي:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ النصوص الواردة عن أئمة أهـل البيت عليهم السلام التي عرضت سيرة وحياة رسول الله ﷺ.

٣ ـ الروايات التاريخيّة المرويّة بالتواتر عن المسلمين الأوّلين.

هناك ضوابط ينبغي اعتمادها في تمييز النصّ الصحيح من الفاسد:

١ ـ دراسة أحوال وأوضاع الناقلين للحديث.

٢ ـ انسجام النصّ الحاكي عن سلوك النبيّ ﷺ مع صفاته وخصائصه.

٣ ـ عرض النصّ التاريخيّ على القرآن الكريم.

٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨ عدم التناقض بين النصوص، وعدم مخالفتها للواقع وللبديهيّات والضرورات العقليّة وللحقائق العلميّة والثوابت التاريخيّة.

٩ـ موافقة النصّ الصادر عن المعصوم للعقل والفطرة.



التصوير القرآنيّ للخُلُق العظيم

لا شكّ أنّ أصدق شاهد على عظمة أخلاق رسول اللّه ﷺ هو القرآن الكريم، وهو كلاّمُ اللّه تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾[١]. فقد أشاد القرآن كثيراً بأخلاق صاحب الرسالة ﷺ، وكثُرت فيه الآيات التي تتحدث عن شخصيّته الأخلاقيّة وخصائصه وصفاته الفاضلة، ونحن سنستعرض ما تيسّر من هذه الآيات:

١ - ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢].

فالآية الكريمة تحكي لنا جانب العفو والرحمة والرفق واللين في سلوك النبيّ ﷺ وتعامله مع الآخرين.

٢ - ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

لقد وصفت هذه الآية الرسول الأعظم ﷺ بأوصاف تكشف عن مدى تأثّره واهتمامه بالمسلمين وشؤونهم وحرصه عليهم، وتُعبِّر عن مدى شفقته ورحمته بهم، وكيف أنّه ﷺ حين يُصيب الواحد منهم بعض المشقّة والتعب فإن ظلالاً من الأسى والحزن تُخيّم عليه ﷺ.

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

٣ ـ ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ﴾[١].

٤ ـ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله عزّ وجل أدّب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»[٣].

٦ ـ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٤].

فقد رُوي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «أدّبني ربي تأديباً حسناً إذ قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فلمّا قبلت ذلك منه قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»[٥].

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٢.
(٢) سورة القلم، الآية: ٦.
(٣) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٢٦٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية:١٩٩.
(٥) تفسير القرطبي، ج١٨، ص٢٢٨.



الدرس الثالث

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
من الولادة إلى الزواج



أهداف الدرس

١ - أن يستذكر الطالب نسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ - أن يتعرّف إلى كفالة عبد المطّلب وأبي طالب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصفاتهما.

٣ - أن يُعدِّد أسفار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة.

٤ - أن يسرد أخلاق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحكمته قبل النبوّة.

٥ - أن يسرد قصّة زواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من السيّدة خديجة عليها السلام.



نسب النبيّ ﷺ:

هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصيّ، بن كلّاب، بن مُرّة... بن عدنان... إبن النبيّ إسماعيل عليه السلام إبن النبيّ إبراهيم عليه السلام.

والمرويّ عن النبيّ ﷺ أنّه كان إذا انتسب لم يُجاوز نسبه معد بن عدنان ثمّ يُمسك، وأوصى الآخرين بذلك بقوله: «**إذا بلغ نسبي إلى عدنان فأمسكوا**»[١]. وقد نفى ﷺ ما ذكره النسّابون من أسماء أجداده بين عدنان وإسماعيل[٢].

واستناداً إلى التقسيم القَبَليّ عند العرب، تُقسَّم العرب بشكلٍ عامّ إلى الشّق «القحطانيّ» و«العدنانيّ». وتُعتبر قريش من العرب العدنانيّين بسبب انتسابها إلى «عدنان». كما أنّ جدّ النبيّ ﷺ هاشم بن عبد مناف تنتسب إليه أشرف أُسرة في مكّة وهي أُسرة بني هاشم.

وكانت ولادته المباركة في مكّة المكرمّة، في شُعب أبي طالب، يوم الجمعة في

---

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ج١، ص١٥٥، قم، المطبعة العلميّة. والمجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، طهران، دار الكتب الإسلاميّة،ج١٥،ص١٠٥.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص١٥٥.

السابع عشر من شهر ربيع الأوّل في عام الفيل الموافق لسنة ٥٧١ للميلاد[١].

ولم يرتضع ﷺ من أمّه سوى ثلاثة أيّام، ثمّ حظيت بشرف إرضاعه حليمة السعديّة؛ التي كانت تُقدِّمه على أولادها لما وجدت فيه من الخير والبركة، وبقي عندها في البادية إلى أن بلغ سنّ الخامسة، حيث عاد إلى أهله ليكون في كفالة جدّه عبد المطّلب، ومن ثمّ في رعاية عمّه أبي طالب[٢].

النبيّ في كفالة جدّه:

سار النبيّ ﷺ برفقة أمّه آمنة بنت وهب في قافلة إلى يثرب لزيارة قبر والده عبد اللّه، وفي طريق العودة إلى مكّة توفّيت والدته ودُفنت في منطقة الأبواء، فجاؤوا به إلى جدّه عبد المطّلب.

كان آباء وأجداد الرسول محمّد ﷺ موحِّدين، ابتداءً من أبيه عبد اللّه إلى النبيّ آدم، ولم يكن فيهم مشرك، ومنهم جدّه عبد المطّلب، الذي كان سيّداً وشريفاً وجواداً في قريش، وعاش ﷺ في كفالته، وكان يرعاه خير رعاية، ولا يأكل طعاماً إلّا إذا حضر، ويُفضّله على أبنائه.

ويبدو أنّه كان عارفاً بنبوّته ﷺ، من خلال صفاته والأحداث التي رافقته منذ ولادته، وكذلك من خلال البشائر والأخبار التي كانت تُنبئ بمستقبله ونبوّته ﷺ.

وكان عبد المطّلب من المعتقدين بالمعاد والحساب ويقول: «**واللّه إنّ وراء هذه الدار داراً يُجزى فيها المُحسن بإحسانه، ويُعاقب المُسيء بإساءته**»[٣].

ولم يكن متعصباً للقبيلة، وكان يحثّ أبناءه على التحلّي بمكارم الأخلاق، وتُؤثر

(١) توفّي عبد اللّه والد النبيّ ﷺ عند عودته من سفر تجارة من الشام، وكان ﷺ له من العمر أشهر. ورُوي أنّه توفّي قبل ولادته ﷺ.

(٢) راجع: المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج ١٥، ص٤٠١.

(٣) الألوسي البغدادي، محمود شكري، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، ج ١، ص٣٢٤.

عنــه سنن جاء القــرآن والسنّة بأكثرهــا، منها تحريم الخمــر والزنا، وقطع يد الســارق، والنهــي عــن وأد البنــات، وأن لا يطوف أحــد بالبيت عريانــاً، والوفاء بالنذور، وأن لا تُنكح ذات محرم...

وفاة عبد المطّلب ورعاية أبي طالب:

توفّي عبد المطّلب ورسول اللّه ﷺ ابن ثماني سنين، فأوصى به إلى عمِّه أبي طالب، وذلك لأنّ عبد اللّه أبا رسول اللّه ﷺ وأبا طالب أخوَان لأمّ. فكفل رسولَ اللّه ﷺ بعــد وفاة عبد المطّلب أبو طالب عمّه، فــكان خير كافل لعطفه وحنانه عليه ﷺ، وكان أبو طالب سيّداً شريفاً مطاعاً، وكان سيّد قومه في زمانه. وكان يُحبّ النبيّ ﷺ حُبّاً شديداً.

وربّتــه فاطمة بنت أسد بن هاشم امرأة أبي طالب، وكانت تُحبّه كثيراً وتحنو عليه، وكان ﷺ يصفها بأنّها أمّه.

السفر إلى الشام ونبوءة الراهب:

تحــدّث المؤرّخون عن رحلتين للنبيّ ﷺ إلى الشام، إحداهما بصحبة عمّه، والأخرى: بصحبة غلام لخديجة في تجارة لها.

فــي الرحلــة الأولــى: كان عمــر النبيّ اثنتــي عشرة سنة، وكان مــع عمّه أبي طالب ضمن قافلة تجاريّة لقريش، وفي الطريق توقّفت القافلة في منطقة بُصرى، وكان فيهــا راهب يُدعى بحيرا، وقد اتّفق أن التقى الراهب قافلة قريشــ ولفتــت نظره شخصيّة النبــيّ ﷺ وراح يتأوّل ويُحــدِّق في صفاته وملامحــه[1]، خاصّة بعدما رأى أنّ سحابة مــن الغيم تُرافق محمّداً ﷺ أينمــا جلس لتحميه من حــرّ الشمس، فأتى الراهب أبــا طالب وبشّره بأنّ

(١) ابن هشام، عبد الملك، سيرة النبيّ، تحقيق مصطفى السقاء، القاهرة، مطبعة الحلبي، ١٣٥٥هـ، ج١، ص١٨٩.

ابن أخيه نبيّ هذه الأمّة، وأخبره بما سيكون من أمره بعدما كان قد كشف عن ظهره ورأى خاتم النبوّة بين كتفيه، ووجد فيه العلامات التي وصفته بها التوراة والأناجيل وغيرها[1].

وتذكر النصوص أنّ بحيرا أصرّ على أبي طالب بأن يعود به إلى مكّة، وأن يُبقيه تحت رقابته خوفاً عليه من اليهود وغيرهم، فقطع أبو طالب رحلته ورجع به إلى مكّة.

وفي الرحلة الثانية: كان عمر النبيّ ﷺ خمسة وعشرين سنة، وهذا السفر كان لأجل عمل تجاريّ مع السيّدة خديجة بنت خويلد قبل أن يتزوّج بها، وبإشارة من أبي طالب بسبب الأوضاع المعيشيّة الصعبة آنذاك، وكانت هذه التجارة مع السيّدة خديجة على نحو المضاربة والمشاركة.

ولا بدّ من التأكيد على مسألة مهمّة وهي أنّ النبيّ ﷺ لم يعمل أجيراً في رعي الغنم لأهل مكّة أو لغيرهم، وإن كان قد رعى الغنم لأهله وعشيرته.

محمّد ﷺ في شبابه:

أخلاقه وحكمته:

اتفق المؤرّخون على أنّ محمّداً ﷺ أصبح في مطلع شبابه موضع احترام في مجتمعه، لما كان يمتلكه من وعي، وحكمة، وبُعد نظر.

وقد اشتُهر بسموّ الأخلاق، وكرم النفس، والصدق والأمانة، حتّى عُرف بين قومه بالصادق الأمين، كما اشتُهر برجاحة عقله، وصوابيّة رأيه، حتّى وَجَدَ فيه المكّيّون والقرشيّون سيّداً من سادات العرب الموهوبين، ومرجعاً لهم في المهمّات وحلّ المشكلّات والخصومات.

(١) ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبويّة،ج ١، ص١٩٣.

وذكر المؤرخون: أنّ الناس كانوا يتحاكمون إلى النبيّ ﷺ في الجاهليّة، لأنّه كان لا يُداري ولا يُماري، وله مع قومه تجارب سياسيّة واجتماعيّة، حتّى شارك بشكلٍ فاعل ومؤثّر في حَدَثَين تاريخيّين حصلا قبل البعثة هما: حلف الفضول، وتجديد بناء الكعبة.

حلف الفضول:

وهو أشرف حلف عُقِد بين زعماء عدد من بطون قريش[١]، وكان نتيجةً لسلسلة من حوادث الاعتداء على أموال وأعراض بعض الوافدين إلى مكّة في موسم الحج. فدعا الزبير بن عبد المطّلب إلى إقامة تحالف بين قبائل قريش، بهدف مواجهة كلّ من يعتدي على الآخرين، فاستجاب لدعوته بنو هاشم، وبنو عبد المطّلب، وبنو أسد وغيرهم، وعقدوا اجتماعاً في دار عبد الله بن جدعان، تحالفوا فيه على محاربة الظلم والفساد، والانتصار للمظلوم والدفاع عن الحقّ، وقد سُمّي بحلف الفضول، لأنّ قريشاً قالت بعد إبرامه: هذا فضول من الحلف، وقيل: لأنّ ثلاثة ممّن اشتركوا فيه كانوا يُعرفون باسم الفضل، وهم الفضل بن مشاعة، والفضل بن بضاعة، والفضل بن قضاعة. وقد حضر النبيّ ﷺ الحلف المذكور وشارك فيه، وكان يتجاوز العشرين من عمره الشريف[٢].

وكانت مشاركته ﷺ في هذا الحلف عملاً نبيلاً، ونوعاً من الدفاع عن حقوق الإنسان في ذلك المجتمع الجاهليّ، ففي الوقت الذي كان فيه أترابه من أبناء مكّة منكبّين على الشراب واللذائذ، ومنغمسين في اللهو واللعب، كان هو يحضر هذا الحلف إلى جانب أكابر قريش، وقد أثنى على هذا الحلف بعد بِعثته وذَكَرَه

(١) سبب هذا الحلف أنّ رجلاً من زُبيد قدم مكّة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل من بني سهم، فحبس عنه حقّه. فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف، فأبوا معونة الزبيدي على إبن وائل وانتهروه. وعندما رأى الزبيدي إجتماع زعماء قريش إلى جانب الكعبة، صعد على جبل أبي قبيس واستغاث، وعلى أثر ذلك دعا الزبير بن عبد المطّلب وكبار القوم إلى اجتماع نتج عنه هذا الحلف.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص١٣.

بفخر قائلاً: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبّ أنّ لي به حُمْر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت**»[١].

وهذا الكلام يدلّ على أنّ هذا الحلْف ينسجم مع أهداف الإسلام، وعلى واقعية الإسلام حيث إنّه ينظر إلى مضمون العمل وقيمته وليس إلى شكله وصورته، حتّى ولو قام به أهل الشرك، وعلى استجابة الإسلام لكلّ عمل إيجابي فيه خير الإنسان ومصلحته، وانفتاحه على الآخرين.

نصب الحجر الأسود:

أثناء ولاية قريش على الكعبة، وقبل النبوّة بخمس سنوات، أصاب الكعبة التصدُّع من آثار السيول، فاجتمعت قريش على أثر ذلك وقرّرت هدمها وتجديد بنائها، ورصدوا لذلك ما تحتاجه من نفقات.

يقول المؤرّخون: إنّ قريشاً وزّعت الهدم والبناء على القبائل، فكان لكلّ قبيلة جهة معيّنة، وكان الوليد بن المغيرة أوّل من بادر إلى هدمها بعد أن تهيّب غيره من فعل ذلك. ولمّا بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يرفعه إلى موضعه، وأصبحت كلّ قبيلة تُريد أن تنال هي هذا الشرف، لأنّهم كانوا يَرَون أنّ من يضع الحجر الأسود في مكانه تكون له السيادة والزعامة.

وكاد الأمر يُؤدّي بهم إلى فتنة كبيرة حيثُ استعدّوا للقتال، وانضمّ كلّ حليف إلى حليفه، ولمّا وصلوا إلى حدٍّ خطير اقترح عليهم أبو أميّة إبن المغيرة أن يُحكِّموا في هذا النزاع أوّل داخل عليهم، فكان محمّد بن عبد الله أوّل الوافدين، فلمّا رأوه استبشروا بقدومه وقالوا: لقد جاءكم الصادق الأمين، أو هذا الأمين قد رضينا به حَكَماً.

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٨٣، هامش ص ٢٥٦.

فطلب منهم النبيّ ﷺ أن يُحضروا ثوباً فأتَوا له بثوب كبير، فأخذ الحجر ووضعه فيه بيده، ثمّ التفت إلى شيوخهم وقال: «**لتأخُذ كلّ قبيلة بطرف من الثوب ثمّ ارفعوه جميعاً**» فاستحسنوا ذلك، ووجدوا فيه حلّاً يحفظ حقوق الجميع، ولا يُعطي لأحد امتيازاً على الآخر، ففعلوا ما أمرهم به، فلما أصبح الحجر بمحاذاة الموضع المُخصّص له، أخذه رسول اللّه بيده الكريمة ووضعه مكانه[1].

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ ويكشف عن المكانة الاجتماعيّة الخاصّة التي كان يحتلّها النبيّ ﷺ في نفوس الناس في مكّة.

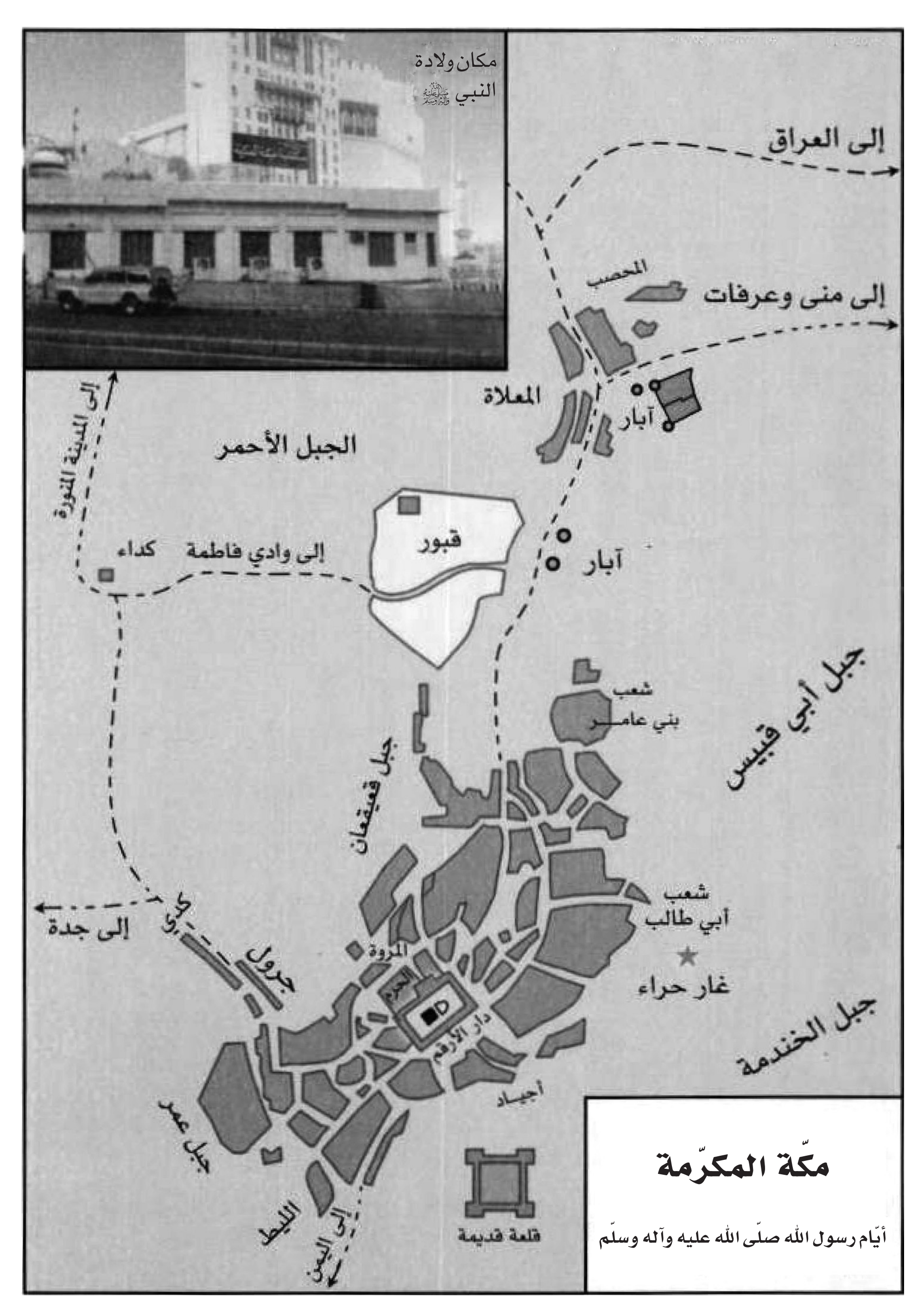
زواجه من خديجة:

كانت السيّدة خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكانت تُدعى في الجاهليّة بالطاهرة وسيّدة قريش، وقد تزوّجها النبيّ ﷺ وله من العمر خمسة وعشرون سنة، وقيل غير ذلك، وتُشير النصوص إلى أنّ خديجة هي التي بادرت أوّلاً وأبدَت رغبتها في الزواج من محمّد ﷺ بعدما رأت فيه من الصفات النبيلة ما لم تره في غيره. ويُرجّح بعض المؤرّخين أن يكون عمر خديجة حين زواجها من النبيّ ﷺ ثمانية وعشرين عاماً وليس أكثر من ذلك، كما أنّها لم تتزوّج قبله بأحدٍ قطّ[2].

---

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج١٥، ص٣٣٧ـ٣٣٨.

(٢) مرتضى، السيّد جعفر، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم ﷺ، ج١، ص١٢١.


مكان ولادة
النبي ﷺ
إلى العراق
المحصب
إلى منى وعرفات
المعلاة
آبار
الجبل الأحمر
إلى المدينة المنورة
قبور
كداء
إلى وادي فاطمة
آبار
جبل أبي قبيس
شعب
بني عامر
جبل قعيقعان
شعب
أبي طالب
إلى جدة
كدي
جرول
المروة
الحرم
غار حراء
دار الأرقم
جبل الخندمة
أجياد
جبل عمر
الليط
إلى اليمن
قلعة قديمة
مكّة المكرّمة
أيّام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم

خلاصة

ينتسب النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إلى أشرف أُسرة في مكّة وهي أُسرة بني هاشم. وقد ولِد في مكّة المكرّمة، ونشأ ولم يرَ والده، ثمّ بعد فترة من الزمن فَقَدَ والدته، فاحتضنه جدّه عبد المطّلب، حتّى إذا كان عمره ثمانية أعوام فَقَدَ جدّه أيضاً، فاحتضنه عمّه أبو طالب عليه السلام فلم يفارقه في كلّ أحواله، وكان يصحبه معه في أسفاره إلى الشام، وهناك التقى الراهب (بحيرا) فبشّر أبا طالب بمقام ومنزلة ابن أخيه ثمّ دعاه إلى أن يحفظه من اليهود مخافة أن يكيدوا له إن علموا خبره.

ولمّا بلغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العشرين عاماً، ذهب إلى الشام بتجارة للسيّدة خديجة بنت خويلد، وعندما بلغ حدود الخامسة والعشرين تزوّج منها.

اشترك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل بعثته في حلف الفضول، وكانت قريش تدعوه بـ«**الصادق الأمين**».

النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي وضع الحجر الأسود من الكعبة في مكانه، عندما كادت الحرب أن تقع بين القبائل؛ لأنّ كلّ واحدة منها كانت تروم وضع الحجر في مكانه، حتّى حكّموا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك.



صلاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

نظراً لما تحتلّه الصلاة من مكانة عظمى في الإسلام، فقد كان اهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بها وتعاهده لأمرها منقطع النظير.

❖ فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُصلّي الصلاة في أوّل وقتها، ويحثّ المسلمين على ذلك، فقد روى ابن مسعود قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**الصلاة لوقتها. قلت: ثمّ أيّ شيء؟ قال: برّ الوالدين. قلت: ثمّ أيّ شيء؟ قال: الجهاد في سبيل الله**»[١].

❖ وعن عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُحدِّثنا ونُحدِّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه[٢].

❖ ولعظيم شوقه للوقوف بين يدي الله في الصلاة، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم ينتظر وقت الصلاة، ويترقّب دخوله، ويقول لبلال مؤذّنه: «**أرحنا يا بلال**»[٣].

❖ عن الحسين بن عليّ عليه السلام، في حديث عن خشوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صلاته، يقول عليه السلام: «**كان صلى الله عليه وآله وسلم يبكي حتّى يبتل مصلاه خشية من الله عزّ وجلّ من غير جرم**»[٤].

❖ وعن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام قالا: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا**

(١) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج٤، ص١١٣.
(٢) الأصبهاني، أخلاق النبيّ، ص٢٥١.
(٣) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٨٣، ص١٦.
(٤) م. ن، ج١١، ص٤٥.

صلّى قام على أصابع رجليه حتّى تورّمت فأنزل الله تعالى: ﴿طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾»[1].

❖ وعن الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: «**إنّ جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فلم يدع الاجتهاد له، وتعبّد، بأبي هو وأمّي، حتّى انتفخ الساق، وورم القدم، وقيل له: أفتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: أفلا أكون عبداً شكوراً**»[2].

❖ وحول صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في اللّيل يُحدِّثنا عبد الله بن عباس، يقول: «حتّى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثمّ قرأ العشر آيات الخواتم من سورة آل عمران، ثمّ قام إلى شنٍّ[3] معلَّقة، فتوضّأ منها، فأحسن وضوءه، ثمّ قام يُصلِّي، فصلّى ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ أوتر، ثمّ اضطجع حتّى جاءه المؤذِّن، فقام فصلّى ركعتين خفيفتين، ثمّ خرج فصلّى الصبح»[4].

ومن المعلوم أنّ صلاة الليل ثماني ركعات، ثمّ الشفع ركعتان، ثمّ الوتر ركعة واحدة، والركعتان الأوليان تُستحبان قبل صلاة الليل كما في حديث الإمام زين العابدين عليه السلام في كتاب وسائل الشيعة كتاب الصلاة باب استحباب صلاة ركعتين قبل صلاة الليل، والركعتان اللتان صلّاهما صلى الله عليه وآله وسلم عند مجيء المؤذِّن له هما نافلة الفجر، فيصبح المجموع خمس عشرة ركعة كما ذكر في حديث ابن عباس.

وعن أحد الصادقين عليهما السلام قال: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يُصلّي بعدما**

---

(١) الطباطبائي،محمّد حسين، سنن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ص٣٢.

(٢) الطوسي، أمالي الطوسي، ص٤٧.

(٣) شنّ: قربة ماء.

(٤) راجع: الشافعي، كتاب الأم، ج١، ص١٩٦.

ينتصف الليل ثلاث عشرة ركعة».

وسئلت أمّ سلمة عن صلاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في الليل فقالت: ما لكم وصلاته؟ كان يُصلّي ثمّ ينام قدر ما صلّى، ثمّ يُصلّي قدر ما ينام، ثمّ ينام قدر ما صلّى، ثمّ يُصبح.

وعن الإمام الصادق عليه السلام في حديث يشرح فيه كيفيّة إحياء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للّيل قال:

«**كان يُؤتى بطهور فيُخمّر عند رأسه ويُوضع سواكه تحت فراشه، ثمّ ينام ما شاء اللّه، فإذا استيقظ جلس، ثمّ قلّب بصره في السماء، ثمّ تلا الآيات من آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ثمّ يستنّ ويتطهّر ثمّ يقوم إلى المسجد، فيركع أربع ركعات على قدر قراءته ركوعه، وسجوده على قدر ركوعه، يركع حتّى يُقال متى يرفع رأسه، ويسجد حتّى يُقال متى يرفع رأسه، ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شاء اللّه، ثمّ يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران ويُقلّب بصره في السماء، ثمّ يستنّ ويتطهّر ويقوم إلى المسجد، فيُصلّي أربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثمّ يعود إلى فراشه فينام ما شاء اللّه، ثمّ يستيقظ فيجلس فيتلو من آل عمران ويُقلّب بصره في السماء، ثمّ يستنّ ويتطهّر ويقوم الى المسجد فيتوضّأ ويُصلّي الركعتين ثمّ يخرج إلى الصلاة**»[1].

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٤، ص ٢٢٨.



الدرس الرابع

البعثة النبويّة المباركة



أهداف الدرس

١- أن يتعرّف الطالب إلى نزول الوحي والأحداث التي رافقته.

٢- أن يُعدِّد بعض أوائل المؤمنين بالدعوة.

٣- أن يُلخّص أسلوب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في بدء الدعوة.

٤- أن يُوجز الإعلان عن النبوّة والولاية في وقتٍ واحد.



إرهاصات الوحي والنبوّة:

تعرّفنا في الدرس السابق إلى الأجواء التي عاشها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوّة؛ حيث كان جميع آبائه موحِّدين، وكان صلى الله عليه وآله وسلم على درجة عالية من التربية وحُسن الخُلُق، ولم يتدنّس بعبادة الأصنام، فكان منذ صغره موضعاً موضع عناية الله تعالى كما يُصوِّر لنا ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره...**»[1]. فكان صلى الله عليه وآله وسلم يخلو بضعة أيّام من السنة في جبل حراء، يقضيها بالعبادة والدعاء، وكان من قبل يتعبّد فيه عبد المطّلب. وحينما بلغ النبيّ الأربعين، نزل عليه جبرئيل، وقرأ عليه أوّل آيات القرآن الكريم[2] وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3]. وبعد تلقين ذلك البيان الإلهيّ، عاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهله مستبشراً مسروراً بما أكرمه الله به من النبوّة والرسالة.

(١) السيّد الرضيّ، نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ (المسمّاة بالقاصعة).

(٢) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج ١، ص٢٥١.

(٣) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

طمأنينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

كانت البعثة النبويّة المباركة في السابع والعشرين من شهر رجب الأصَبّ، وتَنقُل لنا الروايات أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان مطمئنّاً إلى المهمّة التي شرّفه الله بها، فلم يكن خائفاً أو مرعوباً مما جرى له، بل كان عالماً بنبوّة نفسه، ولمّا دخل على خديجة وأخبرها بما أنزله الله عليه، وبما سمعه من جبرئيل، قالت له: «**أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلّا خيراً، وأبشر فإنّك رسول الله حقّاً**»[1].

قال الإمام الصادق عليه السلام في جواب أحد أصحابه (زرارة) عندما سأله: كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ما يأتيه من قِبَل الله أن يكون ممّا ينزغ به الشيطان؟ فقال عليه السلام: «**إنّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار، فكان الذي يأتيه من قِبَل الله عزّ وجلّ مثل الذي يراه بعينه**»[2].

الدعوة السريّة:

أقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكّة ثلاث سنين يَكتُم أمره[3] وهو يدعو إلى توحيد الله عزّ وجلّ، وذلك لأنّ أجواء مكّة لم تكن في تلك الظروف المناسبة للمجاهرة بالدعوة علناً، فكان في هذه السنوات يدعو سرّاً كلّ من يرى فيه استعداداً لقبول دعوته، ويدعوهم إلى توحيد الله والإقرار بنبوّته. وفي هذه المدّة تناهى خبره إلى أسماع قريش، فكان إذا مرّ بملأ من قريش قالوا: إنّ فتى ابن عبد المطّلب ليُكلَّم من السماء. ولكن بما أنّه لم يكن يُجاهِر بدعوته في الوسط العامّ، لذلك لم يكونوا على علمٍ بفحوى دعوته، وبالنتيجة لم يصدر أيّ ردّ فعل تجاهه.

(١) نظراً إلى الاستعدادات التي كانت لدى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وما كان يتلقّاه من رسائل ومؤشّرات غيبيّة، فلا معنى للقول بأنّه قد فوجئ بنزول الوحي وأصابه الخوف والاضطراب.. ولم يكن لقاؤه بجبرائيل في غار حراء هو اللقاء الأوّل بحيث يُصاب من جرّائه بالخوف، وكيف يُمكن القول بأنّه سكن واطمأنّ قلبه استناداً إلى تأكيد نبوته من رجلٍ مسيحيّ أعمى وهو ورقة بن نوفل!!

(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج ١٨، ص٢٦٢.

(٣) الصدوق، محمّد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: مؤسسة النشر الإسلاميّ، ١٣٦٣هـ، ج٢، ص٣٤٤.

وفي هذه المدّة آمن بدعوته عدد من الأشخاص، ثمّ إنّ أحد هؤلاء المسلمين الأوائل وهو الأرقم وضع داره - التي كانت تقع عند قاعدة جبل الصفّار - تحت تَصرُّف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل منها صلى الله عليه وآله وسلم بمثابة مقرّ لهم كانوا يجتمعون فيها أثناء مدّة الإستخفاء، إلى أن جاء أمر الله بأنّ يَصْدَع بالدعوة[1]. وكانت أمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نقطتان هامّتان في هذه المرحلة وهما:

١ - بناء النواة الجهاديّة الأولى للدعوة.

٢ - حماية هذه النواة والمحافظة عليها.

أوّل من أسلم من النساء والرجال

يتّفق المؤرّخون على أنّ خديجة عليها السلام أوّل امرأة آمنت برسالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّها كانت أوّل من يطّلع على الأمر بعد عودة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من غار حراء. وكذلك الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكان عمره آنذاك عشر سنوات، أو اثنتي عشرة سنة.

وكون الإمام عليّ عليه السلام أوّل الناس إسلاماً يُؤيّده الكثير من الأدلّة ومنها:

١. **تصريح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك**: قال صلى الله عليه وآله وسلم في محضر جماعة من المسلمين: «**أوّلكم وروداً عليَّ الحوض، أوّلكم إسلاماً، عليّ بن أبي طالب**»[2].

ونقل كبار العلماء والمحدّثين ما يلي: «**استنبىء النبيّ يوم الإثنين وصلّى عليّ يوم الثلاثاء**»[3].

٢. **تصريح الإمام عليّ عليه السلام**: قال عليه السلام: «**لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي**

(١) الحلبي، عليّ بن برهان الدين، السيرة الحلبية: دار المعرفة، بيروت، ج١، ص٤٥٦ - ٤٥٧.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: بيروت، دار الكتاب العربيّ، ج٢، ص٨١.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ، ج٢، ص٥٧.

والرسالة وأشمّ ريح النبوّة»[1].

وتحدّث عليه السلام في موضع آخر عن سبقه إلى الإسلام، قائلاً: «**اللهم إنّي أوّل من أناب، وسمع وأجاب، لمْ يسبقني إلّا رسول الله بالصلاة**»[2]. وقد قال هذا الكلام في معرض احتجاجه على خصومه في مناسبات متعدّدة من دون أن يعترض أحد على ذلك، أو يجرؤ على الإنكار.

٣ ـ أورد العلامة الأميني في كتابه الغدير أقوالاً عن العشرات من كبار الصحابة والتابعين وغيرهم، وعن العشرات من مصادر الفريقين، تؤكّد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو أوّل الأمّة قاطبةً إسلاماً وإيماناً، ومنها ما رواه عن أحمد بن حنبل أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**عليّ بن أبي طالب أوّل أصحابي إسلاماً**»[3].

والذي يبدو من النصوص أنّ عليّاً عليه السلام سبق خديجة إلى الإسلام لكونه ملازماً للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا يُفارقه حتّى وهو في غار حراء.

والسبق إلى الإسلام أفضلية أكّد عليها القرآن الكريم مُعلِناً ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[4].

شبهة الأسبقيّة في الإسلام:

بعد هذا العرض يُمكن الجزم بأنّ ادّعاء سبق غير علي عليه السلام إلى الإسلام، ادّعاء غير صحيح تُبطله كلّ النصوص والحقائق التي ذكرناها.. على أنّ هذا الادعاء قد جاء مُتأخِّراً عن عهد الخلفاء الأربعة، وتمّت صياغته بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، ولربما يكون قد حصل ذلك حينما كتب معاوية إلى ولاته

(١) السيّد الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.
(٢) م.ن، الخطبة ١٣١.
(٣) راجع: موسوعة الغدير للعلامة الأميني الجزء الثالث والعاشر.
(٤) سورة الواقعة، الآيتان: ١٠ ـ ١١.

على الأقطار؛ يأمرهم بأن لا يَدَعوا فضيلة لعليّ عليه السلام إلّا ويأتوه بمثلها لغيره من الصحابة.

ومن هنا، فإنّنا نعتقد: أنّ القول بأوّلية إسلام بعض الصحابة غير عليّ عليه السلام موضوع في وقت مُتأخّر تزلّفاً للأمويّين.

وأمّا القول بأنّ علياً عليه السلام هو أوّل من أسلم من الصبيان لا من الرجال، فهو قول غريب، وذلك لما يلي:

أوّلاً: إنّه قد جاء في بعض النصوص المرويّة عن عليّ عليه السلام وعن غيره التعبير بأنّه: «**أوّل رجل أسلم**»، ممّا يعني أنه كان حينئذ رجلاً بالغاً[1].

ثانياً: إنّه وإن كان قد أسلم وعمره عشر سنوات، إلّا أنّه من الواضح: أنّ الرجوليّة والبلوغ لا ينحصران بالسنّ.

على أنّ ثمّة أقوالاً كثيرة في سنّ عليّ عليه السلام حين إسلامه بأنّه كان يتراوح بين ١٢ سنة و١٦ سنة، وبعضهم يتجاوز ذلك أيضاً[2]. فكيف يصحّ وصفه بالصبيّ؟

ثالثاً: إنّ سنّ البلوغ قد حُدّدت بعد الهجرة في غزوة الخندق، أمّا قبل ذلك فقد كان المُعتمد هو التمييز والإدراك، وعليه يدور مدار التكليف والدعوة إلى الإسلام والإيمان وعدمه.

رابعاً: لو كان الأمر كما ذكروه، فلا يبقى معنى لقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عنه: «**إنّه أوّل من أسلم**».

(١) سيرة ابن إسحاق، ص١٣٨.

(٢) من الذين صرّحوا بذلك: الحافظ عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، والمحدّث الكليني، والحسن البصري، والأسكافي وغيرهم.

دعوة عشيرته:

بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة، نزل ملك الوحي يحمل أمر الله تعالى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليُنذر عشيرته الأقربين: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

لمّا نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً عليه السلام، فأمره أن يصنع طعاماً ويدعو له بني عبد المطّلب ليُبلِّغهم، فصنع عليّ عليه السلام الطعام، ثمّ دعاهم وهم يومئذ أربعون رجلاً، وفيهم أعمامه أبو طالب، وحمزة، وأبو لهب، وكان الطعام لا يكفي لهذا العدد في الظروف العادية، ولكن القوم أكلوا حتّى شبعوا جميعاً.

فقام أبو لهب وقال: لقد سحركم صاحبكم. فانفضّ القوم ولم يُكلِّمهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي اليوم التالي أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً أن يفعل كما فعل آنفاً. وبعد أن أكلوا وشربوا، تكلّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «**إنّي والله ما أعلم شابّاً من العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله عزّ وجلّ أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤمن بي ويؤازرني على أمري فيكون أخي ووصيّي وخليفتي؟**».

فأمسك القوم وأحجموا عنها جميعاً. فقام عليّ عليه السلام وكان أصغرهم سنّاً فقال: «**أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك على ما بعثك الله به**». فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده، ثمّ قال: «**إنّ هذا أخي ووصيّي ووزيري وخليفتي فيكم. فاسمعوا له وأطيعوا**»[2].

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢١٤ ـ ٢١٦.

(٢) هذه القضية معروفة بين علماء المسلمين باسم «بدء الدعوة ـ يوم الدار..». وقد نقلها عدد كبير من المفسّرين والمؤرّخين منهم: محمّد بن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٠٧، وابن الأثير في الكامل في التاريخ، ج٢، ص٦٣، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص١٢٢، والشيخ المفيد في الإرشاد، ص٢٩، وغيرهم الكثير.

هـذه القضية تنتهي بنا إلى مطلب أساس وهو أنّ «النبوّة» و«الإمامة» يُمثِّلان مبدأً متماسكاً لا يقبل التجزئة، وذلك لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد طرح قضية الإمامة والقيادة المستقبليّة للمسلمين منذ السنوات الأولى لرسالته، ومنذ اليوم الذي صرّح فيه بنبوّته.

وفي ضوء ترتيب نزول السور يُمكن الإستنباط أنّ دعوة عشيرته جاءت قبل الدعوة العلنيّة بمدّة[1].

وفي الختام نُشير إلى أنّ أبا طالب قال ردّاً على أبي لهب عند دعوة العشيرة إلى الإسلام: «**يا عورة! والله لننصرنه ثمّ لنعيننّه، يا ابن أخي إذا أردت أن تدعو إلى ربّك فأعلمنا حتّى نخرج معك بالسلاح**»[2]. وبهذا أعلن عميد البيت الهاشميّ قرار هذا البيت بحماية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعدم تسليمه إلى المكذِّبين برسالته.

(١) نزلت سورة الشعراء التي فيها آيات الإنذار بعد سورة الواقعة، ثمّ نزلت بعدها سور: النمل، القصص، الإسراء، هود، يوسف، وبعد ذلك نزلت سورة الحجر التي جاء فيها الأمر بإعلان الدعوة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

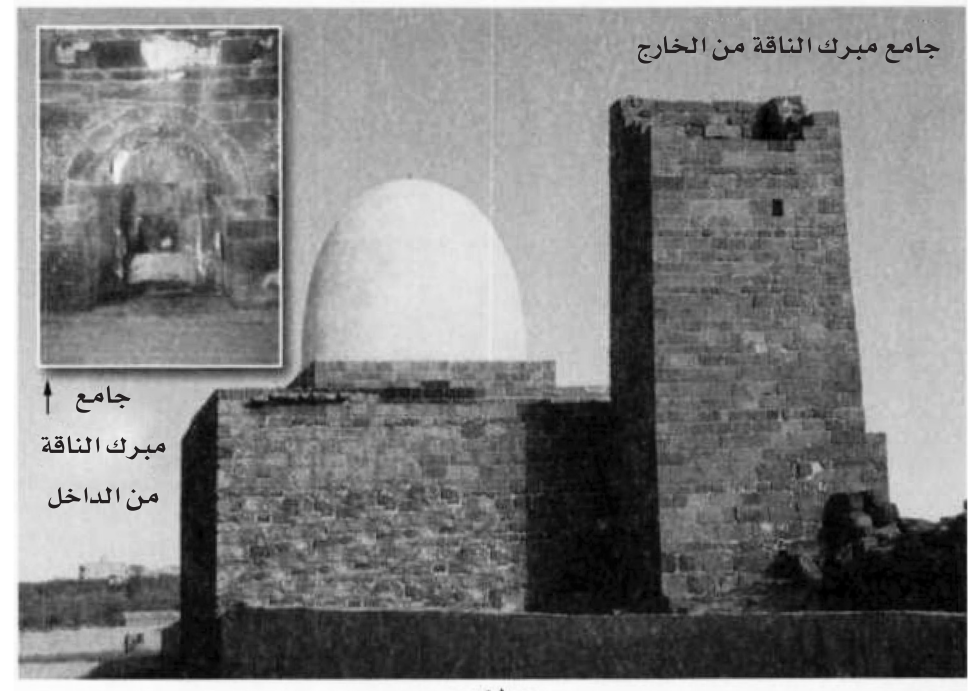
(٢) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٨.



دير الراهب بحيرى من الخارج



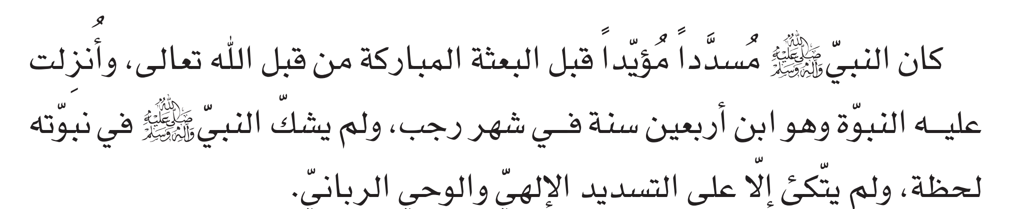
دير الراهب بحيرى من الداخل



جامع مبرك الناقة من الخارج

جامع مبرك الناقة من الداخل ↑

خلاصة



كان النبيّ ﷺ مُسدَّداً مُؤيّداً قبل البعثة المباركة من قبل اللّه تعالى، وأُنزلت عليــه النبوّة وهو ابن أربعين سنة فــي شهر رجب، ولم يشكّ النبيّ ﷺ في نبوّته لحظة، ولم يتّكئ إلّا على التسديد الإلهيّ والوحي الربانيّ.

أوّل مــا نزل من القــرآن حسب النصوص هو مطلع سورة العلق. وكان أوّل من آمن بــه من الرجال الإمام علــيّ عليه السلام ومن النساء زوجتــه خديجة حتّى تكامل المسلمون أربعين شخصاً خلال ثلاث سنوات من النبوّة.

أمــر النبيّ ﷺ بإعلان الدعوة بدءً بعشيرته الأقربين، وأسفر الإجتماع ببني عبد المطّلب وبني هاشم عن إعلان النبوّة والولاية معاً، وأعلن أبو طالب حمايته للنبيّ ﷺ ودعوته بالرغم من وقوف أبي لهب في الموقع الأوّل من المواجهة.

مــطــالــعــة

صيام النبيّ ﷺ

نظــراً للأهميّة البالغة التي يحتلّها الصــوم في الاسلام، فإنّ رسول اللّه ﷺ كان شديــد التعلّق به كأحد الوسائل الأساس للتقرُّب إلى اللّه ونيل رضوانه، فإنّه ﷺ فضــلاً عن أدائه فرض الصيام في شهر رمضــان، كان يُكثر من الصيام المستحــبّ، فقد صام كلّ يوم فترة من الزمن، ثمّ صام يوماً وأفطر يوماً ما شاء اللّه مــن عمــره، ثمّ صام شعبان والأيّــام البيض ـ أي الثالث عشــر والرابع عشر والخامســ عشــر ـ من كلّ شهر، وقــد التزم ﷺ صيام شهر شعبــان كاملاً وأوّل خميس وأوسط أربعاء، وآخر خميس من كلّ شهر.

❖ فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوّل ما بُعث يصوم حتّى يُقال: ما يُفطر، ويُفطر حتّى يُقال ما يصوم، ثمّ ترك ذلك وصام يوماً وأفطر يوماً وهو صوم داوود عليه السلام، ثمّ ترك ذلك وصام الثلاثة أيّام الضحى، ثمّ ترك ذلك وفرّقها: في كلّ عشرة يوماً خميسين بينهما أربعاء، فقُبض وهو يعمل ذلك**»[1].

❖ وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**صام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدهر كلّه ما شاء الله، ثمّ ترك ذلك وصام صيام داوود عليه السلام يوماً لله ويوماً له ما شاء الله، ثمّ ترك ذلك، فصام الإثنين والخميس ما شاء الله، ثمّ ترك ذلك وصام البيض ثلاثة أيّام من كلّ شهر**»[2].

❖ وعنه أيضاً عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصوم شعبان وشهر رمضان يصلهما.. ويقول لهما: شهر الله وهما كفّارة لما قبلهما وما بعدهما من الذنوب**»[3].

❖ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان العشر الأواخر (أي من شهر رمضان) اعتكف في المسجد وضُرِبت له قبّة من شعر وشمّر المئْزَر وطوى فراشه**»[4].

❖ وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام «**... فلم يزل يعتكف صلى الله عليه وآله وسلم في العشر الأواخر من رمضان حتّى توفّاه الله**»[5].

❖ ورُوي: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل شهر رمضان أطلق كلّ أسير، وأعطى كلّ سائل[6].

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، ج٤، ص٩٠.
(٢) محمّد بن الحسن، الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج٤، ص٣٢١.
(٣) السبزواري، ذخيرة المعاد، ج١، ص ٥٢١.
(٤) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، ج٤، ١٧٥.
(٥) المجلسيّ، البحار، ج٩٤، ص٧.
(٦) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٦١.



الدرس الخامس

الدعوة العلنيّة ومواجهة قريش



أهداف الدرس

١- أن يُوضِّح الطالب البداية الأولى للمواجهة وطبيعتها.

٢- أن يُعدِّد الأساليب التي اعتُمِدَت في مواجهة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

٣- أن يتبيَّن دور الإمام عليّ عليه السلام في الدعوة.

٤- أن يتعرّف إلى الحصار المفروض على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في شعب أبي طالب.





بداية الدعوة العلنيّة:

بعـد مـدّة من بـدء الرسـول ﷺ للدعـوة السرِّيَّة إلـى الإسـلام، وبعد بناء القاعـدة الصلبـة للدعوة المتمثِّلة بأولئـك الروّاد الأوائل مـن المسلمين الذين انتمـوا للإسلام في أيّام غُربَته، تلقّى النبيّ ﷺ أمراً من اللّه تعالى بالمجاهرة بالدعوة وعدم الخوف من المشركين: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[1].

فأظهر أمره وقال: «**إنّي رسول الله أدعوكم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ، ولا تخلق ولا ترزق ولا تُحيي ولا تُميت**»[2].

ومنذ ذلك الوقت دخلت دعوة الرسول ﷺ مرحلة جديدة؛ إذ أخذ يدعو إلى التوحيد في التجمُّعات وفي موسم الحجّ في منى وبين القبائل المجاورة لمكّة.

محاولات قريش

كان ردّ فعـل قريش أمام جهره ﷺ بالدعـوة، أن أدبروا عنه وتنكّروا لدعوته

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) الطبرسي، إعلام الورى، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ط٣، ص٣٩.

خصوصاً بعدما ذكر آلهتهم وعابها. وبما أنّ النظام القبليّ الذي كان سائداً في مكّة، كان يعني أنّهم لو تعرّضوا لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم لواجهوا خطر الانتقام من بني هاشم، لهذا لجأوا إلى المحاولات التالية، وذلك بأسلوب مُتدرِّج:

١. **استغلال نفوذ:** عمّه أبي طالب وما يكنّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من احترام له لمنعه صلى الله عليه وآله وسلم من مواصلة دعوته، والطلب إليه بالتوقُّف عن سبّ آلهتهم وتقبيح ديانتهم.

٢. **الترغيب والترهيب:** التعامل مع أبي طالب بالتهديد تارةً، وبعرض المال والثروة والرئاسة تارةً أخرى. وبعدما يئسوا من الحصول على النتيجة المطلوبة، عرضوا على أبي طالب أن يعطوه عمارة بن الوليد - وكان أجمل وأقوى وأشعر فتى في قريش - وأن يُسلِّمهم في مقابل ذلك محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلوه، فرفض أبو طالب ووبّخهم بقوله: «**لبئس ما تسومونني عليه، أتُعطوني ابنكم أغذوه لكم وأُعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً**». وجاؤوه مرّة وهدّدوه بالقتل هو وابن أخيه، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا أن قال: «**والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتّى يُظهِرَه الله أو أهلك فيه، ما تَركتُه**»(١).

٣. **مفاوضة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومساومته مباشرة:** عن طريق إغرائه بالمال والجاه، ولكن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رفض عرضهم؛ لأنّه لا طمع له بالمال والسلطان.

٤. **نهي الناس عن الالتقاء بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:** والاستماع إلى ما يتلوه من قرآن. وقد تحدّث القرآن عن ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(٢).

٥. **التعرُّض لشخص النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالإيذاء المباشر:** فرجموا بيته بالحجارة،

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٨، ص١٨٥.

(٢) سورة فصّلت، الآية:٢٦.

وألقوا التراب على رأسه، ووضعوا الأشواك في طريقه وأمام داره. حتّى قال ﷺ: «**ما أُوذي نبيّ مثل ما أُوذيت**»[1].

٦. **اتّباع سياسة الإرهاب والتعذيب:** والتنكيل بالصفوة المؤمنة.

٧. **مواجهة النبيّ ﷺ:** بالتكذيب، والسخرية، والاستخفاف والاستهزاء، ورميه بأنواع التهم من قبيل ساحر ومجنون، وأنّه يُفرّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجه، وعشيرته. ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[2]. واتّهموه بأنّه يتعلّم عند رجل نصرانيّ اسمه جبر.

وقد ردّ عليهم القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[3].

ولادة السيّدة الزهراء عليها السلام:

وُلدت السيّدة فاطمة عليها السلام على أشهر الأقوال في السنة الخامسة للبعثة في مكّة، وكانت أصغر أولاد الرسول ﷺ من زوجته خديجة، وبعد الهجرة تزوّجت من الإمام عليّ عليه السلام في المدينة. وكانت قد شهدت منذ صغر سنّها جهاد أبيها المشركين وصراعه معهم.

الحصار في شعب أبي طالب:

بعد مواقف الصمود تجاه قريش من قبل النبيّ ﷺ ومن معه، قرّرت قريش مقاطعة بني هاشم، وفرض حصار اجتماعيّ واقتصاديّ عليهم، وهو ما عُرِف بحصار الشعب، فقد اجتمع المشركون في دار الندوة وكتبوا وثيقة اتفقوا فيها على البنود التالية:

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٣٩، ص٥٦.

(٢) سورة ص: الآية٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

١ ـ أن لا يُزوِّجوا أحداً من نسائهم لبني هاشم، وأن لا يتزوّجوا منهم.

٢ ـ أن لا يبتاعوا منهم شيئاً، ولا يبيعوهم شيئاً مهما كان نوعه.

٣ ـ أن لا يجتمعوا معهم على أمرٍ من الأمور.

٤ ـ أن يكونوا يداً واحدة على محمّد وأتباعه[١].

قدّرت قريش أنّ هذا الحصار سيؤدّي إلى أحد ثلاثة أمور:

إمّا قيام بني هاشم بتسليمهم النبيّ ليقتلوه، وإمّا أن يتراجع النبيّ عن الدعوة، وإما القضاء عليه وعلى جميع من معه جوعاً وعطشاً تحت وطأة الحصار.

استمرّ الحصار ثلاث سنوات، من السنة السادسة حتّى التاسعة للبعثة، وكان المسلمون خلاله يُنفقون من أموال خديجة وأبي طالب، حتّى نفدت واضطروا إلى أن يقتاتوا بورق الشجر، ولم يكونوا يجسرون على الخروج من شعب أبي طالب إلّا في موسم العمرة في رجب، وموسم الحجّ في ذي الحجّة، فكانوا يشترون حينئذٍ ويبيعون ضمن ظروف صعبة جدّاً[٢].

وكان الإمام عليٌّ عليه السلام أثناء هذه المحنة يأتيهم بالطعام سرّاً من مكّة من حيث يُمكن.

وكان أبو طالب يحرس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه؛ خوفاً من أن يتسلّل أحد من المشركين إليه ويغتاله على حين غفلة، بل كان إذا حلّ الظلام ينقل النبيّ من المكان الذي عَرف أهل الشعب أنّه بات فيه، إلى مكانٍ آخر، ويجعل ابنه عليّاً عليه السلام في مكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّى إذا حصل أمرٌ أُصيب ولده دونه.

وانتهى الحصار بعدما أكلت الأرضة ما في صحيفة المشركين التي تعاقدوا فيها على الحصار، وقيام جماعة منهم ممّن تربطهم ببني هاشم علاقات نسبيّة

(١) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج١، ص٣٧٥.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ،ج ٢، ص٨٧.

بنقض الصحيفة وإلغاء مفاعيلها، ومنهم من كان من الموقِّعين على الصحيفة، وبذلك عاد بنو هاشم إلى مساكنهم[١]. وكان النبيّ ﷺ قد أخبر بأمر الصحيفة بواسطة أبي طالب، وهي من كراماته ﷺ حيث نزل عليه جبرئيل بأمرٍ من الله تعالى يُخبره بما جرى على الصحيفة.

عام الحزن:

في السنة العاشرة للبعثة، وبعد خروج بني هاشم من الشعب بمدّة قصيرة، تُوفّيت خديجة، وبعدها بمدّة قصيرة تُوفّي أبو طالب[٢]. فعَظُم ذلك على رسول الله ﷺ واشتدّ حزنه، وبوفاة هذين الشخصين اللّذين كانا عضداً وحرزاً وناصراً تتابعت عليه المصائب.

فخديجة بالنسبة للنبيّ ﷺ كانت ضمن نطاق البيت والأسرة الزوجةَ الوحيدةَ الحنون والمضحّية والحريصة، وكانت وزيرة صدق على الإسلام، وكان يسكن إليها. وبقي ﷺ إلى آخر عمره يُكرم مثواها، ولا ينسى سبقها في الإسلام وما تحمّلته من مشقّة ومكابدة في سبيل الدين، حتّى قال فيها: «**ما أبدلني الله خيراً من خديجة؛ لقد آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدّقتني حين كذبني الناس، وواستني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً**»[٣].

أمّا أبو طالب فهو الذي رعى النبيّ ﷺ وتولّاه في طفولته وصباه، وكان الذّابّ والمدافع عنه في عهد رسالته، فكان يقف كالسدّ العظيم أمام أحقاد المشركين وعدوانهم، ولمّا تُوفّي نالت قريش من رسول الله ﷺ، واجترؤوا

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٣١ـ٣٢.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٩٠.

(٣) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ج ٤، ص٢٨٧ (في حاشية الإصابة).

عليـه حتّـى قـال ﷺ: «**مـا نالـت قريش منّـي شيئـاً أكرهـه حتّـى مـات أبـو طالـب**»[1].

ولا شكّ بأنّ أبا طالب مات مُسْلماً، وإن كان قد أخفى إسلامه كما قال الإمام الصـادق عليه السلام: «**إنّ مثـل أبـي طالـب كمثـل أصحاب الكهـف؛ أسـرُّوا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم مرّتين**»[2].

ولـم تكـن المساعي المحمومة التـي بذلها بعض الناس من أجـل إثبات كفر أبـي طالب إلّا بسبـب دوافع سياسيّة، وللانتقاص مـن مكانة الإمام عليّ عليه السلام، وإثبـات ولادته من أبٍ كان يعبد الأصنام، حتّـى وإن كان هو أوّل الناس إسلاماً. فلا جريرة لأبي طالب سوى أنّه والد عليّ عليه السلام.

الإسراء والمعراج:

اختلـف المؤرّخون فـي تأريخهما ما بين السنة الثانية مـن البعثة حتّى السنة العاشرة، ولكن الذي نقطع به أنّه حصل قبل وفاة أبي طالب والسيّدة خديجة.

وبحسـب النصوص فقـد أُسري بالرسـول ﷺ من مكّة إلى بيـت المقدس، بمعجـزةٍ خارقـة للعادة، ثمّ عُرج به من هناك إلى السمـاوات بقدرة اللّه تعالى. وكان الهـدف من هذين السفرين مشاهدة علائم وآيات عظمة اللّه في الكواكب والسماوات، ولقاء الملائكة وأرواح الأنبياء، ورؤية مشاهد الجنّة والنار، ودرجات أهل الجنّة والنار وما شابه ذلك.

وقد وصف اللّه تعالى الإسراء بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[3].

(١) ابن شهر أشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص١٦٧.
(٢) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٤٤٨.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١.

وقــال تعالى في المعراج بعـد بيان المراحل التي مرّ بهــا الرسول ﷺ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[1].

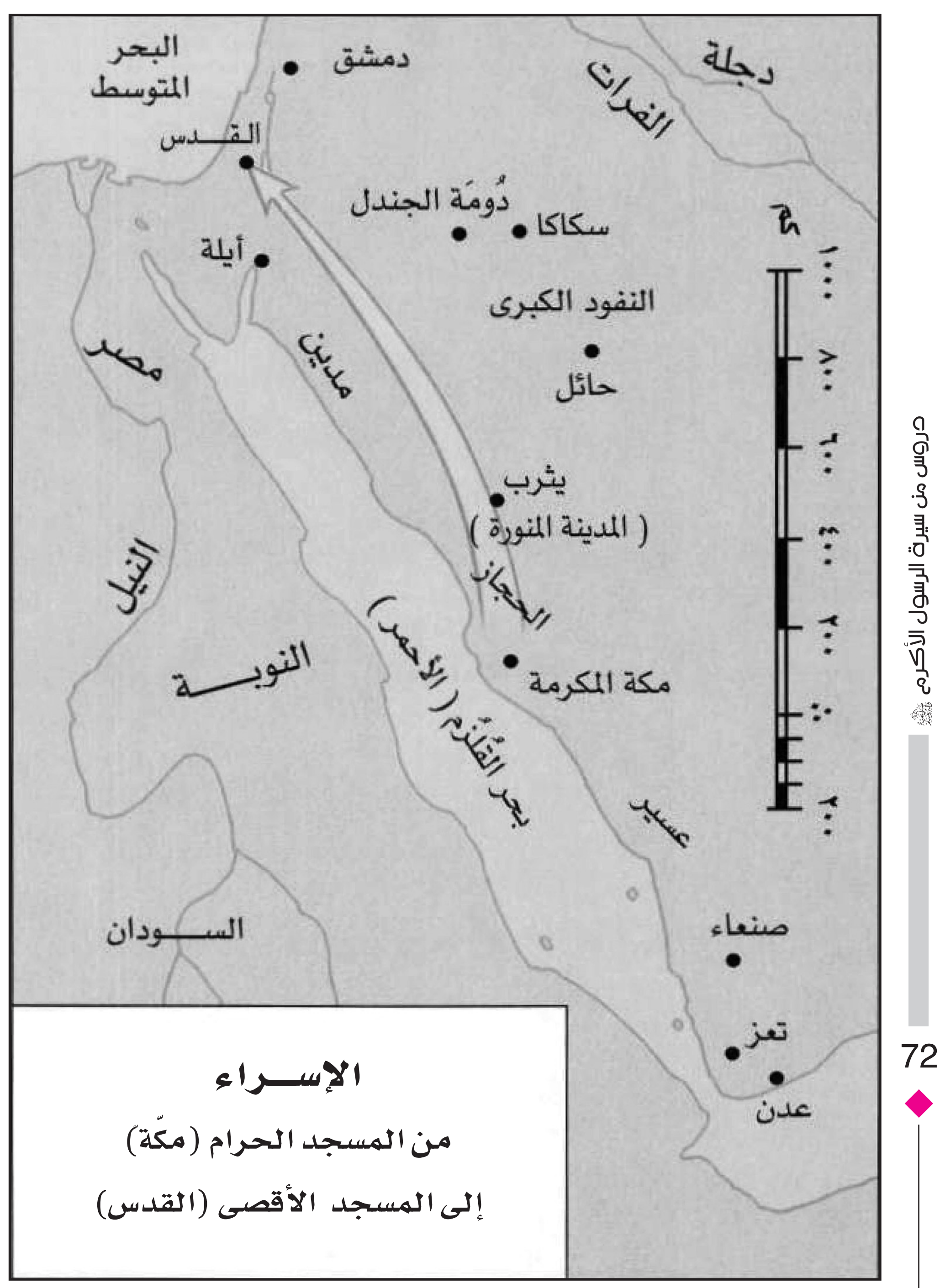
ويـرى علمــاء الإماميّــة أنّ معــراج النبيّ ﷺ حصــل بالروح والجســد معاً، وليســ بالروح فقط. ودليلهم هو تصريــح الآيات بلفظ العبد ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[2]، والعبــد يُطلق على الروح والجسد، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾[3] فالرؤية البصريّة تُطلق على رؤية الجسد دون رؤية الروح فقط، فضلاً عن أنّه لو كان بالروح فقط لما خرج أبو طالب والهاشميّون في طلبه ﷺ[4].

(١) سورة النجم، الآية: ١٨.

(٢) سورة النجم، الآية: ١٠.

(٣) سورة النجم، الآية: ١٧.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٨، ص٢٩٠.



الإســـراء
من المسجد الحرام (مكّة)
إلى المسجد الأقصى (القدس)

خلاصة

عندما بدأت الدعوة العامّة والعلنيّة لرسول اللّه ﷺ أخذ الملأ من قريش يُخطِّطون لتحجيم الرسول ﷺ وحركة الرسالة، وانتقلت المواجهة من الحرب الباردة إلى حربٍ ساخنة تمثّلت بالاضطهاد، حتّى القتل والتهجير والحصار الشامل من أجل الإبادة التامّة.

فَشِل مخطّط الحصار للنبيّ ﷺ، ومن معه في شعب أبي طالب، وانتهى الأمر بانتصار النبيّ ﷺ وخروجه مع أصحابه من الحصار بعد سنوات مريرة.

انتهى الحصار وانتهت بذلك أيّام حياة سنَدَين عظيمين للنبيّ ﷺ في دعوته وهما: زوجته الوفيّة خديجة، وعمّه أبو طالب، وسمّى رسول اللّه ﷺ ذلك العام بعام الحزن.

في مكّة المكرّمة، كرّم اللّه تعالى نبيّه بمعجزة لم تكن لأحد من الأنبياء، وهي معجزة الإسراء والمعراج، وكان ذلك بروح النبيّ ﷺ وجسده معاً.



مطالعة

قراءة النبيّ ﷺ للقرآن

القرآن كتاب اللّه الذي نزل على عبده ورسوله محمّد ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور. وقد تَكفَّل القرآن من خلال آياته المباركة بهداية الناس إلى الحقّ والعدل والخير في جميع شؤونهم، «**ومن ابتغى الهُدى في غيره، أضلّه اللّه، فهو حبل اللّه المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو**

الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء»[1].

وقد شدّد الإسلام على الاهتمام به والاعتصام بحبله، من خلال قراءته وتدبّره ووعي تعاليمه وتجسيد مفاهيمه في الحياة الفردية والاجتماعيّة وغيرها.

قال تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2].

ونظـراً لمكانة القرآن في الإسلام فقد كان رسول الله ﷺ شديد العناية به: تلاوةً وتعليماً وحضّاً على تعاهده ورعايته. وكان هدفه من تلاوة القرآن أن يُحرز المزيـد مـن القُربى إلى الله سبحانـه، وليكون قدوة للمؤمنين فـي تعاهد أمره، وتدبّر آياته، والحرص عليه.

وهذه بعض الروايات التي تُشير إلى مدى اهتمامه ﷺ بالقرآن:

❖ كان ﷺ لا يرقـد حتّـى يقـرأ المسبِّحات ويقول: «**في هذه السور آية هي أفضل من ألف آية**»، قالوا: وما المسبِّحات؟ قال ﷺ: «**سورة الحديد والحشر والصفّ والجمعة والتغابن**».

❖ وعن أُمّ هانيء: كنت أسمع قراءة النبيّ ﷺ بالليل وأنا على عريشي.

❖ وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**كان رسول الله ﷺ لا يحجزه عن قراءة القرآن إلا الجنابة**»[3].

❖ ولشـدّة تفاعلـه مع القـرآن كان يبكي عندمـا يقرأ بعض آياتـه، فقد روى ابـن مسعود قـال: قال النبيّ ﷺ لي: «**إقـرأ عليَّ القرآن**»، فقلـت: يا رسول الله أقـرأ عليك وعليك أُنزل؟! فقال ﷺ: «**إنّي أحـبّ أنْ أسمعه من غيري**»، فقرأت عليـه سـورة النساء حتّـى جئت إلى هذه الآيـة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَـهِيدٍ

(١) الترمذي، سنن الترمذي، ج٤، ص٢٤٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨، ص٦٨.

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا﴾[1] قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**حسبك الآن**»، فالتفتّ إليه فإذا عيناه تذرفان[2].

❖ وإلى كثرة ما كان يقرأ من القرآن يُشير أنس بن مالك فيقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجد شيئاً من وجع، فقيل له: يا رسول الله اشتدّ عليك الوجع، وإنّا نرى أثر الوجع عليك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أما مع ما ترون، فقد قرأت البارحة السبع الطوال، أي من البقرة إلى الأنفال**».

وهكذا كان صلى الله عليه وآله وسلم دؤوباً على تلاوة كتاب الله، شغوفاً به، فلم يترك القراءة حتّى في حالات مرضه.

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج٨٩، ص ٢١٦.



الدرس السادس

أحداث ما بين البعثة والهجرة



أهداف الدرس

١- أن يتعرَّف الطالب إلى أطروحة الدعوة في مكّة.

٢- أن يُعدِّد الخطوات التي اتّبعها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل الانتقال إلى المدينة.

٣- أن يُدرِك أهميّة بيعة العقبة في نشر الدعوة.



أطروحة الدعوة الإسلاميّة في مكّة:

لم يتناول التشريع الإسلاميّ في العهد المكّي قضايا الدولة والحُكم والنظام السياسيّ بصورة مباشرة، لأنّ المسلمين في مكّة لم يكونوا مجتمعاً سياسيّاً، وإنّما كانوا جماعة عقيديّة تحكمها علاقات تتراوح بين الاستغراب، والجفاء، والعداء من مجتمعها.

فكانت مفردات الدعوة وأطروحتها مقصورة في مكّة على القضايا الأساس الكبرى: قضية الألوهيّة والتوحيد، وقضية النبوّة العامّة ونبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وقضيّة الحياة بعد الموت (البعث والمعاد)، وقضيّة عدل الله تعالى، ورحمته، وقدرته، وعلمه، وسائر صفاته تعالى. كما كانت تشتمل على المسألة الاجتماعيّة، الفقراء والأغنياء، والظلم... ولكن مع ذلك حمل العهد المكّي ـ في القرآن والسيرة ـ إشارات إلى طبيعة الدعوة الإسلاميّة، من الناحية السياسيّة، وبعض الإشارات إلى المستقبل، ونزل من القرآن بمكّة إثنتان وثمانون سورة، على ما رواه محمّد بن حفص بن أسد الكوفيّ عن ابن عبّاس. وكان أوّل ما نزل على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على بعض الروايات: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ثمّ ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ثمّ ﴿وَالضُّحَى﴾ ثمّ﴿يا أيّها المزمّل﴾ ثمّ ﴿يا أيّها المدثّر﴾ ثمّ فاتحة الكتاب... ثمّ ﴿العنكبوت﴾.

ورُوي عن ابن عبّاس: «**أنّ القرآن كان ينزل مُفرّقاً، لا ينزل سورة سورة، فما نزل أوّلها بمكّة أثبتناها بمكّة وإن كان تمامها بالمدينة، وكذلك ما نزل بالمدينة، وإنّه كان يعرف فصل ما بين السورة والسورة إذا نزل** ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**، فيعلمون أنّ الأولى قد انقضت وابتُدئ بسورة أخرى**»[1].

الهجرة إلى الحبشة:

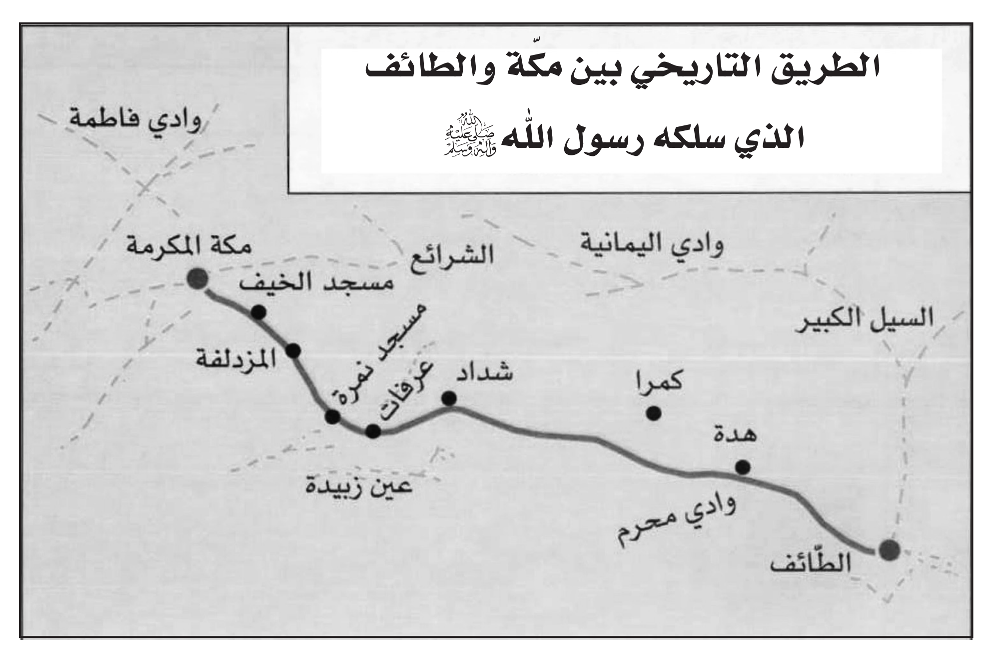
لمّا رأت قريش دخول خلق عظيم في الإسلام بدأت بالمواجهة الفعليّة. وعمل صناديد قريش على إنزال أشدّ أنواع العذاب على المسلمين، فكان ممّن عُذِّبَ في الله عمّار بن ياسر، وياسر أبوه، وسُميَّة أمّه، حتّى قَتل أبو جهل سُمَيّة، فكانت أوّل شهيدة في الإسلام.. عندها أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين بالهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة وقال لهم: «**إنّ بها مَلكاً لا يُظلم عنده أحد**»[2]. وكان عددهم في أرض الحبشة ثلاثة وثمانين ما بين رجل وامرأة عدا الأطفال، وكان في مقدّمتهم جعفر بن أبي طالب. فأرسلت قريش وفداً لاستردادهم، فواجههم النجاشيّ بالرفض بعدما استمع من المسلمين إلى حقيقة الإسلام وعظمته.

وأهمّ الدوافع للهجرة كان الاضطهاد الشديد الذي وقع على المسلمين، والمحاولات القاسية التي بذلها المشركون لفتنتهم آملين رجوعهم عن الدين الحقّ وارتدادهم، فضلاً عن التبشير بالإسلام ومبادئه وأهدافه وأحكامه، والترويج له والتعريف به خارج الجزيرة العربيّة.

سفره إلى الطائف للدعوة:

عزم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على التوجُّه إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الإسلام، لعلّه يلتمس منهم النصر والمِنعة، وبعد أن اشتدّ أذى قريش له إثر وفاة خديجة وأبي

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص٣٣ـ ٣٤.
(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٢، ص٢٢٢.



طالـب، وكان ذلك في السنة العاشرة من البعثـة، وأقام في الطائف عشرة أيّام يتجوّل فيها ويدعو أهلها إلى الإسلام، ومعه زيد بن حارثة[١].

ولكنّهـم واجهـوه ولم يسمعوا منه، بـل جلسوا في الطريـق يرمونه بالحجارة حتّى جُرِح في رأسه، فانصرف راجعاً إلى مكّة.

وكان الهـدف من هذا السفر الإعداد للمستقبل باعتبار أنّ الطائف هي البلد الثالث الذي له موقعه ونفوذه الخاصّ في المنطقة، نظراً لوجود قبيلة كبيرة فيها هي ثقيف.

وربمـا يكون لهجرته إلى الطائـف أهداف أخرى، كإيجـاد قاعدة لدعوته يرتكز عليها تكون قريبة من مكّة، أو إلقاء حجّة عليهم، وكل ذلك يرجع إلى أنّ الرسول ﷺ كان يخطو في دعوته بخطوات هادفة ومدروسة.

(١) م.س. الطبري، ج٢، ص٢٣٠.

انتشار الإسلام في يثرب:

منذ السنوات الأولى للدعوة العلنيّة للرسول ﷺ في مكّة، تناهت أخبار بعثته إلى أسماع أهالي يثرب بواسطة المسافرين، وكان بعضٌ منهم قد قابله في مكة وأسلم، ولكنّهم ماتوا أو قُتلوا بعد مدّة[1].

وفي السنة الحادية عشرة للبعثة التقى رسول اللّه ﷺ بستّة من أشراف الخزرج في موسم الحجّ في منى، ودعاهم إلى الإسلام، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون واللّه إنّه النبيّ الذي كان يوعدكم به اليهود، فلا يسبقنّكم إليه أحد. فأجابوه وقالوا له: إنّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم العداوة والشرّ مثلما بينهم، فعسى أن يجمع اللّه بينهم بك، فتُقدِم عليهم وتدعوهم إلى أمرك. فلمّا قدموا المدينة أخبروا قومهم بالخبر، فما دار حولٌ إلّا وفيها حديث رسول اللّه ﷺ[2].

ونجح تخطيط النبيّ ﷺ الذي استهدف من هذا الاجتماع حثّ هؤلاء الأشخاص على القيام بنشاط في بلادهم؛ لتهيئة الجوّ وخلق مناخ مؤيِّد ومتعاطف مع الدعوة ومبادئها الجديدة في المدينة.

بيعة العقبة الأولى:

وعندما حلّ موسم الحجّ في العام الثاني التقى ﷺ مع اثني عشر رجلاً من اليثربيّين، واجتمع بهم سرّاً في وادٍ ضيّق بالعقبة بين مكّة ومنى، وهي العقبة الأولى[3]، وقد أعلنوا فيها إيمانهم واستعدادهم للعمل على نشر الإسلام، وبايعوا رسول اللّه ﷺ على ذلك.

(١) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج ٢، ص٦٧.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٥.
(٣) العقبة بمعنى الطريق الضيّق، ويُراد بها العقبة التي تقع عند نهاية منى إلى يمين مكّة.

فلمّـا أرادوا الانصراف إلـى بلدهم، بعث رسـول اللّه ﷺ معهم مصعب بن عميـر من أجل أن يُعلِّمهم الإسلام، ويُفقّههم فـي الدين، ويجعل منهم قوّة أكثر فاعليّة ودقّة في نشر الدين الجديد في صفوف أهل المدينة.

استطـاع مصعب بن عمير، بفعل وعيه وخبرته بشتّى أساليب العمل والتبليغ، أن يقـوم بواجبـه كما أراد رسـول اللّه ﷺ.. وكان عدد المسلميـن في المدينة يـزداد يوماً بعـد يوم، وأصبح جـوّ المدينة العـامّ مؤيِّداً للرسـول ﷺ، ومهيَّئاً لقدومـه.

بيعة العقبة الثانية:

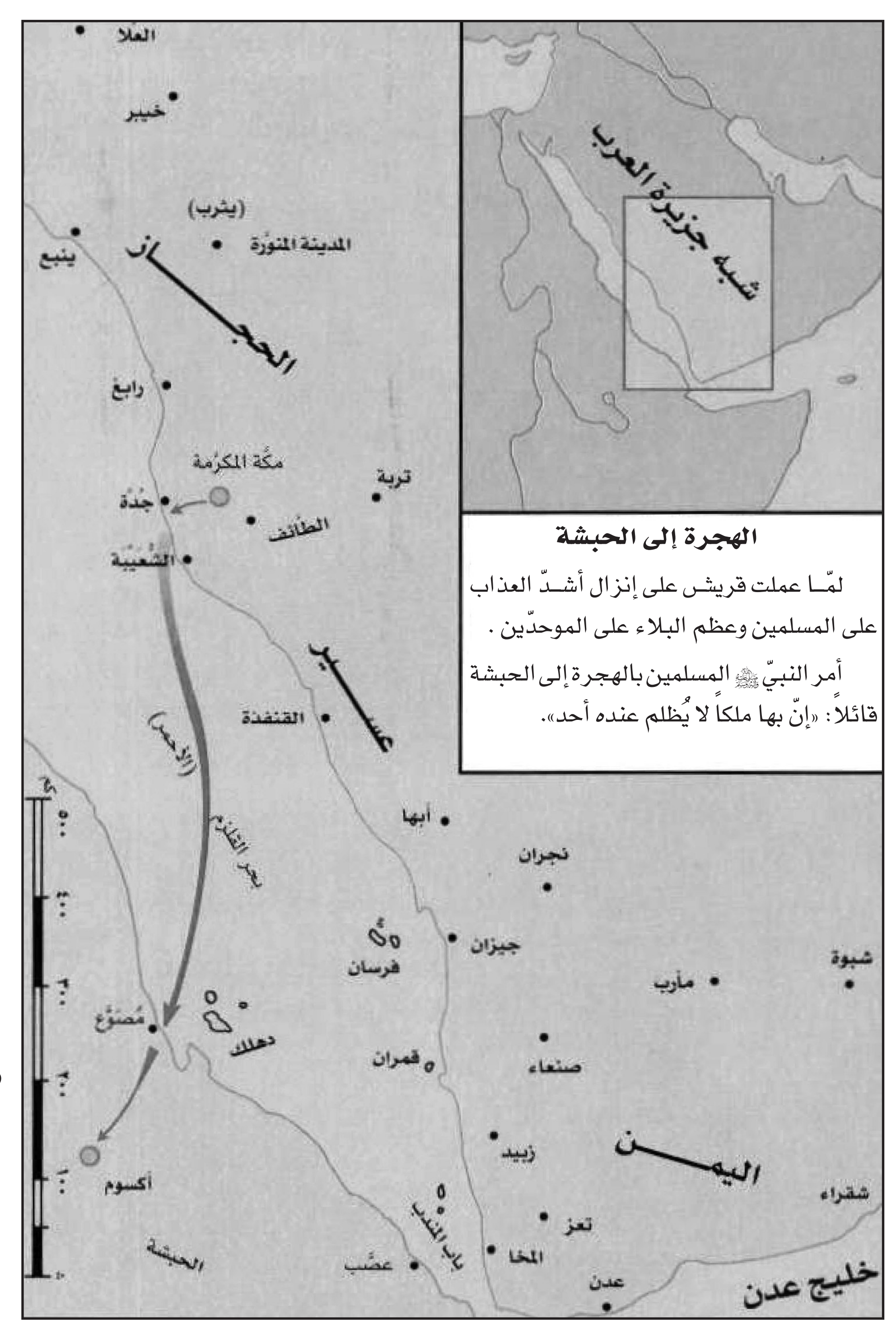
وفي العام التالي، أي في السنة الثالثة عشرة من البعثة، وبعد مرور عام كامل على بيعة العقبة الأولى، عاد مصعب بن عمير إلى مكّة ومعه جمعٌ كبير من مسلمي المدينة، خرجوا مُستخفين مع حُجّاج قومهم المشركين.. ويبدو أنّ مصعباً قَبْلَ حضوره إلى مكّة، كان قد رتّب اجتماعاً بين الرسول ﷺ وبين مسلمي يثرب بعد انتهاء موسم الحجّ.

فالتقـى بعضهـم بالنبـيّ ﷺ وواعدهـم أن يجتمع بهم في العقبـة في اليوم الثاني من أيّام التشريق ليلاً، وأمرهم بالحفاظ على سرِّيَّة الاجتماع. وفي الليلة المعيّنة تمّ الاجتماع بحضور الإمام عليّ عليه السلام والحمزة في الدار الذي كان ينزل فيـه الرسول ﷺ وهو دار عبـد المطّلب، فبايعوه على حمايتـه، وعلى أن يمنعوه وأهله ممّا يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، وعلى أن ينصروه ويقفوا إلى جانبه في الشـدّة والرخاء، كمـا بايعوه على السمع والطاعة والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكـر، وعلى أن يَدعُوا إلى اللّه ولا يخافوا فـي اللّه لومة لائم، وقد سُمِّيت هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية[١].

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٩، ص٢٥ ـ ٢٦.

لقـد نجح النبيّ ﷺ فـي نهاية المطاف، بفعل إصـراره على مواصلة الدعوة وعـدم يأسه أو استسلامه أمـام الفشل الظاهريّ في الطائـف وفي مكّة، وبفعل الثقة بوعد اللّه سبحانه بالنصر، في إيجاد القاعدة المناسبة التي يرتكز عليها الإسلام فكانت يثرب موضع اختياره الجديد.

وكانت بيعة العقبة هي الخطوة الرئيسة التي مهّد فيها النبيّ ﷺ للهجرة إلى المدينـة المنوّرة. وبالهجرة إلى المدينة تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهي مرحلة بناء الدولة، والدفاع عن الإسلام.



الهجرة إلى الحبشة

لمّا عملت قريش على إنزال أشدّ العذاب على المسلمين وعظم البلاء على الموحدّين .

أمر النبيّ ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة قائلاً : «إنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد».



خلاصة

لم تشتمل الدعوة الإسلاميّة في العهد المكّي على مفردات سياسيّة صريحة، وإنّما كانت مفرداتها مقصورة على قضايا العقيدة الأساس، بالإضافة إلى جملة من المسائل الاجتماعيّة.

بعد تعرُّض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه للتعذيب الشديد والقتل والتشريد، أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، نظراً لوجود ملك عادل فيها، فاحتضن «النجاشيّ» المسلمين المهاجرين ولم يُسلِّمهم إلى الوفد الذي أرسلته قريش لاستردادهم.

أسفر جهاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الدعوة إلى الله عن إسلام بعض أهل يثرب، واستمرّت دعوته إليهم حتّى أسلم جمعٌ من أهلها، وقدم عليه- في العام الثالث عشر من البعثة- سبعون رجلاً وامرأتان وبايعوه على الدفاع والنصرة، وسألوه أن يخرج إليهم فيمنعوه كما يمنعون أبناءهم ونساءهم، ويحاربوا معه وينصروه، وكان ذلك من نتائج بيعة العقبة الأولى والثانية.



أذكار النبيّ ﷺ

كان رسول الله ﷺ يُكثر من ذكر الله، بل ما فارق ذكر الله شفتيه المباركتين قطّ، ولم يُرَ إلّا ذاكراً مُسبِّحاً أو شاكراً مُستغفراً.

رُوي عنه ﷺ أنّه كان يُكثر من قول: «**سبحانك اللّهمّ وبحمدك، اللّهمّ اغفر لي إنّك أنت التواب الرحيم**».

ويقول ﷺ: «**إنّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة**»[1].

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «**كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مجلس وإن خفّ حتّى يستغفر الله خمساً وعشرين**»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**كان رسول الله ﷺ يستغفر الله عزّ وجلّ في كلّ يوم سبعين مرّة ويتوب إلى الله عزّ وجلّ سبعين مرة**»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً: «**كان رسول الله ﷺ يتوب إلى الله في كلّ يوم سبعين مرّة من غير ذنب، كان يقول: أتوب إلى الله**»[4].

وكان ﷺ يقول: «**إنّ للقلوب صداء كصداء النحاس فاجلوها بالاستغفار**»[5].

وكما كان دائم الاستغفار كان دائم الشكر لله سبحانه على كلّ حال.

(١) النسائي، السنن الكبرى، ج٦، ص١١٤.
(٢) الكليني، الكافي، ج٢، ص٥٠٤.
(٣) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج٧، ص١٨٠.
(٤) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٥، ص٣٢٠.
(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٨٤.

وعـن الإمام الصـادق عليه السلام: «**كان رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ورد عليه أمـر يُسرُّه قـال: الحمـد لله على هذه النعمة، وإذا ورد عليه أمـر يغتمّ به قال: الحمد لله على كلّ حال**»[1].

وعنـه عليه السلام: «**كان رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحمد الله في كلّ يـوم ثلاثمائة وستّين مرّة ... يقول: الحمد لله ربّ العالمين كثيراً على كلّ حال**»[2].

وعـن علـيّ عليه السلام: «**كان رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتاه أمـر يُسرُّه قـال: الحمد لله الـذي بنعمتـه تتـمّ الصالحـات، وإذا أتاه أمـر يكرهه قال: الحمـد لله على كلّ حال**»[3].

وعـن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**ما استيقـظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نوم قط إلّا خرَّ لله عزّ وجلّ ساجداً**»[4].

وعـن عليّ عليه السلام: «**كان النبيّ فـي كل يوم إذا أصبح وطلعـت الشمس يقول: الحمد لله ربّ العالمين كثيراً طيّباً على كلّ حال، يقول ثلاثمائة وستين مرّة شكراً**»[5].

(١) الكليني، الكافي، ج٢، ص٩٧.
(٢) م.ن، ج٢، ص٥٠٣.
(٣) الطوسي، الأمالي، ج ١ ص ٩٤.
(٤) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٥٣.
(٥) الطوسي، الأمالي، ج ٢ ص ٠١٢.



الدرس السابع

الهجرة النبويّة إلى المدينة



أهداف الدرس

١- أن يسرد الطالب قصّة مبيت عليّ عليه السلام في فراش النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

٢- أن يستظهر دوافع هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة.

٣- أن يُعدِّد أركان المجتمع الذي بناه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة.

٤- أن يذكر أهمّ بنود الوثيقة بين أطياف المجتمع المدني.



المؤامرة ومبيت الإمام عليّ عليه السلام في فراش النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

علمت قريش بأمر البيعة رغم كلّ التكتُّم الذي اتبعه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فعزمت على إلقاء القبض على المُبايعين، وشدّدت من إيذائها للمسلمين وتعذيبهم، وعلى إثر ذلـك قال لهـم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الله عزَّ وجلَّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها**»[1] وكان هذا إيذاناً بالهجرة إلى المدينة.

فأخـذ المسلمون يتوجّهون إلى يثرب رغـم كلّ المشاكل والعراقيل التي وضعتها قريش أمامهم. ورأت قريش في هذه الهجرة خطراً عليها لما يُشكِّله المهاجرون مع أهل المدينة من قوّة تستطيع أن تقف في وجه قريش ومصالِحها، خاصّة أن تجارتها إلى الشام تمرّ عبر المدينة، فأخذت تمنع المسلمين من الهجرة وتلاحقهم.

وعلى الرغم من كلّ المضايقات تمكَّن معظم المسلمين من الهجرة، ولم يبقَ فـي مكّة بعد بيعة العقبة بفتـرة وجيزة سوى النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام وعدد قليل من المسلمين.

بقي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة ينتظر الإذن الإلهيّ بالهجرة. وشعرت قريش بحجم

(١) ابن هاشم، السيرة النبويّة، ج٢، ص٣٢١.

الخطر فيما لو التحق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه، خاصّة بعدما قُدِّرت أنّ المدنيّين سيحمونه وينصرونه بعدما بايعوه، فاتخذت قراراً حاسماً بالتخلُّص من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل فوات الأوان، واستطاعت أن تنتزع قراراً بمشاركة كلِّ قبائل قريش في عمليّة الاغتيال، من أجل أن يتفرّق دمه في القبائل كلّها؛ فلا يعود بإمكان بني هاشم أن يثأروا لدمه، ولكنّ اللّه تعالى أخبر رسوله بهذه المؤامرة[1]، وأمره بالخروج ليلاً من مكّة وأن يجعل عليّاً عليه السلام مكانه ليبيت على فراشه من أجل التمويه والإيهام، وليردّ كيدهم عليهم، فخرج رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إلى غار ثور وبات عليّ عليه السلام على فراشه تلك الليلة[2]. وعندما اقتحم المشركون دار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وجدوا أنفسهم أمام عليّ عليه السلام، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد خرج قبل ذلك من بينهم وتوجّه نحو غار ثور وبقي فيه ثلاثة أيّام، إلى أن تمكّن من الوصول إلى قرية (قباء) في طريق المدينة المنوّرة، برغم ملاحقة قريش له.

ونظراً للتضحية الكبرى التي قدّمها الإمام عليّ عليه السلام، أنزل اللّه تعالى بحقّه قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[3].

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة:

غـادر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الغار قاصداً يثرب في شهر ربيع الأوّل بعدما كان قد أمضى ثلاث عشرة سنة في مكّة، بعدما ترك عليّاً عليه السلام ليؤدّي الودائع التي كانت عنده للنـاس، ولتهيئة مستلزمـات هجرة ابنته فاطمة عليها السلام وعـدد آخر من النساء

(١) ذكـر اللّه تعالـى لنبيّه الكريم هذه المؤامرة بقوله تعالـى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُـوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (سورة الأنفال: ٣٠).

(٢) رغـم أنّ قريشـاً جنّـدت كلّ قواها للعثـور على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولكنّها بقدرة اللّه لم تعثر عليه لكونـه منصوراً ومؤيّداً من اللّه تعالى حيث قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْـزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَـا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة: ٤٠).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

والرجال من بني هاشم[١].

فَوَصَل ﷺ أوّلاً إلى قُباء وهي منطقة على مقربة من يثرب، وتوقّف فيها بضعة أيّام في انتظار قدوم عليّ عليه السلام، وبنى في هذه المدّة مسجداً هناك[٢].

المدينة المنوّرة

مصوّر أثري تقريبي

ثمّ توجّه بصحبة عليّ عليه السلام وجماعة من بني النجار (أخوال عبد المطّلب) تجاه يثرب. ولدى وصوله إليها استقبله الناس بفرح وسرور بالغ، وكان ﷺ لا يمرّ بمكان إلّا وقام وجوه القبائل وأشرافها بأخذ زمام ناقته، طالبين منه النزول عليهم وهو يقول: «**خلّوا سبيلها فإنّها مأمورة**»[٣] حتّى وصل إلى أرضٍ ليتيمين قرب دار أبي أيوب الأنصاريّ، وبنى في تلك الأرض المسجد النبويّ. ولأنّ الهجرة تُعتبر نقطة تحوّل ومُنعطفاً مُهمًّا في تاريخ الإسلام أصبحت مبدأً لتاريخ الإسلام والمسلمين بتدبير النبيّ ﷺ؛ الذي أمر المسلمين أن يُؤرّخوا ابتداءً من شهر ربيع الأوّل، وهناك العديد من رسائل النبيّ ووثائقه وكتبه تُؤيّد ذلك.

(١) الطوسي، الأمالي، دار الثقافة، ط١، ١٤١٤هـ، ص٤٦٨.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٤٩.

(٣) الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص٣٤٠.

دوافع الهجرة:

لم تكن الهجرة إلى المدينة ردّ فعل لاضطهاد قريش، بل كانت فعلاً خطّط له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لتكون المدينة قاعدة ارتكاز للدعوة، وأهمّ الدوافع التي أدّت للهجرة هي:

أولاً: إنّ مكة لم تَعُد مكاناً صالحاً للدعوة، ولم يبقَ أيّ أمل في دخول فئات جديدة في الدين الجديد في المستقبل القريب على الأقل، فكان لا بُدَّ من الانتقال إلى مكانٍ آخر ينطلق الإسلام فيه بحريّة بعيداً عن ضغوط قريش.

وكان اختياره للمدينة بسبب بعدها الجغرافيّ عن مكّة، ممّا يجعلها بمأمن من هجمات قريش المفاجئة والمباغتة من جهة، ومن جهة أخرى هي قريبة من طريق تجارة مكّة ـ الشام؛ بحيث يتمكّن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من فرض سيطرته وممارسة نوع من الضغط السياسيّ والاقتصاديّ، وحتّى العسكريّ، على قريش في الوقت المناسب.

ومن الناحية الاجتماعيّة كانت يثرب مركزاً للتنازع القبليّ، بين الأوس والخزرج واليهود، وهي تتطلّع إلى رجل تلتفّ حوله لينزع عنها إلى الأبد هذه العصبيّات المستعصية. وأمّا اقتصاديّاً فهي غنيّة بإمكانيّاتها الزراعيّة بما يُمكِّنها من المقاومة في حال التعرُّض للضغوط الاقتصاديّة من قِبَل المشركين وغيرهم.

بناء الدولة والمجتمع في المدينة:

باشر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فور وصوله إلى المدينة بأعمال تأسيسيّة، ترتبط ببناء المجتمع السياسيّ الإسلاميّ، وبمستقبل الدعوة الإسلاميّة، وأبرزها:

أولاً: بناء المسجد

وهـو أوّل مركز عُنـيَ النبيّ ﷺ بإنشائه، وقد كان مركـزاً للعبادة، والتعليم، والحُكـم والإدارة، ومقـرّاً لحكومة النبـيّ ﷺ، ولم يُمارس النبـيّ ﷺ مُهمّات حكوميّة وإداريّة في المدينة في مكانٍ آخر غير المسجد.

وبعـد إتمام بناء المسجـد بُنيت إلى جانبه حُجرتان، لتكونـا مساكن لرسول الله وزوجاته.

ثانياً: المؤاخاة

العمـل المهمّ الآخر الذي أقدم عليه الرسول ﷺ فـي السنة الأولى للهجرة، هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، من أجل توكيد وحدة المسلمين والتغلّب على التناقضـات الداخليّة القائمة بين الأوس والخـزرج، والتناقضات المتوقّعة بيـن المهاجرين والأنصار، وفي سبيل تحطيم الاعتبـار الطبقيّ، والاقتصاديّ، وعلاج مشكلة التفاوت في المستوى المعيشيّ، والتعبير العمليّ عن مبدأ المواساة والمسـاواة الإسلامـيّ، فتآخى هو ﷺ مع عليّ بن أبـي طالب عليه السلام، وآخى بين المسلمين وكان يؤاخي بين كلٍّ ونظيره[1].

وهذه هي المؤاخـاة الثانية، وكانت المؤاخاة الأولى في مكّة بين أصحابه من قريش ومواليهم (العبيد المُعتَقين).

وهـذه المؤاخاة فـي المدينـة أدّت إلى مزيد مـن التلاحم بيـن المهاجرين والأنصـار، وإلى تحقيـق الانتصارات الكبرى في بـدرٍ والخندق وغيرهما برغم قلّة العدد وبساطة العتاد.

ثالثاً: وثيقة الصحيفة

بعـد أن استقـرّ الرسـول ﷺ فـي المدينة، رأى مـن اللازم تنظيـم الوضع

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٩، ص١٣٠.

الاجتماعـيّ لأهلها؛ وذلك لأنّ تحقيق أهدافه على المدى البعيد يتطلّب استقرار الأوضـاع فيهـا. ولا بُدَّ من الإشـارة إلى أنّ التركيبـة السكانيّة فيهـا كانت غير متكافئة ولا متجانسة. فقد كان يقطن هذه المدينة يومذاك جماعات تنتمي كلّ جماعة منها إلى إحدى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج.

وكان يعيش في داخل المدينة وحولها أقوام من اليهود، وفي الوضع الجديد أُضيف إليهم أيضاً المهاجرون القادمون من مكّة. وكان هذا الوضع يُنذر بالمخاطر.

وفـي ضـوء هذا الواقع ابتكـر الرسول فكرة، فكتـب ميثاقاً وُصـف بأنّه «**أوّل دستـور**» أو «**أعظـم عقد وسند تاريخي فـي الإسلام**». وقد بيّن هذا العقد حقوق مختلـف المكوِّنات السابقة في يثرب، وضَمِـن لهم حياةً سليمة مع إقرار النظام والعدالـة فيها، وهو بمثابة دستور عمل لتنظيم علاقـات المسلمين فيما بينهم، وعلاقاتهـم مع المتهوِّديـن، وقد تضمّنت الوثيقة قواعد فـي الحقوق والعلاقات أهمّها:

١ ـ إنّ المسلميـن أمّـة واحـدة مـن دون النـاس، رغـم اختـلاف قبائلهـم وانتماءاتهم.

٢ ـ إنّ رسول اللّه ﷺ هو قائد الأمّة، وهو المرجع في حلّ المشكلات التي قد تحدُث بين المسلمين وبين غيرهم.

٣ ـ قـرّرت الوثيقـة أنّ مركـز السلطة في المدينة هو النبـيّ ﷺ، فهو صاحب القـرار في السماح أو المنع مـن تنقّل الأشخاص إلى خـارج المدينة، فلا يُسمح لأحد من اليهود ـ أي المتهوِّدين ـ بالخروج إلّا بإذن رسول اللّه ﷺ.

٤ ـ إنّ مسؤوليّـة دفع الظلم تقع على عاتـق الجميع، ولا تختصّ بمن وقع عليه الظلم.

٥ ـ مَنَحَـت الوثيقـة المتهوِّديـن مـن الأنصار حقوقهـم العامّة، كحـقّ الأمن

والحريّـة والمواطنة، بشرط أن يلتزموا بقوانين الدولة، وأن لا يُفسدوا ولا يتآمروا على المسلمين والإسلام[١].

وكان لهذه الوثيقة أثرٌ في حفظ الاستقرار في المدينة، إذ لم تقع أيّة نزاعات بين أهل المدينة حتّى السنة الثانية للهجرة.

رابعاً: مواداعة اليهود

اليهـود المقصـودون في وثيقة الصحيفة الآنفة الذكر هم: المتهوِّدون من قبائل الأنصار، وليس اليهود الذين هم من أصل إسرائيليّ (بنو قينقاع، والنضير، وقريظـة)، فقد شعر هؤلاء بأنّهـم قد عُزلوا عن أنصارهم مـن المتهوِّدين بعد توقيع الصحيفة، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا الهدنة، فكتب لهم النبيّ ﷺ بذلـك أن لا يُعينوا عليه أحداً، ولا يتعرّضـوا لأحد من أصحابه بلسان ولا يد، ولا بسلاح، لا في السرّ ولا في العلانية، فإن فعلوا فرسول الله ﷺ في حلّ من سفك دمائهم، وسبي ذراريهم ونسائهم وأخذ أموالهم[٢].

خامساً: إعداد القوّة العسكريّة

فقـد عمل رسول الله ﷺ علـى تقوية دعائم الدولة من خـلال تدريب القوى البشريّـة ودعمها بالسلاح والخيـل، ونظَّم المدينة على أساس عسكريّ، وكوّن مـن شعبها مجتمع حرب، فقسّم المسلمين في المدينة إلى عرافات، وجعل على كلّ عشـرة عريفاً، وجعل من جميع الذكور البالغين جنوداً، وكوّن منهم الجيوش، والسرايـا العسكريّـة. ويُمكن رسـم الملامح العامّة لـلإدارة العسكريّة في عهد النبيّ ﷺ بما يلي:

أوّلاً. القرار العسكريّ: الـذي كان بيد النبيّ ﷺ وحده، ولـم يكن لأحدٍ من

---

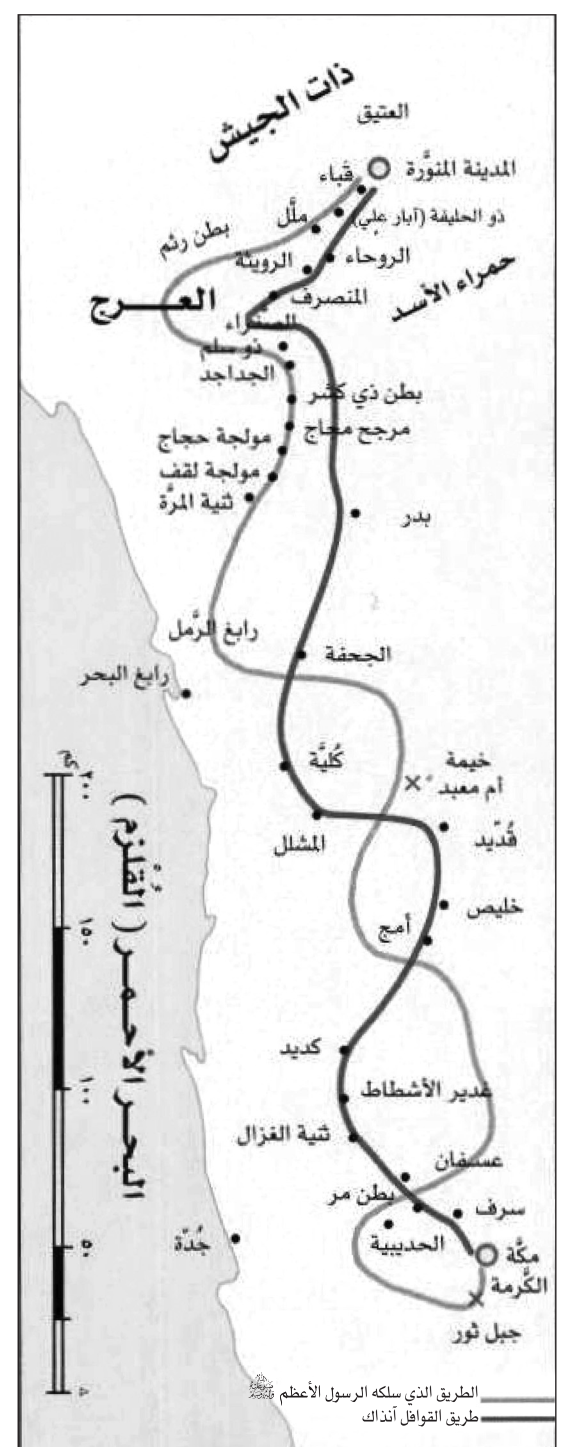
(١) للإطلاع على مزيد من التفاصيل حول هذه الوثيقة وبنودها، راجع كتب السيرة، منها: السيرة النبويّة لابن هشام: ج٢، ص١٤٧ ـ ١٥٠.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٩، ص١١٠.

المسلمين سلطة اتخاذ قرار عسكريّ بشكلٍ منفرد بعيداً عن النبيّ ﷺ.

ثانياً. تشكيل الجيش: حيث كان ﷺ يُشكِّل الجيش والوحدات العسكريّة من الذكور البالغين، ولم يكن يقبل في عداد الجيش غيرهم.

ثالثاً. التدريب: ثبت عن رسول الله ﷺ أنّه أمر بالتدريب على الفروسيّة والرمي، وجعل التدريب العسكريّ من مقدّمات الثقافة العامّة للمجتمع الإسلاميّ.



خلاصة

مـن أهمّ الأحداث فـي تأريخ الإسلام السياسيّ هو حـدث الهجرة المباركة، حيث تمّ بعدها إقامة الدولة الإسلاميّة بزعامة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

بـدأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ببنـاء مسجد قباء، ثـمّ المسجد المعـروف اليوم بمسجد النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم لجمـع المسلميـن فيه وليكـون مركـزاً للدولة وانطـلاق الدعوة إلى أطـراف العالم، ثمّ آخى بين المهاجرين والأنصار، واحتفظ بالإمام عليّ عليه السلام أخاً له من دون سائر المسلمين.

نظـراً للتنـوُّع السكّانيّ فـي المدينة، والصراعـات القبلية، كتـب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أوّل دستـور وأعظـم عقد وسند تاريخـيّ في الإسلام من أجـل تنظيم علاقات المسلميـن فيمـا بينهـم، وعلاقاتهم مع المتهوِّديـن، ولضمان استقـرار الحياة السياسيّة والاجتماعيّة في المدينة.

طلـب اليهود من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم توقيع هدنة معهم، فكتب لهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك علـى أن لا يُعينـوا عليه أحـداً ولا يتعرّضوا بسوءٍ لأصحابـه، وإلّا فهو في حلٍّ من أمره.

عمل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على تقوية دعائم الدولة؛ من خلال الإعداد العسكريّ وتدريب المسلمين على السلاح والرمي.



خُلُق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

كان أمير المؤمنين عليه السلام اذا وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**كان أجود الناس كفّاً، وأرحب الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمّة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعرفه أحبّه، لم أرَ مثله قبله ولا بعده**»[1].

وعن يونس عن الحسن قال: سألت عائشة عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: «**كان خُلُقه القرآن**»[2].

وعن أنس قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس خُلُقاً**»[3].

وقال الديلميّ في الإرشاد: «كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يمنعه الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويُسلِّم على من استقبله من غنيّ وفقير وكبير وصغير، ولا يُحقِّر ما دُعي إليه ولو إلى حشف التَّمر، وكان خفيف المؤنة، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسّاماً من غير ضحك، ومحزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذلَّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكلّ مسلم. ولم يتجشّأ من شبع قطّ، ولم يمدّ يده إلى طمع قطّ»[4].

وقال العلماء في أخلاقه الفرديّة: «كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أسخى الناس، لا يثبت عنده دينار ولا درهم، فإن فَضُل ولم يجد من يُعطيه ويجنّه الليل لم يأوِ إلى منزله حتّى يتبرّأ منه إلى من يحتاج إليه.

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ص١٩٠.

(٢) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج٦ ص٩١.

(٣) البخاري، الصحيح، ج٧ ص١١٩.

(٤) الديلمي، إرشاد القلوب، ج١، ص٢٢٦.

لا يأخذ ممّا آتاه الله إلا قوت طعامه فقط، مِنْ يسير ما يجد من التمر والشعير.

وكان يجلس على الأرض وينام عليها ويأكل عليها. وكان يخصف النَّعل، ويُرقِّع الثوب، ويفتح الباب، ويحلب الشَّاة، ويعقل البعير فيحلبها، ويطحن مع الخادم إذا أعيا (تعب).

وكان ﷺ أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضاً. وكان أصبر الناس على أوزار الناس»[1].

وعن أبي أمامة قال: وكان رسول الله ﷺ: إذا جلس جلس القرفصاء.

وكان أكثر طعامه التَّمر والماء، ورُوي أنّه كان لا يأكل وحده ما يُمكنه.

وكان إذا أكل سمّى، ويأكل بثلاث أصابع وممّا يليه، ولا يتناول من بين يدي غيره، ويُؤتى بالطعام فيشرع قبل القوم ثمّ يشرعون، وذلك لكي لا يستحي أحد من تناول الطعام إذا هو كفَّ عنه.

وما ذمَّ رسول الله ﷺ طعاماً قطّ، وكان إذا أعجبه أكله وإذا كرهه تركه[2].

وكان إذا فرغ من طعامه لعق أصابعه التي أكل بها، وكان ﷺ يغسل يديه من الطعام حتّى ينقيهما فلا يوجد لما أكل ريح.

وكان ﷺ لا يلبس ثوبين، ويلبس الغليظ من القطن والكتان، إذا لبس جديداً أعطى خُلف ثيابه مسكيناً.

وكان يُجالس الفقراء ويُؤاكل المساكين ويُناولهم بيده، لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس.

وكان يركب ما أمكنه من فرس أو بغلة أو حمار[3].

(١) الطباطبائي، سنن النبي ﷺ، ص١١٣، نقلاً عن الأحياء للغزالي.
(٢) م.ن، ص٢٢٢.
(٣) م.ن، ص ١٣٤.



الدرس الثامن

المواجهات العسكريّة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (١)



أهداف الدرس

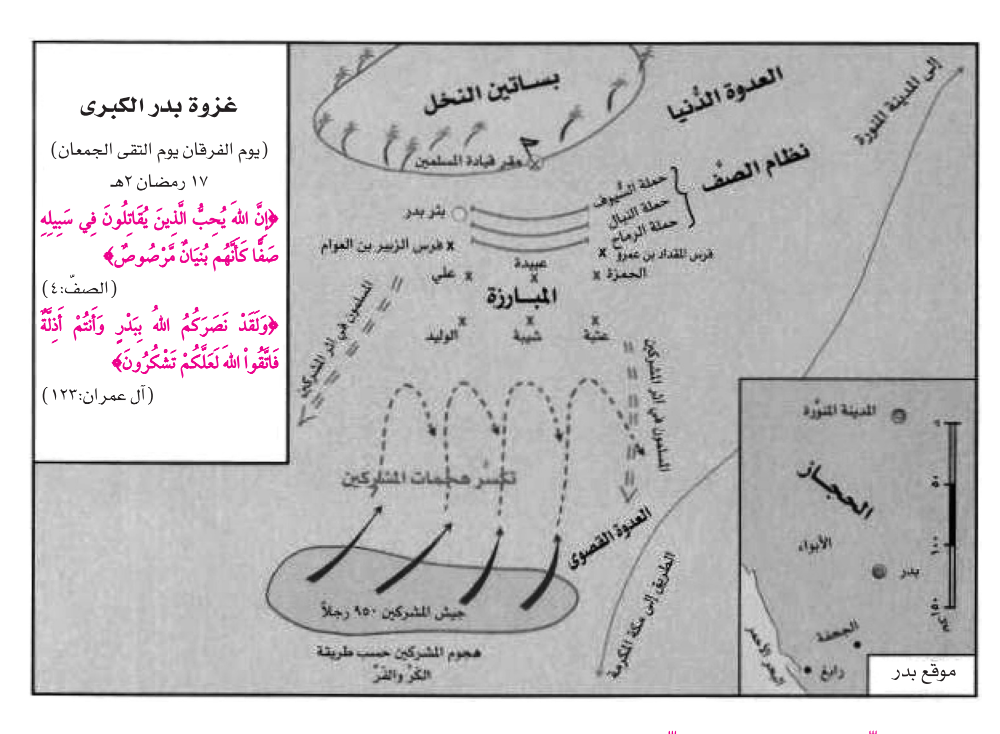
١- أن يتبيّن الطالب التحرّكات العسكريّة الأولى للمسلمين.

٢- أن يستظهر أسباب ونتائج معركة بدر وعوامل انتصار المسلمين فيها.

٣- أن يستنتج أسباب الإنكسار في معركة أحد.

٤- أن يُلاحظ أهميّة التزام أوامر القيادة وتوجيهاتها.





التحرّكات العسكريّة الأولى

انحصر دور النبيّ ﷺ في مكّة كقائد إلهيّ بالدعوة والهداية وإرشاد الناس. وبعد استقراره في المدينة تولّى الزعامة السياسيّة للمسلمين أيضاً، واتّجه لإقامة مجتمع جديد مبنيّ على أساس تعاليم الإسلام، لذلك قام بعدّة خطوات

في هذا الاتجاه، كما مرّ سابقاً.

وكانت تنزل على النبيّ ﷺ آيات القرآن في المدينة تتضمّن أحكاماً وتعاليم سياسيّة واجتماعيّة. ولمّا صدر من الله تعالى الإذن بالجهاد والدفاع[١]، عزم على تشكيل قوّة دفاعيّة لتعزيز الإجراءات الاحترازيّة، ولحماية المسلمين من أيّ هجوم عسكريّ، وبادر إلى وضع النواة الأوّليّة للجيش الإسلاميّ، وقاد مجموعة من المعارك والغزوات والمناورات العسكريّة في السنة الثانية للهجرة.

وللمؤرّخين اصطلاحان في المعارك التي خاضها المسلمون في حياة النبيّ ﷺ هما:

الغزوة: ويقصدون بها المعركة التي يحضرها النبيّ ﷺ نفسه، ويتولّى هو قيادتها.

السِّريَّة: وهي المجموعة الجهاديّة التي لا يكون فيها النبيّ ﷺ ويتولّى أحد أصحابه قيادتها.

وأحصى المؤرّخون عدد الغزوات والسرايا في حياة النبيّ ﷺ، فبلغت أكثر من ثمانين غزوة وسَرِيَّة، وكلّها كانت في فترة ما بعد الهجرة.

فقد قام ﷺ بالعديد من التحرُّكات العسكريّة[٢]، مثل سَرِيَّة حمزة بن عبد المطّلب التي تألّفت من ثلاثين مقاتلاً، والتي لاحقت قافلة لقريش أثناء عودتها إلى مكّة، لكن مجدي بن عمرو الجهنيّ الذي كان موادعاً للطرفين، حال بينهما، فانصرفا من غير قتال، ثمّ سَرِيَّة عبيدة بن الحارث التي تألّفت من ستين مُقاتِلاً حيث تبعت جماعة أبي سفيان، وسَرِيَّة سعد بن أبي وقاص التي تألّفت من

(١) قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ...﴾ (سورة الحج: ٣٩ ـ ٤٠).

(٢) هذه التحرّكات لا تُعتبر حرباً كاملة، ولم يحصل في أيٍّ منها معركة أو اشتباك بين الطرفين.

عشريــن مقاتلاً، لاحقت قافلة لقريشـ، وكذلك تتبّع الرسول ﷺ برفقة جماعة مــن المسلميــن قافلة لقريش حتّى بلــغ أرض الأبواء، ولكن لــم يقع اشتباك بين الطرفيــن. وعقد النبيّ ﷺ فــي سفــره هــذا معاهــدة مــع قبيلة بنــي ضمــرة بأنْ تقــف علــى الحيــاد. وخرج أيضــاً ﷺ على رأســ مائة وخمسيــن مــن أصحابــه لاعتراضــ قافلــة تجاريّــة لقريشــ يقودهــا أبو سفيان مُتوجِّهــاً من مكّة إلى الشام (غــزوة ذات العشيرة) ولكنّه لم يلحق بالقافلة، وأبرم أثناء ذلك معاهدة مع قبيلة بني مدلج[١].


قبور شهداء بدر

معركة بدر:

كانت «**معركة بدر**» أوّل معركــة مُسلَّحة كبرى خاضها النبيّ ﷺ والمسلمون فــي مواجهة المشركين مــن قريش، وذلك يوم الجمعة في السابع عشر من شهر رمضــان المبارك في السنة الثانية من الهجرة، قُــرْبَ بدر على بُعد حوالي مائة وستين كيلو متراً من المدينة فيما بينها وبين مكّة المكرّمة.

خرج رسول الله ﷺ ومعه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه مستهدفين السيطرة على القافلة التجاريّة التي كان يقودها أبو سفيان، المُتوجِّهة من الشام إلــى مكّــة، لا طمعاً في المال والغنيمــة وإنّما بُغية التعويض علــى المسلمين ممّا أخــذه منهم المشركون، وفرض حصــار اقتصاديّ على قريش، علَّ ذلك يدفعها إلى الامتناع عن محاربة الدعوة، والتآمر على الإسلام والمسلمين.

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٥٩ ـ ١٦١.

لقد كان قرار التصدّي للقافلة ينطوي على احتمال تطوُّر الموقف، وحصول مواجهة عسكريّة، ونشوب معركة حاسمة ومصيريّة، وهو ما حصل فعلاً.

فقد علم أبو سفيان بتحرُّك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فغيّر طريقه، وأرسل إلى مكّة يطلب النجدة من قريش، فأقبلت قريش بأحقادها وكبريائها بألف مقاتل لحماية القافلة، وحين علمت قريش بنجاة القافلة حاول بعض قادتها أن يكتفي بذلك ويدعو إلى الانسحاب والعودة إلى مكّة، إلّا أنّ أبا جهل وغيره أصرّوا على العدوان، فقرّروا الهجوم على المسلمين، والتقى الجمعان في بدر، وبدأت المعركة بالمبارزة ثمّ التحم الجيشان وهما غير مُتكافئين لا من حيث العدد ولا من حيث العتاد، ولكنّ الله أنزل الكثير من ألطافه ورحمته، فتدخّلت يد الغيب، وجاء الإمداد الملائكيّ للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فحقّق الله سبحانه النصر للإسلام والمسلمين، واندحرت قوّة قريش، وتشتّت جيشها بين قتيل وجريح وأسير؛ حيث أسفرت المعركة عن قتل سبعين من المشركين وأسر سبعين، ولم يسقط من المسلمين سوى تسعة شهداء وقيل: أحد عشر، وقيل: أربعة عشر شهيداً، ولم يُؤسر منهم أحد.

وقد برز للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في هذه المعركة دور كبير، وظهرت شجاعته المُتميِّزة بين صفوف المسلمين، حيث رُوي أنّه قُتل بيده ثُلث قتلى المشركين، وقيل: قتل نصفهم بيده وشارك الآخرين في قتل النصف الآخر.

لقد حقّق المسلمون في بدر مكاسب ماديّة وأمنيّة وعقيديّة وإعلاميّة، ساهمت في خدمة الدعوة وتثبيت أركانها، وتحقيق نقلة نوعيّة في مجمل الأحداث في الجزيرة العربيّة.

ولعلّ أبرز نتائج هذه المعركة أنّها:

أوّلاً: عزّزت ثقة المسلمين بأنفسهم، وثبّتت إيمان بعض المتردّدين في إسلامهم.

ثانياً: جعلت من المسلمين قوّة مرهوبة الجانب عند القبائل المشركة واليهود في المنطقة.

ثالثاً: شجّعت الكثيرين على الدخول في الإسلام بعد أن كانت قريش تُشكّل الحاجز النفسيّ والماديّ لهم.

رابعاً: أضعفت هيبة قريش ونفوذها ومكانتها بين العرب.

خامساً: فتحت الأبواب أمام رسول الله ﷺ للانطلاق بحريّة أكبر في نشر الدعوة.

سادساً: زادت من قوّة التضامن والتماسك بين المهاجرين والأنصار، وعزّزت وحدة الفريقين في مواجهة التحدّي.

وأثبتت تجربة بدر:

أوّلاً: أنّ القلّة المؤمنة المجاهدة الصابرة التي تملك إرادة قويّة وعزيمة راسخة، وإخلاصاً، ووعياً، وتخطيطاً، تستطيع أن تُحقّق الانتصارات والإنجازات الكبرى بإذن الله حتّى ولو كان العدوّ يملك الكثرة والقوّة الماديّة الكبيرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾(١).

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ* الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٢).

وثانياً: إنّ النصر بحاجة إلى عنصر روحيّ معنويّ هو الإيمان بالله، والإخلاص له، والاعتماد عليه، والثقة به، وغير ذلك ممّا يُوفّر للإنسان

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٦٥ ـ ٦٦.

قـوّة روحيّــة ومعنويّة، تُبعـده عن الشعـور بالقلق والخـوف والضياع أمام مواقف التحدّي.

وقـد كان هذا العنصر حاضراً بقـوّة في بدر ومجاهديها، وقد ساهم بصورة أساسٍ في تحقيـق الانتصار في هـذه المعركة، وفي كلّ المعـارك التي خاضها المسلمون في مواجهة أعدائهم.

عوامل انتصار المسلمين:

كانت هزيمة قريـش وانتصار المسلمين في بدر مفاجأة غير مُتوقَّعة، وصلت أصداؤهـا إلى الحبشة. ويُمكـن تلخيص أسباب وعوامل هـذا الانتصار الباهر للمسلمين بما يلي:

١. **القيـادة الصالحـة للنبيّ ﷺ وشجاعته وإقدامـه**، وفي ذلك يقول الإمام علـيّ عليه السلام: «**كُنّا إذا احمـرّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ؛ فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه**»[١].

٢. **شجاعة عليّ عليه السلام وتضحيته الفذّة**، فهو وحده قتل نصف عدد من قُتلوا من المشركين[٢].

٣. **العقيـدة الراسخـة والمعنويّـات العالية**، حيـث كان المسلمون على درجة عاليـة من الإيمان وقوّة الـروح المعنويّة، وقاتلوا بـكلّ بسالة وأظهروا من الشجاعة ما أثار دهشة المشركين.

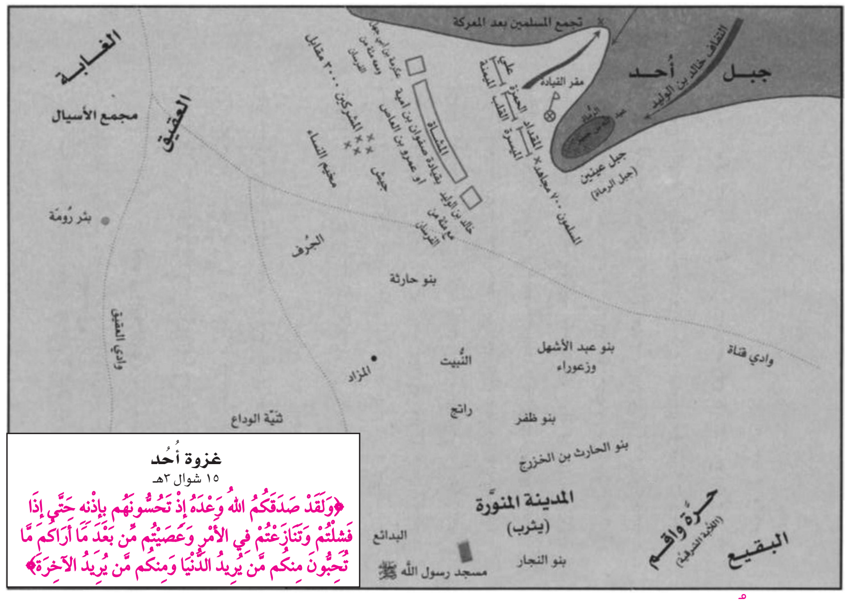
٤. **الإمـداد الغيبـيّ**، الـذي حصل على عـدّة وجوه، مثل نـزول الملائكة على المسلمين بالنصر وحضورهم في ساحة المعركة، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين[٣].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص٢٧٩.

(٢) م.ن، المقدّمة ص٢٤.

(٣) راجع: سورة الأنفال، الآيتان: ٩ و١٧.



معركة أُحد:

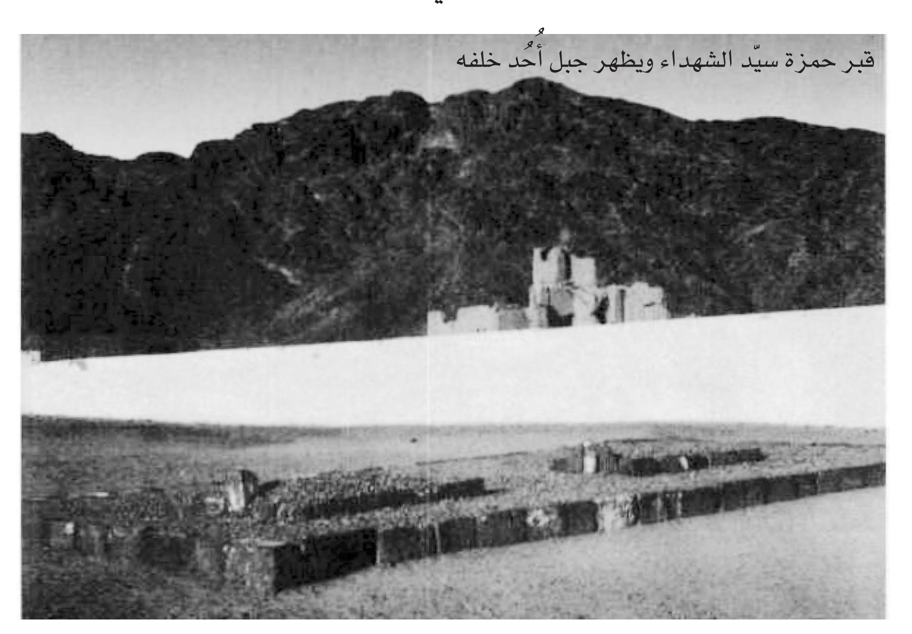
استمـرّت أحـداث بدر ومعركتهـا التاريخيّـة تتفاعل حقداً وكيـداً في نفوس المشركيـن في مكّة. ولم يكن لـدى أبي سفيان، قائد الشـرك والعدوان آنذاك، غير التفكير بالحرب ومعاودة الهجوم على المسلمين بدافع الثأر، وتحقيق نصر عسكريّ يُغيِّر الآثار النفسيّة والإعلاميّة التي أنتجتها معركة بدر.

فـدقّ المشركون طبول الحـرب، وخطّطوا للعـدوان والهجوم علـى المدينة، واتفقوا علـى أن تُرصد أرباح القافلة التجاريّة التـي أفلتت من قبضة المسلمين وقادت إلى معركة بدر، لإسناد هذه الحملة العسكريّة الآثمة.

زحف المشركون باتجاه المدينة، وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل معهم العتاد والسـلاح الكثير، وأخرجوا النسـاء معهم ليُشجعنّ الجنود علـى القتال، فعرف النبيّ ﷺ بمسيرهم من خلال عيونه في مكّة.

ويُقال: إنّ العبّاس بن عبد المطّلب أرسل إليه من مكّة بذلك، فأعلن النبيّ ﷺ التعبئـة العامّـة في صفـوف المسلميـن استعـداداً للدفـاع، وبثّ العيـون ورجال

الاستطـلاع فـي المنطقة لجمـع المعلومات. وبعـد أن استشار أصحابـه في سُبُل التصـدّي، قـرّر مواجهة العدوّ خارج المدينة، فخرج ﷺ فـي حوالي ألف مقاتل، غيـر أنّ المنافقين بقيادة عبـد اللّه بن أُبيّ بن سلول، انسحبـوا قبل الوصول إلى


قبر حمزة سيّد الشهداء ويظهر جبل أُحُد خلفه

ساحـة المعركة، وكانـوا ثلاثمائة، بحجّة أنّ النبيّ ﷺ خالـف رأيهم الداعي إلى قتـال المشركيـن مـن داخل المدينـة، فواصل رسـول اللّه ﷺ مسيـرة الجهاد بسبعمائـة مقاتل، والتقى الفريقان عند جبل أُحد على بُعد بضعة كيلومترات من المدينة، في شهر شوّال من السنة الثالثة من الهجرة.

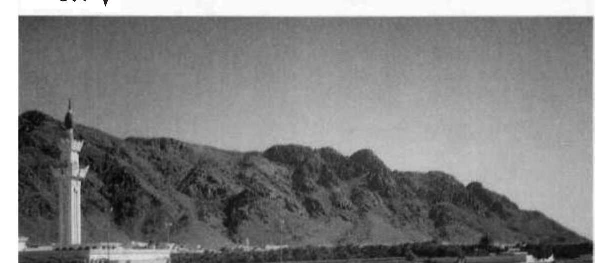
رسـم رسـول اللّه ﷺ خارطة المعركة، وحـدّد مواقع جيشـه، فوضع الرماة عنـد تلّة مشرفة في الجبل، وكان عددهم خمسيـن رجلاً، ليسُدَّ بهم ثغرة يُمكن للعـدوّ أن يتسلّـل منها، وليُوفّر حمايـة خلفيّة للجيش الإسلامـيّ، وأمرهم بعدم تـرك مواقعهم مهما حدث، فقال لهم فيما يُروى عنه ﷺ: «**احموا ظهورنا فإن**

رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تُشركونا»[١].

وبدأت المعركة، وكان النصر حليف المسلمين في الجولة الأولى، فاستولت قوّاتهم على ساحة المعركة، وانهزم العدوّ، وبدؤوا بجمع الغنائم، فاستهوت الغنائم نفوس بعض الرماة، فتركوا مواقعهم، واندفعوا نحو الغنائم، مخالفين بذلك أوامر قائدهم الذي رفض مع قلّة منهم أن يترك موقعه امتثالاً لتكليف رسول اللّه ﷺ، ممّا أحدث ثغرة في صفوفِ المجاهدين، فاستغلّها خالد بن الوليد أحد قادة المشركين آنذاك، فهاجم المجاهدين من خلفهم، فتسبّب هذا الهجوم ببعثرة الجيش الإسلاميّ وانهزامه أمام المشركين الذين استعادوا أنفاسهم بعدما تمكّن خالد بن الوليد من قتل القلّة التي بقيت على الجبل والالتفاف على المسلمين المُنشغلين بجمع الغنائم، وصرخ صارخ أنّ محمّداً قد قُتل فَتَشَتَّت المسلمون تحت وقع المُباغتة، وتفرّقوا عن رسول اللّه ﷺ ولم يثبُت معه غير

جبل الرماة وخلفه جبل أُحُد

جبل أُحُد



(١) ابن كثير، السيرة النبويّة، ج٣، ص٤٧.

الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، الذي راح يُقاتل إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتالاً شديداً ويصدّ كتائب المشركين ويُفرّقهم ويقتل فيهم، عندها نادى جبرائيل عليه السلام من السماء: «**لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ**»[1].

ولمّا رأى المسلمون الفارّون صبرَ وثباتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليّ عليه السلام وقوّة جهادهما في سبيل الله وعرفوا أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يَمُت، وهو يدعوهم إليه، بدؤوا يعودون تدريجيّاً إلى ميدان المعركة حتّى اجتمعوا حوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فطلب منهم أن يرجعوا إلى مراكزهم الأولى في القتال، تماماً كما هي الخطّة الأولى، فقاتلوا من جديد قتالاً شديداً، وتمكّنوا من صدّ هجمات المشركين المتواصلة، وأدرك المشركون استحالة إبادة المسلمين وتفتيتهم وتحقيق انتصار عليهم، وكانوا قد أصابهم التعب والجراح، فآثروا الانسحاب عائدين إلى مكّة دون تحقيق أهدافهم.

آثار المعركة

ومع ذلك فإنّ ما أصاب المسلمين في هذه المعركة كان خسارة فادحة، فقد سقط فيها حوالي سبعين شهيداً وفي مقدّمهم حمزة بن عبد المطّلب ومصعب بن عمير (رضوان الله عليهما)، وعدد كبير من الجرحى حتّى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أصيب ببعض الجراح في وجهه، حسب رواية عن الإمام الصادق عليه السلام ، وبلغت جراحات الإمام عليّ عليه السلام نيّفاً وستّين جراحة، وقيل أكثر من ذلك، بين طعنة، ورمية، وضربة؛ أثناء دفاعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصدّه كتائب الأعداء.

لقد أُصيب المسلمون بفعل النكسة في «**أحد**» بصدمة عنيفة وحزن عميق، وشعروا بالضعف والاحباط حتّى كاد اليأس يتسرّب إلى بعضٍ منهم، والشكّ إلى بعضٍ آخر.

---

(١) الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص١١٠.

أسباب الهزيمة ودروسها:

إنّ الأسبـاب التي أدّت إلى فشـل المسلمين في أحد فصول معركة «**أُحد**» وما يُمكن أن نستفيده من هذه التجربة كثيرة، منها:

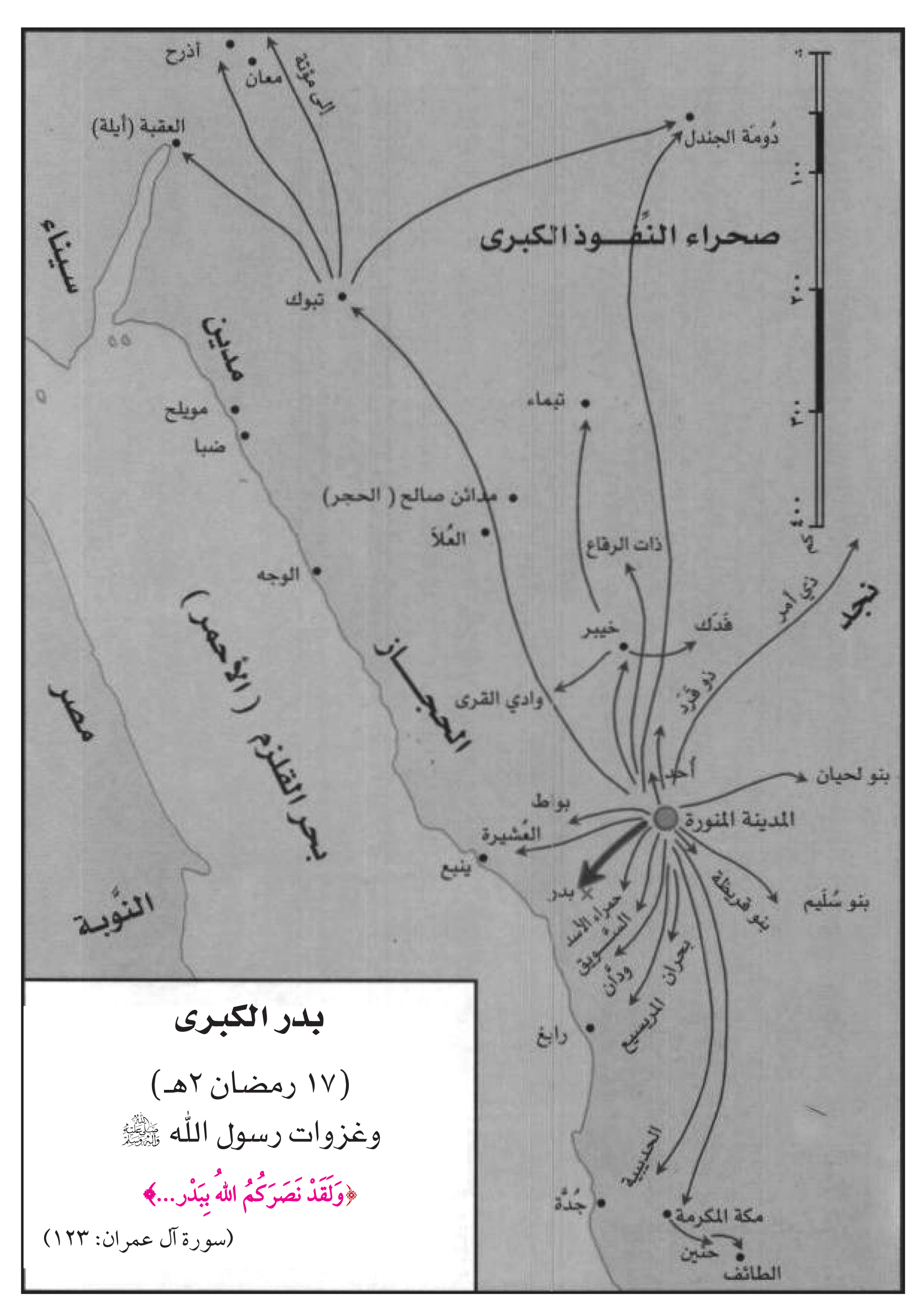
١ ـ أهميّة الانضباط والتقيُّد بأوامر القائد وتوجيهاته مهما كانت الظروف.

٢ ـ أنّ النصر لا يرتبط بكثرة العدد، ولذلك لا ينبغي الاغترار بالكثرة، بل يجب الاعتمـاد على النفس والتوكّل على اللّه والطاعة للقيادة وتحمُّل المسؤوليّة والقيام بالتكاليف.

٣ ـ إنّ عنايـة اللّه بالمؤمنيـن وتسديـده لهـم لا يعنـي إلغاء جميـع الأسباب الطبيعيّـة كليّـةً، وهذه العنايـة والإمداد الإلهـيّ مشروطـان بالسعي نحو الهدف الأسمى.

٤ ـ إنّ الارتبـاط باللّه تعالى والإعراض عن الدنيـا ومتاعها عاملان أساسان في تأييد اللّه تعالى للمسلمين.

وأدّت نتائـج معركة أُحد إلى شماتة اليهود وكشـف أحقادهم، ومحاولة إثارة الفتـن من المنافقين، وإلى زعزعة الثقة بالقدرة العسكريّة للمسلمين، وشجّعت أعداء الإسلام في أطراف المدينة على الوقوف ضدّ المسلمين والتآمر عليهم.



بدر الكبرى

(١٧ رمضان ٢هـ)

وغزوات رسول الله ﷺ

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ...﴾

(سورة آل عمران: ١٢٣)

خلاصة

تختلف المرحلة المكّية من حياة النبيّ ﷺ عن المرحلة المدنيّة، حيث اتجه في المدينة إلى تعزيز القدرات الدفاعيّة للدولة الإسلاميّة، ووضع النواة الأولى للجيش الإسلاميّ، وقاد مجموعة من المعارك وأرسل العديد من السرايا العسكريّة.

كانت أهم سرايا وغزوات النبيّ ﷺ بدر الكبرى لأنّها حطّمت معنويّات قريش ورفعت من معنويّات المسلمين، ورسّخت عقائدهم، وأدخلت الرعب في نفوس المشركين، وفتحت الأبواب أمام النبيّ ﷺ في الانطلاق بحريّة أكبر في نشر الدعوة.

في معركة أُحد كان النصر حليف المسلمين في الجولة الأولى، ولكنّهم نتيجة لعدم التزامهم بأوامر النبيّ ﷺ وتوجيهاته خسروا المعركة، وكانت هزيمة أُحد درساً قاسياً وصعباً للمسلمين.



مظهر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد الاهتمام بالطهارة والنظافة، فلم يكن يُماثله أحدٌ في نظافة جسمه وملابسه وطيب رائحته.

❖ فقد كان يغتسل في أغلب الأيّام مُعتبراً ذلك جزءاً من العبادات، وكان يُداوم على الوضوء ليبقى على طهارة، حتّى ورد عن بعض أصحابه: ما رأيت أوضأ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان يغسل شعر رأسه الذي كان يصل إلى شحمة أُذنه بماء السدر، ويُمشّطه، ويدهنه بزيت البنفسج، ويُعطّر جسده وملابسه بالمسك، وكان يُعرف في الليلة الظلماء قبل أن يُرى بالطّيب، فيُقال: هذا النبيّ.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يمرّ في طريق فيمرّ فيه أحدٌ بعد يومين أو ثلاثة إلّا عرف أنّه قد مرَّ فيه لطيب عُرفه**»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «**كان رسول الله يُنفق على الطّيب أكثر مما يُنفق على الطعام**»[2].

وكان لا يُعرض عليه طيب إلّا تطيّب به. وقد ورد عن أنس بن مالك: صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين وشممت العطر كلّه، فلم أشمّ نكهة أطيب من نكهة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُنظِّف أسنانه بالسواك عدّة مرّات في اليوم، ولا سيّما ليلاً قبل النوم وعند الاستيقاظ.

(١) الكليني، الكافي، ج١ ص ٤٤٢.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٤٨.

❖ كان يغسل يديه وفمه قبل تناول الطعام وبعده، متجنِّباً أكل الخضراوات الكريهة الرائحة.

وكان شديد العناية بمظهره وهندامه، فقد روي أنّه كان يتجمّل لأصحابه فضلاً عن تجمّله لأهله.

❖ وكان يُوصي أصحابه وأتباعه أن يلتزموا نظافة أبدانهم وملابسهم، وأن يعتنوا بمظهرهم الخارجيّ.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**احتبس الوحي على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقيل: احتبس عنك الوحي يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: وكيف لا يحتبس عنّي الوحي، وأنتم لا تُقلِّمون أظفاركم**»[1].

وذات يوم رأته إحدى زوجاته وهو ينظر في ركوة فيها ماء في حجرتها، ويُسوّي فيها جمّته إذ لم يكن لديه مرآة ينظر فيها، وهو خارجٌ إلى أصحابه، فقالت: بأبي وأُمّي، تتمرّأ في الرَّكوة وتُسوّي جمّتك وأنت النبيّ وخير خلقه؟!

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الله يُحبّ من عبده اذا خرج إلى إخوانه أن يتهيّأ لهم ويتجمّل**»[2].

(١) الحميري القمي، قرب الإسناد، ص ٢٤.

(٢) الطباطبائي، سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ص١١٨.



الدرس التاسع

المواجهات العسكريّة للنبيّ ﷺ (٢)



أهداف الدرس

١- أن يوجز الطالب معركة الخندق.

٢- أن يُعدِّد عوامل النصر في معركة الخندق.

٣- أن يُعدِّد آثار معركة الخندق.

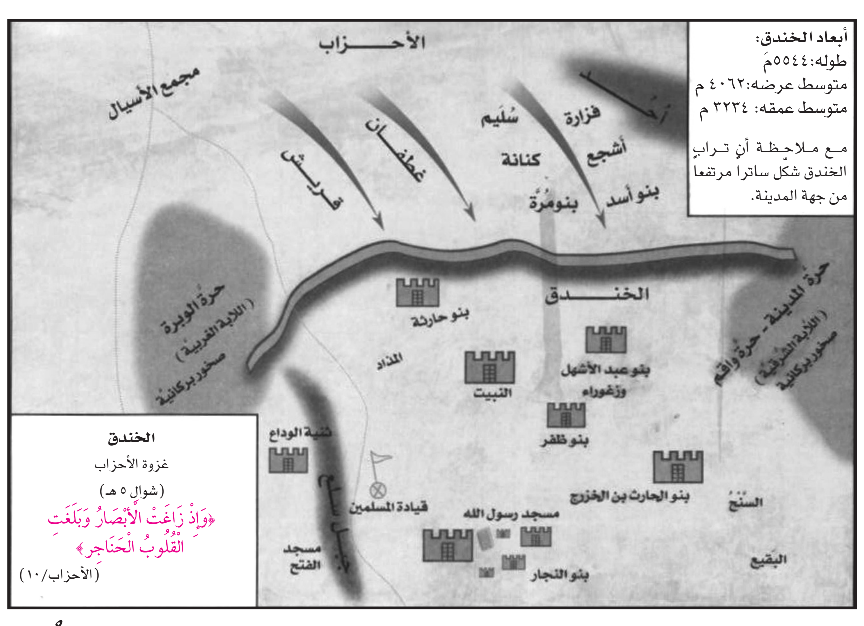
٤- أن يسرد أسباب صلح الحديبيّة.

٥- أن يُعدِّد أهمّ بنود صلح الحديبيّة.

٦- أن يُعدِّد نتائج صلح الحديبيّة.



معركة الخندق (الأحزاب)[1]:



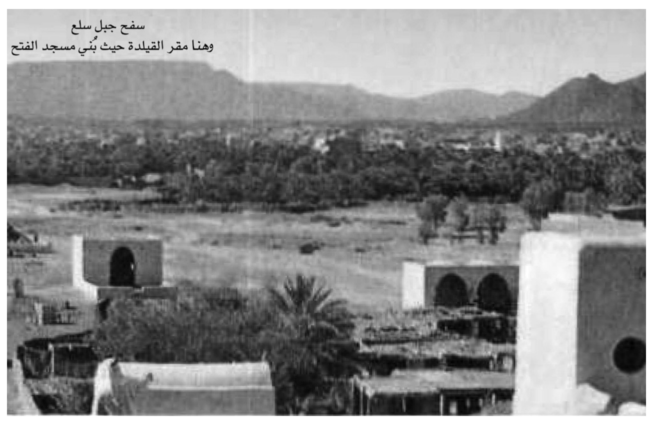
تـوالت غزوات الرسـول ﷺ لبعض قبائل العرب واليهود بعد معركة بدر وأُحُد، ممّا أثـار مخاوف اليهود وإحساسهم بالخطر من تعاظم قـوّة المسلمين، فاندفعوا للتآمر على الإسلام ونبيّه العظيم ﷺ، وراحوا يُحرِّضون أعداء الإسلام، ويُخطِّطون لتكوين

(١) وقعت هذه المعركة في شوّال من السنة الخامسة للهجرة.

تجمُّع عسكريّ هائل لمُهاجمة المدينة والقضاء على الإسلام.

لقد اتصل اليهود بقريش وغطفـان، واتفقوا معهم على مهاجمة المدينة، إلَّا أنّ أنبـاء هذه المؤامـرة تسرَّبت إلى النبيّ ﷺ فشاور أصحابـه، واستقرّ الرأي على حفـر خندق حول المدينـة لتحصينها، فاستنفر المسلمـون لحفر الخندق وشارك هو ﷺ بنفسه في عمليّة الحفر.


موقع الخندق ويظهر في الأفق جبل أحد


سفح جبل سلع
وهنا مقر القيلدة حيث بُني مسجد الفتح

تأهّبت أحزاب الكفر والضـلال، من قريش وغطفان وبعض القبائل المعادية، وجمعوا رجالهم وأنصارهم ومن تابعهم، فكان تعداد جيشهم عشرة آلاف مقاتل نزلوا قرب المدينة، بينما كان عدد المسلمين - كما في رواية الإمام الصادق عليه السلام[١] - تسعمائة مقاتل تعبّؤوا خلف الخندق بقوّة وشجاعة.

وشـاء الله سبحانـه وتعالـى أن ينصـر دينه، ويوفّـر لنبيّه ﷺ عوامل النصر، فيهزم أحزاب الكفر والضلال من دون قتال عنيف بين الطرفين[٢].

(١) الكافي: ج٥، ص٤٦، والوسائل: ج١١، ص١٠٥.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج٢٠، ص١٩٧.

عوامل النصر في معركة الخندق (الأحزاب):

ساهمت أربعة عناصر أساس في تحقيق النصر في هذه المعركة، هي:

١ ـ التخطيط العسكريّ الذي تمثّل بحفر الخندق، حيث ساهم الخندق في حماية المسلمين والمدينة، وفي حرمان العدوّ من سرعة الحركة، وفي تطويل أمد المعركة وجعلها على شكل محاور، لكي تتفاقم أزمات الأحزاب نتيجة لطول زمن الحرب.

٢ ـ العمل الاستخباريّ الفعّال الذي قام به رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، حيث أدّى إلى إيقاع الخلاف بين قوى الأحزاب.

٣ ـ الدور البطوليّ الذي قام به عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حيث مكّنه اللّه من قتل عمرو بن عبد ودّ، وهو من أبرز صناديد قريش ورجالاتها، فانهارت قوّة قريش، ويئسوا وشعروا بالضعف والهزيمة.

وقد وصف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم موقف عليّ عليه السلام يوم الخندق بقوله: «**لَمبارزة عليّ بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق، أفضل من أعمال أمّتي إلى يوم القيامة**»[١].

٤ ـ التأييد الإلهيّ الذي تمثّل بجنود اللّه الغيبيّين، الذين نزلوا ساحة المعركة، والذي تمثّل أيضاً بالرياح والعواصف الهوجاء، التي أصابت معسكر الأعداء فزلزلت استقرارهم، وفرضت عليهم الفرار أذلّاء من دون تحقيق شيء.

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: عبد الرحمن المرعشي، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٤٠٦هـ، ج٣، ص٣٢.

نتائج المعركة:

فرزت حرب الخندق المسلمين إلى ثلاث فئات:

١. **ضعاف الإيمان:** وهم الذين وقعوا تحت تأثير الوساوس الشيطانيّة والظنون السيّئة، فعاشوا الخوف والقلق عندما رأوا الأعداء قد تحالفوا ضدهم، فاهتزّ إيمانهم وفقدوا عمق الثقة باللّه وبنصره.

وقد صوَّر القرآن الكريم موقف هذه الفئة بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[١].

٢. **المنافقون:** وقد اتخذوا عدّة مواقف ذكرها القرآن الكريم، هي:

أ. **قالوا ما وعدنا الله ورسوله إلّا غرورا**، لأنّ اللّه ورسوله كانا قد وعداهم النصر والفتح، وها هم أمام حشود القوى المُتحالفة لا يقوون على شيء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٢].

ب. **تثبيط العزائم وشلّ الإرادات عن الجهاد،** قال تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾[٣]، أي لا تقدرون على فعل شيء أمام قدرات الأعداء، فارجعوا من حيث أتيتم.

ج. **خلق الأعذار الواهية من أجل الفرار من ساحة الجهاد،** قال تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[٤].

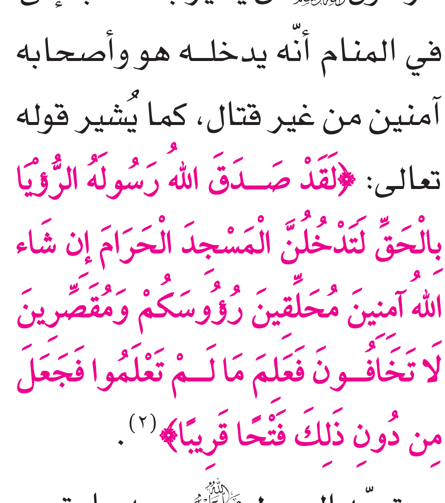
٣. **المؤمنون الحقيقيّون:** وهم الذين ـ لمّا رأوا الأحزاب ـ لم ينحرفوا قيد

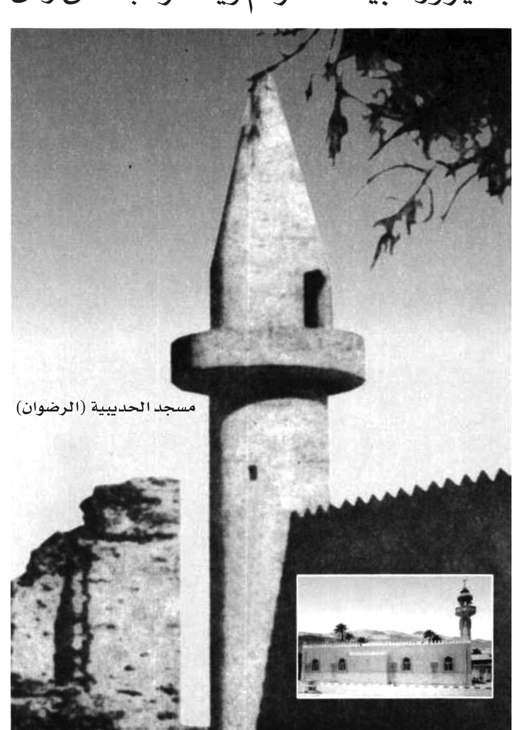
(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ١٠ ـ ١١.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.

أنملة عن عقيدتهم وإيمانهم، ولم يضعفوا، ولم يُشكّكوا، ولم يتزلزلوا وإنّما عبَّروا عن ثقتهم بوعد اللّه ورسوله، وعن صدقهم وإخلاصهم وعمق إيمانهم وثباتهم في مواقع التحدّي، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[1].

صلح الحديبية:

عزّزت الأحداث والمعارك التي وقعت بين رسول اللّه ﷺ وأعداء الإسلام من المشركين واليهود موقف المسلمين، وغرست هيبتهم في النفوس، فقرّر الرسول ﷺ أن يسير بأصحابه إلى مكّة ليزور البيت الحرام ويعتمر، بعد أن رأى في المنام أنّه يدخله هو وأصحابه آمنين من غير قتال، كما يُشير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[2].





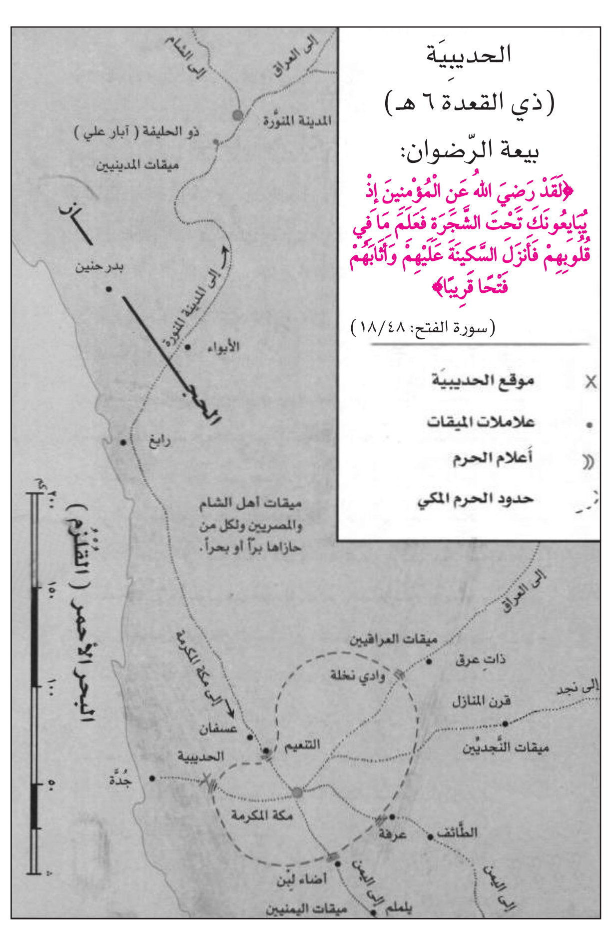
مسجد الحديبية (الرضوان)

توجّه الرسول ﷺ ومعه ما يقرب من ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار نحو مكّة، في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة، وهم يحملون السلاح، وقد ساقوا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

معهم سبعين بُدنة هديًا لتُنحَر في مكّة.

تناهــى الخبر إلى قريش ففزعت، وظنّت أنّ محمّداً ﷺ يُريد الهجوم عليها، فراحــت تتدارس الموقف وتُجهِّز نفسها لصــدّ المسلمين، وأرسلت سَرِيَّة بقيادة خالــد بــن الوليــد كمقدِّمــة لجيشها، فبلغ النبيّ ﷺ خبر قريشــ واستعدادهــا لقتاله، ولكــي يتجنّــب المواجهــة - حيــث لم يكن هدفــه الحرب - غيَّــر مسيره وسلــك طريقاً غيــر الطريــق الــذي سلكته قريش، حتّى استقرَّ في وادي الحُديبيــة[1]، فشكا أصحابه جفاف الوادي وانعدام الماء فيــه، فأجــرى الله سبحانــه معجــزة خالــدة علــى يــده المباركة، تجلَّت عندما توضّأ ﷺ وألقــى مــاء المضمضة في البئر التــي كان قد نضب ماؤها، فانفجر الماء وارتوى الجمع.



بعدما حطَّ جيش المسلمين في الحُديبية، بدأت رحلة التفاوض بين النبيّ ﷺ وقريشــ، فبعثت قريش عِــدّة مندوبين علــى التوالي للتفاوض مــع الرسول ﷺ

(١) وادي الحديبيّة: مكان يبعد عن مكّة حوالي عشرين كيلو متراً.

واستيضـــاح أهدافه، فأبلغهم النبيّ ﷺ بجواب واحد: «**إنّا لم نجئ لقتال ولكنّا جئنـا معتمريـن**». ولكنّ قريشاً لم تقتنع بذلك واتهمـت بعض مبعوثيها بالجُبْن والكـذب، فقـرّر النبــيّ ﷺ أن يبعث من جهته سفيــراً إلى قريشـ، ليُوضِّح لها الهدف الذي جـاء المسلمون من أجله، فاختار خراش بن أميّة من خزاعة لأداء المهمّة، إلّا أنّ خراشاً ما إن بلغ مكّة حتّى عقروا بعيره، وأرادوا الفتك به لولا أن منعته الأحابيش، فرجع إلى معسكر النبيّ ﷺ وأخبره بما جرى معه.

لم ييأس رسول الله ﷺ رغم التصلُّب الـذي أبدته قيادة قريش ضدّ محاولاته ﷺ السلميّة، وكأنّه كان يرى بنظره الثاقب النتائج الطيّبة التي ستجنيها الدعوة الإسلاميّة، إذا ما سادت العلاقات السلميّة فترة من الوقت مع قريش، فأرسل عثمان بن عفان إلى مكّة فاعتقلته قريش ثلاثة أيّام حتّى ظنّ المسلمون أنّه قُتل.

لم يجد الرسول ﷺ بُدّاً من التهيّؤ للقتال، بعد فشل كلّ محاولاته الوِدِّيّة لدخول مكّة، وبعد الموقف السيّىء الذي وقفته قريش من سفرائه إليها، فدعا الناس إلى البيعةعلى الصمود بوجه قريش، فانهال عليه المسلمون يُبايعونه، وهو واقف تحت شجرة سُمّيت فيما بعد شجرة الرضوان نسبةً إلى البيعة التي تمّت تحتها.

تَخوَّفـت قريش من استعـداد المسلمين للقتال ومبايعتهـم الرسول ﷺ على الصمـود، بعدما بلغتهـم أنباء بيعة الرضـوان، فقرّرت استئنـاف المفاوضات، وأرسلـت سهيـل بن عمرو سفيــراً إلى النبــيّ ﷺ، وكلّفته أن يسعــى لمصالحة محمّد ﷺ شرط أن يرجع عنهم هذا العام، فالتقى سهيل بالرسول ﷺ، وجرت مفاوضــات طويلة انتهت أخيراً بالاتفاق على إبرام معاهدة هدنة بين الطرفين، وتمّـت الموافقة على جميع بنودها، ودعا الرســول ﷺ الإمام عليّاً عليه السلام فكتب الوثيقة، وكان من أبرز بنودها:

١ ـ اتفـق الطرفـان على وضع الحرب عشـر سنين يأمن فيهـا النـاس، ويكفّ بعضهم عن بعض.

٢ ـ من أتى محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم من قريش بغير إذن وليّه رَدّهُ عليهم، ومن جاء قريشاً ممّن مع محمّد لم يردّوه عليه.

٣ ـ مـن أحبّ أن يدخل فـي عقد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعهده (أي يتحالف معه) كان له ذلك، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم كان له ذلك أيضاً، من غير حرج عليه من أحد الطرفين.

٤ ـ أن يرجـع النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم بمن معه هـذا العام، على أن يأتي فـي العام القادم فيدخـل مكّـة ويُقيـم فيها ثلاثـة أيّام، ولا يدخـل عليها بسـلاح إلّا سلاح المسافر، والسيوف في القُرَب.

٥ ـ أن لا يكـون الإسـلام ظاهراً بمكّـة، ولا يُكره أحد على دينـه، ولا يُؤذى ولا يُعيَّر.

٦ ـ لا إسـلال (سرقـة) ولا إغلال (خيانـة)، بل يَحتـرِم كلّ الأطراف أموال الطرف الآخر، فلا يخونه ولا يعتدي عليه بسرقة.

٧ ـ أن لا تُعين قريش على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بنفسٍ ولا سلاح.

وبموجـب هذه المعاهدة (البند٣) تحالفـت خزاعة مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وتحالفت كنانة مع قريش.

نتائج صلح الحديبية:

كان المسلمون لا يُدركون الآثار والمعطيات الإيجابيّة والبنّاءة، التي ستحصل مـن وراء هـذا الصلح في المستقبـل، فأظهر بعضٌ منهم مواقـف متعنّتة لكي يصرفوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن إمضائه؛ ولكنّ الأمور سارت مثلما كان يتوقّع رسول

اللّه ﷺ، ونتجت عن هذا الصلح مُعطَيات وآثار سياسيّة واجتماعيّة متعدِّدة، نُورد قسماً منها في ما يلي:

١ - الاعتراف الرسميّ بالمسلمين من قِبَل المشركين، وذلك من خلال توقيعهم لمعاهدة مُشتركة معهم، في الوقت الذي كان فيه المشركون لا يُقيمون وزناً للمسلمين.

٢ - إتاحة الفرصة أمام النبيّ ﷺ لنشر الإسلام على نطاقٍ واسع بعدما كان مشغولاً بالتصدّي لمؤامرات قريش، فبعد تجميد الصّراع والاتفاق على الصلح، عاشت المنطقة هدوءاً نسبيّاً قام خلاله النبيّ ﷺ بأوسع نشاط تبليغي، ووجّه سفراءه إلى كبار أمراء العرب المشركين وزعمائهم، يدعوهم إلى الإسلام، وكذلك وجّه مبعوثيه إلى أباطرة العالم وملوكه يعرض عليهم الدعوة إلى الإسلام.

٣ - أزال صلح الحديبية الموانع الماديّة والنفسيّة، التي كانت وضعتها قريش بين الناس وبين الإسلام، وسُمح لمختلف القبائل المُشركة المنتشرة في الجزيرة بالإتّصال بالمسلمين، والتعرُّف إلى مبادئ الإسلام ومفاهيمه وأحكامه، فدخل كثير من الناس في الإسلام، بل لقد دخل فيه خلال سنتين أكثر ممّا دخل فيه على امتداد السنوات الماضية، بدليل أنّ الرسول ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، بينما خرج في فتح مكّة بعد سنتين على رأس عشرة آلاف مقاتل[١].

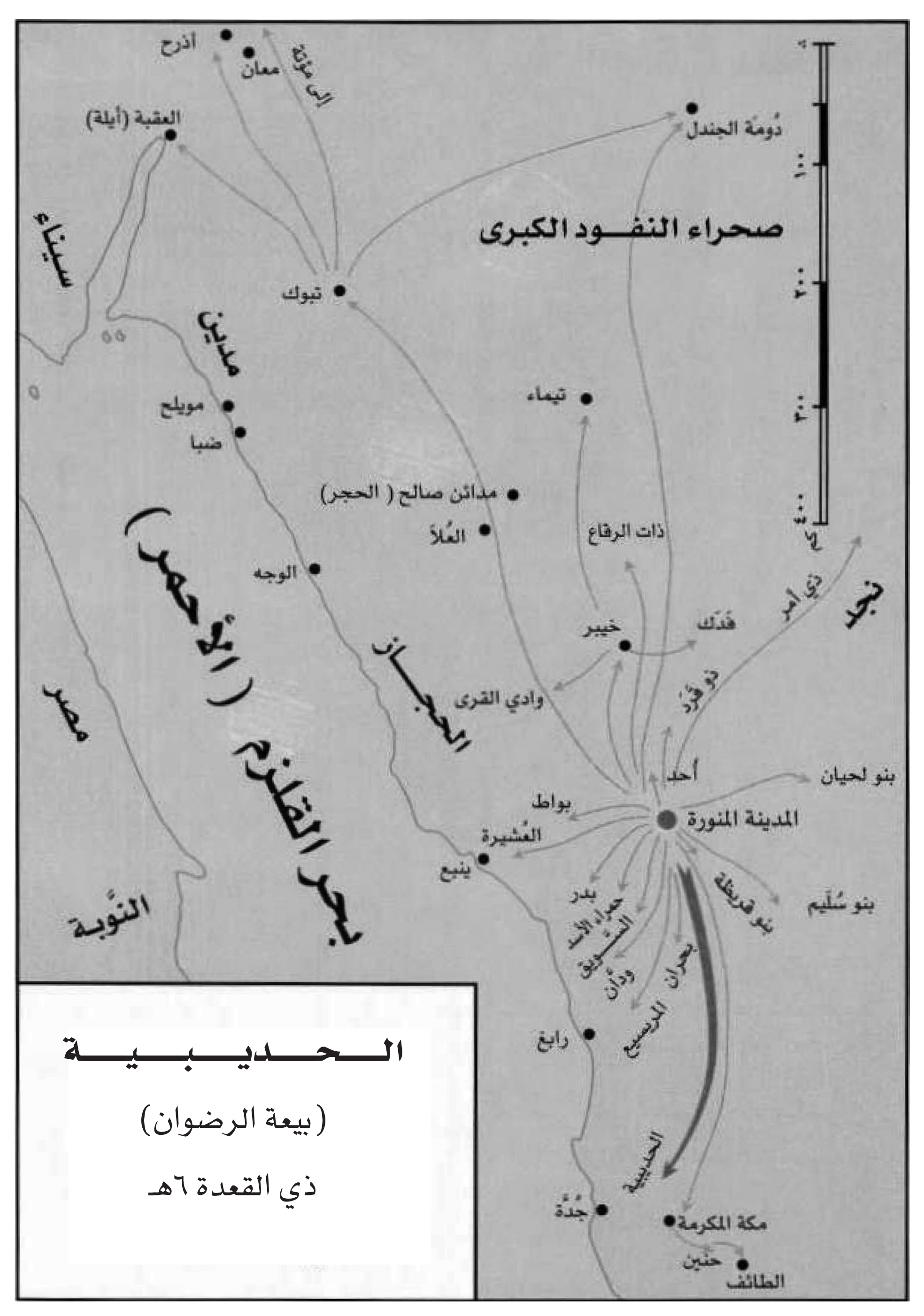
٤ - أتاح الصلح فرصة للنبيّ ﷺ ليخوض بهدوء صراعاً ضدّ القوى الأخرى المضادّة للإسلام، كاليهود والبيزنطيّين وحلفائهم العرب.

٥ - أدّى الصلح - نوعاً ما - إلى فتح مكّة؛ لأنّه بموجب المادّة الرابعة منه تُركت

(١) إعلام الورى، الطبرسيّ، ص: ٩٨، وبحار الأنوار، ج ٢٠، ص٣٦٣.

للقبائـل الأخرى حرّيّة التحالف والانضمام إلــى قريش أو إلى المسلمين، فتحالفـت قبيلـة خزاعة مع المسلميـن. وقد نقضت قريشـ هذا الصلح عندما هاجمت خزاعة، ونتيجة لذلك أقدم النبيّ ﷺ على فتح مكّة.

فضلاً عن الكثيـر من الأمور التي أعرضنا عن ذكرها اختصاراً، ويكفينا في ذلك وصف الله عزَّ وجلَّ هذا الصلح بـ«**الفتح المبين**».



الحديبية
(بيعة الرضوان)
ذي القعدة ٦هـ
أذرح
معان
إلى مؤتة
العقبة (أيلة)
دُومة الجندل
صحراء النفود الكبرى
سيناء
تبوك
مدين
تيماء
مويلح
ضبا
مدائن صالح (الحجر)
العُلا
ذات الرقاع
الوجه
بحر القلزم (الأحمر)
الحجاز
خيبر
فدك
ذي أمر
نجد
وادي القرى
ذو قرد
مصر
أحد
بنو لحيان
بواط
المدينة المنورة
العُشيرة
ينبع
بدر
حمراء الأسد
السويق
ودان
بحران
المريسيع
بنو قريظة
بنو سُلَيم
النوبة
رابغ
الحديبية
جُدّة
مكة المكرمة
حنين
الطائف



خلاصة



ساهمت أربعة عناصر في تحقيق النصر في معركة الخندق، التخطيط العسكريّ الذي تمثَّل بحفر الخندق، العمل الاستخباريّ الفعّال، الدور البطوليّ للإمام عليَّ عليه السلام، التأييد الإلهيّ الغيبيّ.

وفرزت حرب الخندق المسلمين إلى ثلاث فئات، ضعاف الإيمان، المنافقين، والمؤمنين الحقيقيّين.

وكان لصلح الحديبيّة بركات عديدة، حيث مهّد لدخول كثير من الناس إلى الإسلام، ومهّد لفتح مكّة وانتصار الإسلام على الكفر القرشيّ.



زهد النبيّ ﷺ

إذا أردنا أن نُكوِّن فكرة واضحة عن زهد رسول الله ﷺ، علينا أن نعرف طعامه ولباسه ومسكنه ومُدّخراته.

❖ أمّا طعامه ﷺ: فقد كان خبز رسول الله ﷺ خبز الشعير في أكثر أحيانه، وما أكل خبز طحين منخول حتّى قُبِض، بل ما شبع من خبز الشعير قطّ.

فعن العيص بن قاسم قال: قلت للصادق جعفر بن محمّد عليه السلام: حديث يُروى عن أبيك عليه السلام أنّه قال: «**ما شبع رسول الله ﷺ من خبز برّ قطّ، أهو صحيح؟ فقال: لا، ما أكل رسول الله ﷺ من خبز برّ قطّ، ولا شبع من خبز شعير قطّ**»[1].

وعنه عليه السلام، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: «**دخلت السوق فابتعت لحماً بدرهم وذُرَة بدرهم، وأتيت فاطمة عليها السلام حتّى إذا فرغت من الخبز والطبخ قالت: لو دعوت أبي! فأتيته وهو مضطجع وهو يقول: أعوذ بالله من الجوع ضجيعاً**[2]، ثمّ جاء معه وتغدّى عنده».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**ذُكر اللحم عند رسول الله ﷺ فقال: ما ذقته منذ كذا**»[3].

ولشدّة زهد النبيّ ﷺ في الدنيا تروي عائشة فتقول: «**ما زالت الدنيا علينا عسرة كدرة حتّى قُبض رسول الله ﷺ، فلما قُبض صُبّت الدنيا علينا صبّاً**»[4].

---

(١) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٤، ص٢٤٤.

(٢) العلاّمة المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٨، ص٣١.

(٣) م.ن، ص٢٠.

(٤) م.ن، ج١٦، ص٢٤٤.

وقالت: «**والذي بعث محمّداً ﷺ بالحقّ ما كان لنا منخل، ولا أكل النبيّ ﷺ خبزاً منخولاً منذ بعثه الله إلى أن قُبض**»[1].

❖ وأمّا لباسه ﷺ: فيكفينا أن نعلم أنّه ﷺ -كما تقول عائشة- «ما اتخذ من شيء زوجين، لا قميصين ولا رداءين ولا إزارين، ولا من النعال، وكثيراً ما كان يلبس المُرقَّع من الثياب».

❖ وأمّا مسكنه ﷺ: فقد كان غرفة واحدة، لكلّ زوجة من زوجاته، فيها ينام وفيها يجلس وفيها يأكل، وكان أثاثها بسيطاً زهيد الثمن، وكان فراش رسول الله ﷺ ومخدّته من جلد محشوّ بالليف.

يروي أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: «**كان فراش رسول الله ﷺ عباءة وكانت مرفقته أدم حشوها ليف.. وكان كثيراً ما يتوسّد وسادة له من أدم حشوها ليف، ويجلس عليها، وكانت له قطيفة فدَكيّة يلبسها يتخشّع بها، وكانت له قطيفة مصريّة قصيرة الخمل، وكان له بساط من شعر يجلس عليه**»[2].

ورُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ رجلاً من الأنصار أهدى الى رسول الله ﷺ صاعاً من رُطَب، فقال رسول الله ﷺ للخادمة التي جاءت به: **أُدخلي فانظري هل تجدين في البيت قصعة أو طبقاً فتأتيني به؟** فدخلت ثمّ خرجت إليه فقالت: ما أصبت قصعة ولا طبقاً، فكنس رسول الله ﷺ بثوبه مكاناً من الأرض، ثمّ قال لها: **ضعيه ها هنا على الحضيض!** ثمّ قال: **والذي نفسي بيده لو كانت الدنيا تعدل عند الله مثقال جناح بعوضة، ما أعطى كافراً ولا منافقاً منها شيئاً**»[3].

---

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٩، ص١٨٩.
(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٥٣.
(3) م.ن، ص٢٨٤.

❖ وأمّـا مدّخراته ﷺ: فإن رسول الله ﷺ لم يكن يدّخر شيئاً من المال ولا من الأشياء.

قال أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ لا يَدَّخر شيئاً لغد.

ويكفي أن نعلم أنّه ﷺ لمّا تُوفّي ما ترك إلّا سلاحه وبغلته ودرعاً مرهونة.

فعن ابن عباس قال: «**إنّ رسول الله ﷺ تُوفّي ودرعه مرهونة عند رجل من اليهود على ثلاثين صاعاً من شعير أخذها رزقاً لعياله**»[1].

وعـن الإمام علي عليه السلام: «**نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ فقال: إنّ الله جـلّ جلالـه يُقرئك السلام، ويقول لك هذه بطحاء مكّة إن شئت أن تكون لك ذهباً، فنظر النبيّ ﷺ إلى السماء ثلاثاً ثمّ قال: لا يا ربّ ولكن أشبع يوماً فأحمدك، وأجوع يوماً فأسألك**»[2].

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٣، ص ١٢٣.

(٢) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٢٠.



الدرس العاشر

الفتح المبين



أهداف الدرس

١- أن يتبيّن الطالب سبب نقض قريش لصلح الحديبيّة، ونتائج ذلك.

٢- أن يستظهر كيفيّة فتح مكّة.

٣- أن يتعرّف إلى حنكة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحسن إدارته، وسعة صدره.

٤- أن يُلخِّص أحداث معركة حُنَيْن، ويستفيد من دروسها.



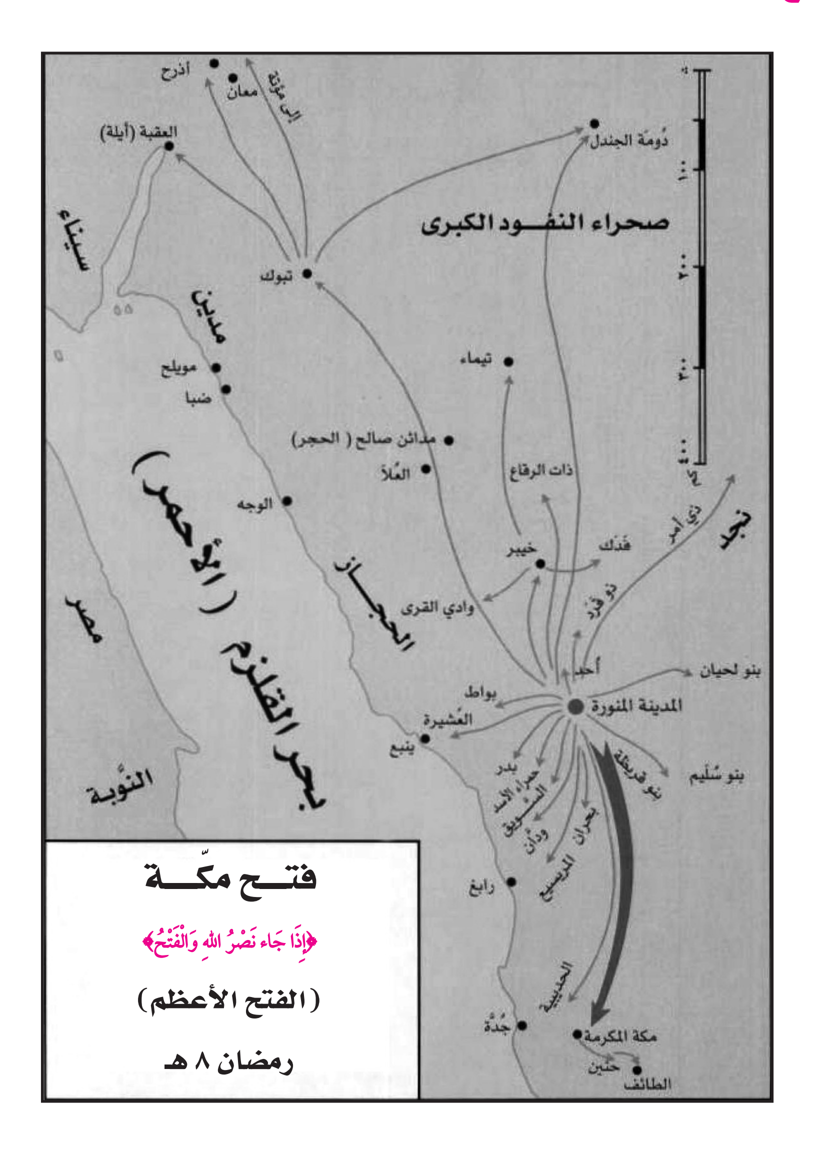


قريش تَنقض العهد

كان مـن أحـد بنـود صُلـح الحُديبيّـة إقـرار هدنة لمـدّة عشر سنـوات بين المشركيـن والمسلمين. وقد استفاد النبيّ ﷺ مـن حالة الأمن والاستقرار بعد أن كفّت قريش ممارساتها العدائيّة، وخطا ﷺ بعض الخطوات البعيدة المدى، وهـادن الكثير مـن القبائل المعادية التي كانت تقطن إلـى جوار المدينة، وعقد معاهدات صلح معها.

وبعـد سنتين نقضت قريش معاهـدة صُلح الحُديبيّة؛ وذلـك عندما انضمّت إلـى حلفائهـا مـن قبيلـة «**كنانة**» التـي أقدمـت على مهاجمـة قبيلـة «**خُزاعة**» حليفـة المسلميـن مخالفةً بذلك الهدنة القائمة بيـن الطرفين بموجب الصُّلح، فاستنصـرت خُزاعة رسَـول اللّه ﷺ، وشعرت قريش بخطـورة المجازفة التي أقدمـت عليها فأوفدت أبا سفيان إلى المدينـة، ليُؤكّد العهد مع رسول اللّه ﷺ وليتفـادى نتائج الأحداث، إلّا أنّ محاولاته في المدينة لم تُجدِ نفعاً بعدما رفض النبيّ ﷺ مقابلته لنقضه العهد.

فتح مكّة[١]:



أعلن النبيّ ﷺ النفير العامّ بين المسلمين، وجهّز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل وقرّر الهجوم على مكّة، ولكنّه لم يكشف عن الوجهة التي يُريد

---

(١) تمّ فتح مكّة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

أن يقصدها؛ لكي يُحافظ على مبدأ المُباغتة[1]، وليُصادر إمكانيّة الدفاع من يدها، ولئلّا يقع قتال في مكّة. وكان يدعو ربّه قائلاً: «**اللهم خذ العيون والأخبار من قريش نُباغتها في بلادها**»[2]. ولكنّ الخبر تسرّب إلى حاطب بن بلتعة الذي كتب إلى قريش بذلك وأعطى الكتاب إلى امرأة، فوضعته في شعرها وتوجّهت إلى مكّة، فعرف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بهذا العمل الجاسوسيّ الخطير، وبعث الإمام عليّاً عليه السلام والزبير ليقبضا عليها، فأدركاها في منطقة ذي الحليفة، وانتزع منها الإمام عليه السلام الكتاب بالتهديد والقوّة وأرجعاها إلى المدينة. وفي شهر رمضان من العام الثامن للهجرة تحرّك الجيش الإسلاميّ سرّاً حتّى وصل إلى مشارف مكّة وطوّقها.

اسلوب الحرب

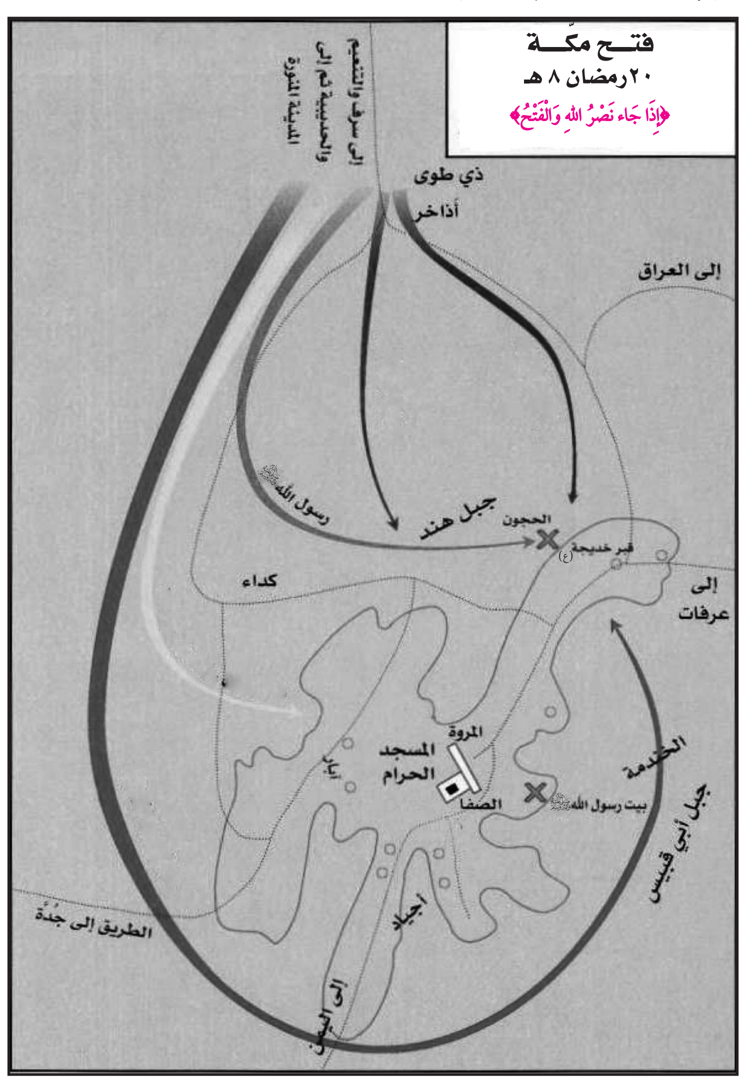
استخدم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الحرب النفسيّة في هذه الغزوة، فأشعل النيران على الجبال على مقربة من مكّة، ليُشعر قريشاً بقوّة وكثرة الجيش، وليُثير الرعب في قلوب الطغاة، وليحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال ولا إراقة دماء.

خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وغيرهما ليتجسّسوا الأخبار ففوجئوا بالنيران تُطوِّق مكّة، وفي هذه الأثناء التقى العبّاس بن عبد المطّلب بأبي سفيان[3] وأشار عليه بأنْ يذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وبعد أن أخذ له الأمان، رتّب له لقاءً مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وحصل اللقاء صبيحة اليوم التالي، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أنّه لا إله إلّا الله**» فقال: بأبي أنت وأمّي ما أحلمك وأكرمك.. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أنّي رسول الله**»؟ فقال: بأبي أنت وأمّي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أمّا هذه

(١) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٤، ص٣٩.
(٢) الواقدي، المغازي،ج ٢، ص٧٩٦.
(٣) راجع ابن هشام، السيرة النبويّة،ج٤، ص٤٢ـ ٤٤ـ ٤٦.

والله فإنّ في النفس منها حتّى الآن شيئاً. وهنا تدخّل العباس لإنقاذ أبي سفيان، فشهد أبو سفيان للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوّة، وفي نفسه أشياء وأشياء ظلّت حتّى موته.

كان إسلام أبي سفيان بمثابة إزالة لكلّ العقبات أمام إسلام البقيّة من زعماء الكفر من قريش، ولكنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم استتماماً للضغط النفسيّ على قريش، ولكي تستسلم دون إراقة الدماء، قال للعبّاس: «**يا عبّاس، احبسه بمضيق الوادي عند خضمّ الجبل حتّى تمرّ به جنود الله فيراها**».



ولإشاعة الاطمئنان إلى رحمة الإسلام، ورحمة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإرضاءً لغرور أبي سفيان كي لا يُكابر قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن طرح السلاح فهو آمن**»[1].

دخول مكّة:

ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكّة بتلك الحشود التي تنساب خلفه فاتحاً من غير قتال، فلمّا انتهى إلى الكعبة تقدّم على راحلته فاستلم الركن وكبَّر، فكبَّر المسلمون لتكبيره، ثمّ طاف بالبيت، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنماً وكان «**هُبل**» أعظمها، فقال صلى الله عليه وآله وسلم للإمام عليّ عليه السلام: «**أعطني يا عليّ كفّاً من الحصى**»، فقبض له الإمام عليه السلام كفّاً فناوله، فرماها به وهو يقول: ﴿قُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2]، ثمّ أمر بالأصنام فأخرجت من المسجد فطُرحت وكُسرت، ثمّ أمر أن تُفتح الكعبة، فدخلها وصلّى فيها وأزال كلّ ما كان فيها من تماثيل وصور، ثمّ أشرف من بابها على الناس وقال: «**لا إله إلّا الله وحده لا شريك له الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده..**»[3]، ثمّ توجّه إلى المكّيّين وسألهم: «**ماذا تَرَون أنّي فاعل بكم**»؟ فقالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّي أقول لكم ما قال أخي يوسف لإخوته، لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، إذهبوا فأنتم الطلقاء**»[4].

وبذلك ضرب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للأجيال في كلّ عصرٍ وزمان مثلاً في الرحمة والعفو والترفُّع عن الحقد والانتقام.

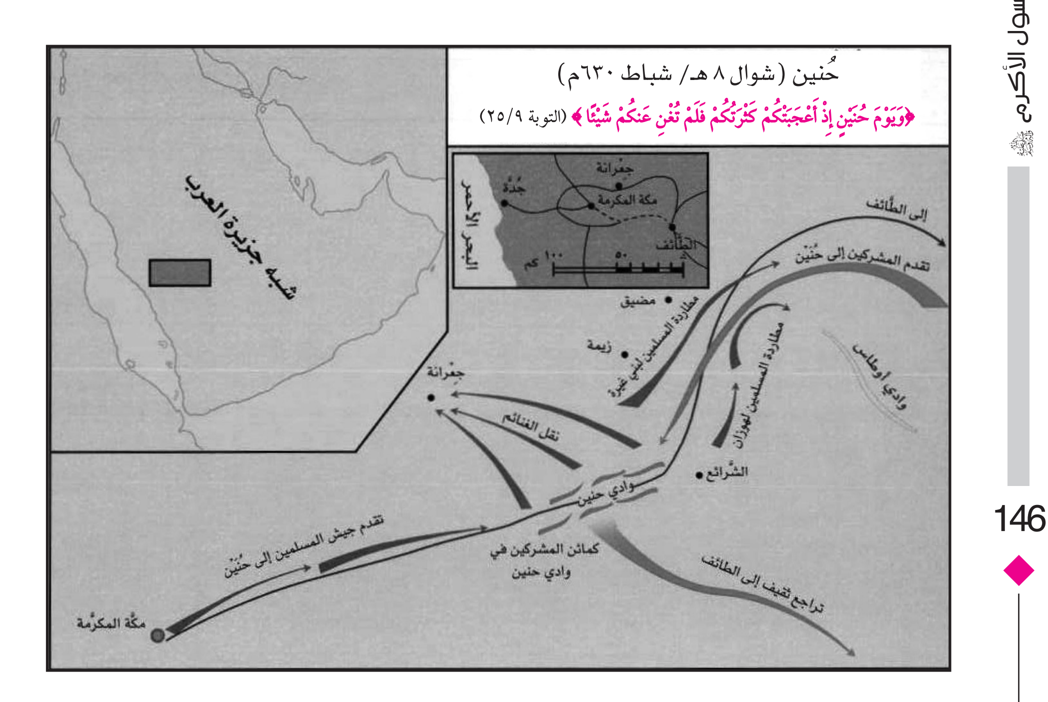
---

(١) راجع: ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٢، ص ٤٠١.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨١.
(٣) راجع: ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٢، ص ٤١٦.
(٤) م.ن، ص٤١١.

وكان مــن نتائــج هذا الفتــح سقوط القلعــة الحصينــة والقاعــدة المركزيّة للمشركيــن، وولّى عهد عبادة الأصنام إلى غير رجعــة، وبعد سقوط مكّة أخذت وفــود القبائل تأتي وتُعلن إسلامها وطاعتهــا للإسلام عدا قبيلتي هوازن وثقيف اللتين أسلمتا بعد غزوة حُنَيْن.

غزوة حُنين[١]:

شــكّل فتــح مكّة وانتصار النبــيّ صلى الله عليه وآله وسلم العظيم عهداً جديداً مــن التوحيد، بعد طــول فترة من الشرك. وترامــت إلى أسماع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّ قبيلتي **هوازن وثقيف** قــد أعدّتا العُدَّة لمحاربــة الإسلام، فعزم صلى الله عليه وآله وسلم على الخــروج لملاقاتهم قبل أن يُفاجِئــوه بالجيش الكبير الذي نظّموه بالتعاون مع بعض القبائل الأخرى، بقيادة مالك بن عوف (زعيم هوازن)[٢].



(١) حنين: واد إلى جانب ذي المجاز أو ماء إلى قرب الطائف، يبعد ثلاث ليال عن مكّة.

(٢) الطبرسي، إعلام الورى، ص ١١٣.

انطلـق النبيّ ﷺ من مكّة في مطلع شوّال على رأسـ اثني عشر ألف مقاتل، وعيّن عتاب بن أسيد لإدارة الأمور في مكّة. وسرعان ما وجد المسلمون أنفسهم مضطرّيـن إلى اجتياز وادٍ مـن أودية تهامة، شديد الانحـدار يُدعى حُنيناً، في طريقهـم لمواجهـة التجمّع الوثنـيّ. وكان المشركـون قد سبقوهـم إلى الوادي واتخذوا مواقع لهم في شعابه، وتهيّئوا للانقضاض على المسلمين في جوٍّ يسوده المطـر والضباب. وما إنْ دخل المسلمون الوادي حتّى فاجأهم أعداؤهم بهجوم مُباغِـت، فأصابهم الفزع والاضطـراب وفرّوا راجعين لا يلـوون على شيء، ولم يثبت مع النبيّ ﷺ غير الإمام عليّ عليه السلام وجماعة من بني هاشم[1]، والنبيّ ﷺ يُنـادي بالمسلمين، ثمّ أمر عمّه العبّاسـ أن يلحق بالفارّين ويُناديهم، ولمّا سمع المسلمـون صوت العبّاس، وأنزل الله السكينة على قلوب المؤمنين منهم، بادروا للعـودة إلـى ساحة المعركـة واستقبلوا العـدوّ بصدورهم، وقاتلـوا ببسالة على قلّتهم بعدما رأوا رسول الله ﷺ يُباشر القتال بنفسه بشجاعة ومن حوله الإمام عليّ عليه السلام وبنو هاشم.

تمكّـن الإمـام عليه السلام من قتل حامـل راية هوازن، وبدأت الكفّـة تميل لصالح المسلمين، وما لبث المشركون أن أخذوا بالتراجع، وأُصيبوا بالهزيمة وفرّوا من أرضـ المعركة، تاركين وراءهم الأموال والنساء والأولاد، وأسر المسلمون منهم أربعة آلاف أسير مع ٢٤ ألف بعير[2].

حصار الطائف:

واصلـت قوّات المسلميـن ملاحقتها للعدوّ، وتراجـع المشركون بقيادة مالك بن عوف صوب الطائف، وعسكر بعضهم في «**أوطاس**»، وتوجّهت فئة أخرى نحو

(١) الطوسي، الأمالي، ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص١٣٢.

«**نخلة**» فلحق المسلمون بهم إلى هاتين المنطقتين وأوقعوا بهم شرّ هزيمة.

تمكّن مالك بن عوف من الفرار مع بعض الجيش إلى الطائف، واعتصم بحصونها المنيعة وأعدّ العُدَّة مع جيشه للقتال، فحاصرهم النبيّ ﷺ بضعاً وعشرين يوماً، وحصل قتال عنيف استعمل فيه المسلمون لأوّل مرّة آلات الحصار كالمنجنيق، ونظراً لاقتراب شهر ذي القعدة الذي هو من الأشهُر الحُرم قرّر النبيّ ﷺ رفع الحصار؛ لأنّه لم يَعُد يرى خطراً من ترك الطائف إلى فرصة أخرى.

وفي طريق عودته ﷺ وعند وصوله إلى «**الجعرانة**» (محلّ تجميع الأسرى والغنائم) أرسلت إليه هوازن وفداً لالتماس العفو عنده، وأعلنوا إسلامهم، فردّ عليهم النبيّ ﷺ نساءهم وأموالهم، وجاء زعيمهم مالك بن عوف إلى رسول اللّه ﷺ معلناً إسلامه بعد أن سمع مقولة النبيّ ﷺ: «**أخبروا مالكاً أنّه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل**»، وردّ عليه الرسول ﷺ أهله وماله.

وبعد تقسيم الغنائم على المسلمين في «**الجعرانة**» اتّجه النبيّ ﷺ إلى مكّة في شهر ذي القعدة، فأتمّ عمرته وأحلّ من إحرامه واستخلف على مكّة عتاب بن أسيد ومعه معاذ بن جبل لتعليم الناس القرآن وأحكام الدين، وخرج مُتّجهاً إلى المدينة بمن معه من المهاجرين والأنصار، بعد هذين الإنتصارين العظيمين وهما: فتح مكّة، وهزيمة جيشٍ مؤلّف من ثلاثين ألف مقاتل في حُنين.

دروس من حُنين:

يُمكن لنا أن نستخلص من غزوة حُنين بعض الدروس والعِبَر، منها:

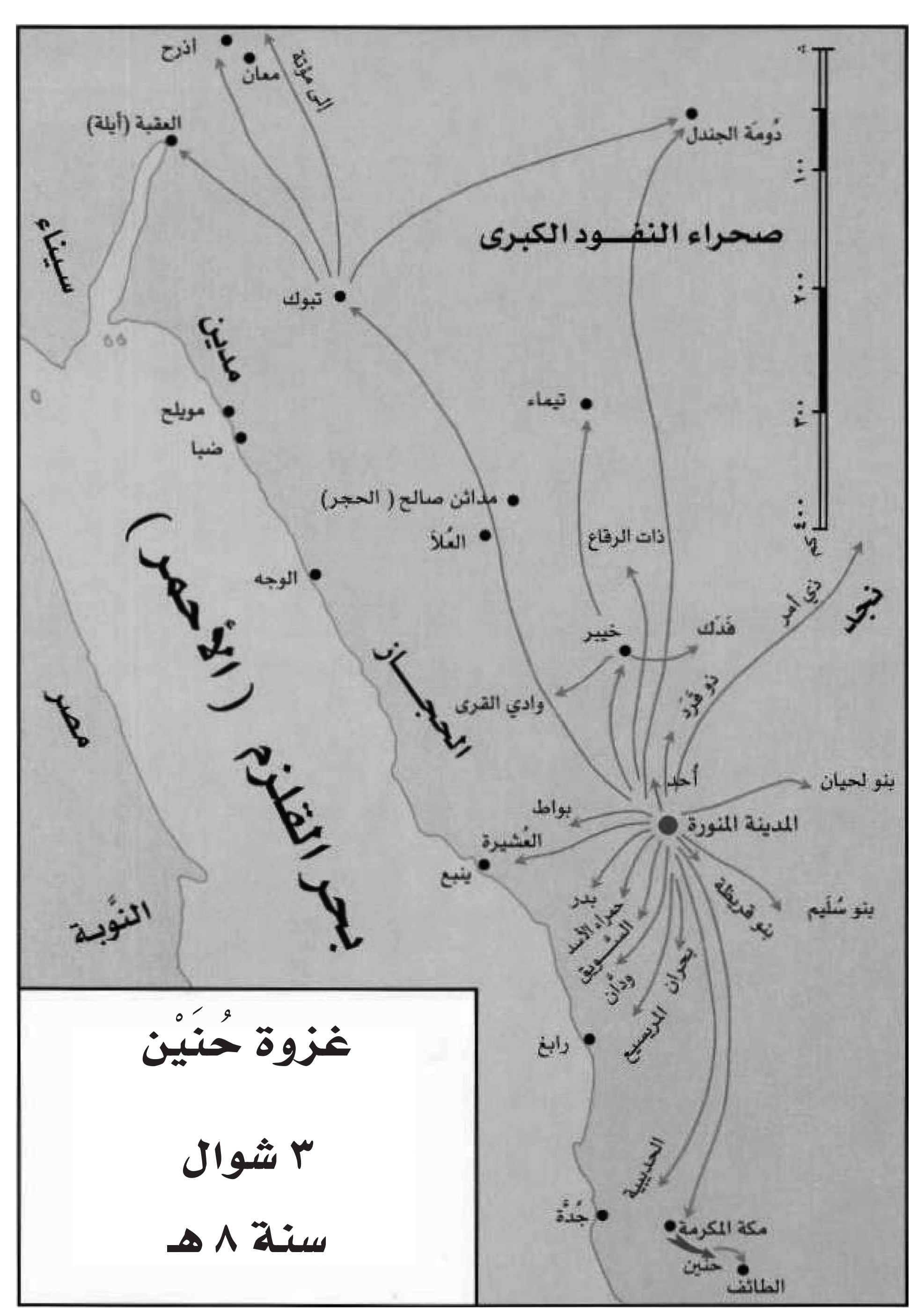
١ ـ إنّ غرور المسلمين بأنفسهم، في بداية المعركة، وإعجابهم بكثرتهم وقوّتهم كان السبب الأساس في الهزيمة، فأراد اللّه تعالى أن يُعلِّمهم أنّ

الكثرة لا تُغني شيئاً؛ عندما تفقد الأمّة عناصر الإيمان والإخلاص والصبر والتوكّل على اللّه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[١].

٢ - إنّ القلّة التي ثبتت في ساحة القتال هي التي حقّقت الانتصار في حُنين، وهم الذين أنزل اللّه تعالى عليهم السكينة والطمأنينة. ﴿ثُمَّ أَنَزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾[٢].

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٦.


غزوة حُنَيْن
٣ شوال
سنة ٨ هـ
صحراء النفــود الكبرى
دُومة الجندل
أذرح
معان
إلى مؤتة
العقبة (أيلة)
سيناء
تبوك
مدين
مويلح
ضبا
تيماء
مدائن صالح (الحجر)
العُلا
الوجه
ذات الرقاع
خيبر
فَدَك
بني أمر
نجد
وادي القرى
الحجــاز
بحر القلزم (الأحمر)
مصر
النوبة
أُحد
بنو لحيان
المدينة المنورة
بواط
العُشيرة
ينبع
بدر
حمراء الأسد
السويق
ودّان
بحران
المريسيع
بنو قريظة
بنو سُليم
رابغ
الحديبية
جُدة
مكة المكرمة
حُنين
الطائف

خلاصة

كان نقض قريش لأحد بنود صلح الحديبيّة مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سبباً لتوجُّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بشكل سرّي وسريع نحو مكّة، وتمّ فتحها بغتةً. وكان استسلام أهل مكّة عملاً هائلاً في تأريخ حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقد توقّف النشاط المعادي للإسلام من أخطر مركز باشر العداء للدين الجديد لأكثر من عشرين عاماً.

مهّد هذا الفتح الطريق لاستسلام الجزيرة العربيّة كلّها، وسُمّيّ العام الثامن الهجريّ بعام الفتح. وأصبح المسلمون سادة مكّة وحماة البيت الحرام.

أحدث فتح مكّة واستسلامها للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ردّ فعل عنيف لدى القبائل العربيّة، كهوازن وثقيف وحاولت أن تُوجِّه ضربتها للإسلام، وأفلحت في أوّل الطريق، ولولا ثبات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام وثلّة من المؤمنين لاكتسحت هاتان القبيلتان قوّات المسلمين.

كانت غزوة حُنين تجربة قيّمة للمسلمين؛ لئلّا يغترّوا بكثرة العدد، فإنّ قُدرة الإيمان هي التي تُؤدّي إلى النصر دائماً.



شجاعة النبيّ ﷺ وثباته:

إذا أردنا أن نُكوِّن فكرة واضحة عن مدى شجاعة رسول اللّه ﷺ فلنستمع إلى شهادة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو يصف شجاعة رسول اللّه ﷺ حيث يقول: **«لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبيّ ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً»**[1].

وقال عليه السلام أيضاً: **«كنّا إذا احمرّ البأس ولقي القومُ القومَ، اتقينا برسول اللّه ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدوّ منه»**[2].

ورُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«أغار المشركون على سرح المدينة فنادى فيها مناد: يا سوء صاحباه[3]! فسمعها رسول اللّه ﷺ في الجبل فركب في طلب العدوّ، وكان أوّل أصحابه لحاقاً به أبو قتادة على فرس له، وكان تحت رسول اللّه ﷺ سرج دفّتاه ليف ليس فيه أشر ولا بطر، فطلب العدو فلم يلقوا أحداً، وتتابعت الخيل فقال أبو قتادة: يا رسول اللّه إنّ العدوّ قد انصرف فإن رأيت أن نستبق. فقال: نعم، فاستبقوا فخرج رسول اللّه ﷺ سابقاً عليهم، ثمّ أقبل عليهم فقال: أنا ابن العواتك من قريش، إنّه لهو الجواد البَحر، يعني فرسه»**[4].

ولمّا انصرف رسول اللّه ﷺ يوم أُحُد، أدركه أُبيّ بن خلف الجمحيّ وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول اللّه ألا يعطف عليه رجلٌ منّا؟

---

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١٦، ص٢٣٢.

(٢) م.ن.

(٣) وفي روايات أخرى، يا سوء صباحاه.

(٤) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج ١٩، ص١٧١.

فقـال ﷺ: «**دعـوه**»، حتّى إذا دنا منه. وكان أبـيّ قبل ذلك يلقى رسول اللّه ﷺ فيقـول: عندي رمكة أعلفها كلّ يوم فرق ذرة اقتلك عليها، فقال رسول اللّه ﷺ: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**». تناول رسول اللّه ﷺ الحربة من الحارث بن الصمّة ثمّ استقبلـه فطعنه في عنقه فخدش خدشة، فتدهده عن فرسه وهو يخور خوار الثـور وهو يقول: قتلني محمّد، فاحتمله أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس. فقال: بلـى. لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضـر لقتلتهم، أليس قال لي: أقتلك؟ لو بزق عليّ بعد تلك المقالة لقتلني، فلم يلبث يوماً حتّى مات[1].

(١) م. ن. ج٢٠، ص٢٦.



الدرس الحادي عشر

مؤامرات اليهود وحروب النبيّ ﷺ معهم (١)



أهداف الدرس

١- أن يتبيّن الطالب الموقف العدائيّ والعنصريّ لليهود.

٢- أن يستظهر سبب تحويل القبلة.

٣- أن يسرد أسلوب مواجهة النبيّ ﷺ لليهود.

٤- أن يعدّد أسباب الحرب الشاملة للنبيّ ﷺ ضدّ اليهود وإجلاءهم عن المدينة.





مخالفات اليهود:

اليهود قومٌ نفعيّـون، يتّسمون بالتعنُّت والتكبُّر، وقفوا موقفاً عنصريّاً من نبيّ الإسلام ﷺ لكونه غير يهوديّ، ولأنّهم كانوا يَحْظَون بمكانة اقتصاديّة واجتماعيّة في يثـرب، ويحتكرون الزراعة وأكل الربا، وكانوا يستغلّون الخلافات بين الأوس والخزرج، فقـد أعلنوا عدائهم للنبيّ ﷺ بعد العهـود والمواثيق، عندما شعروا بأنّ القوّة ستكون بيد المسلمين في المستقبل القريب، وأنّهم سيفقدون مكانتهم لأنّ الناس اتّحدوا تحت لواء الإسلام، وتعبيراً عن حقدهم على النبيّ ﷺ قالوا: «**ما يُريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلّا خَالَفَنَا فيه**»(١).

أخذ اليهـود بتبديل موقفهم من الرسالة وانتهجـوا أسلوب المخالفة، ووضع العراقيـل من خلال عرض مجموعة مـن المطالِب التعجيزيّـة وغير المنطقيّة، مثل طلبهم إنزال كتاب من السماء عليهم، وإثارة الأسئلة الدينيّة المعقّدة بهدف تشويشـ أذهان المسلمين، وعملوا علـى زرع الفتنة بين المسلمين، وحاولوا بعث الأحقاد القديمة بين الأوس والخزرج(٢).

---

(١) الحلبي، ج ٢، ص٣٣٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص١٦٠، والمناقب، ج ١، ص٥٤.

تحويل القبلة:

كان النبيّ ﷺ أثناء إقامته في مكّة، ومدّةً من بعد الهجرة، يُصلّي باتجاه بيت المقدس بأمر من الله تعالى. وبعد أن أسفر اليهود عن عدائهم، اتّخذوا قضية القبلة ذريعة لنفث سموم إعلامهم ضدّ رسول الله ﷺ، وقالوا بأنّه لا استقلاليّة له في دينه، وإنّه يُصلّي باتجاه قبلتنا، فتأذّى الرسول من هذا الوضع. وبعد سبعة عشر شهراً من الهجرة نزل عليه جبرئيل عليه السلام وأبلغه أمر تحويل القبلة نحو الكعبة بعدما صلّى ركعتين من صلاة الظهر نحو بيت المقدس. فكان ذلك الحدث أمراً صعباً مريراً على اليهود، ولم يَعُد لديهم ذريعة لإطلاق الدعايات ضدّ المسلمين[1].

اليهود في مواجهة الإسلام:

حاول اليهود مواجهة الإسلام بكلّ ما لديهم من قوّة عبر الأساليب التالية:

١ - تشكيك البسطاء وضعاف النفوس بالإسلام.

٢ - طرح الأسئلة التعجيزيّة على النبيّ ﷺ بهدف إفشال دعوته، للإيحاء للناس بعدم صدقه في ادعائه للنبوّة، وقد حدّثنا القرآن عن ذلك: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً﴾[2].

٣ - الضغط الاقتصاديّ على المسلمين من خلال رفضهم أن يُقرضوا المسلمين مالاً في بداية إقامتهم في المدينة؛ حيث كان المسلمون في ضنك ماديّ شديد.

٤ - تحريض أعداء الإسلام ومساعدتهم بكلّ ما أمكنهم ولو بالتجسّس.

(١) راجع الآيات الكريمة التي نصّت على تحويل القبلة في سورة البقرة، من الآية: ١٤٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٣.

٥ ـ إثارة الفتن بين المسلمين.

٦ ـ تآمرهم على حياة النبيّ الأعظم ﷺ، وتحريضهم الناس عليه.

٧ ـ نقضهم للعهود والمواثيق التي أبرموها مع النبيّ ﷺ في المدينة كلّ مرّة.

موقف النبيّ ﷺ من اليهود:

باءت جميع محاولات اليهود في القضاء على الإسلام بالفشل الذريع، بسبب الوعي والحكمة والأسلوب الذي واجههم به النبيّ ﷺ، والذي يتلخّص باتجاهين:

الأوّل: الاغتيالات المنظّمة لرموزهم وبعض أفرادهم:

فقد تمّ اغتيال بعض أفرادهم ورموزهم الذين ظهر كيدهم، فاغتيل أبو عفك اليهوديّ، الذي كان يُحرِّض على رسول اللّه ﷺ ويهجوه في الشعر، على يد سالم بن عمير، وقُتلت العصماء بنت مروان اليهوديّة على يد عمير بن عون ليلاً، حيث كانت تعيب الإسلام والمسلمين، وتؤنِّب الأنصار على اتّباعهم لرسول اللّه ﷺ، وتقول الشعر في هجوه ﷺ، واغتيل كعب بن الأشرف الذي ذهب إلى مكّة بعد «حرب بدر» وحرّض المشركين على حرب رسول اللّه ﷺ، وكان يتعرّض بالأذى لنساء المسلمين، واغتيل ابن سنينة وأبو رافع ابن أبي الحقيق من يهود خيبر وغيرهما...

هذه الاغتيالات أدخلت الرعب إلى قلوب اليهود لدرجةٍ أنّه لم يبق في المدينة ومحيطها يهوديّ إلّا وهو خائف على نفسه.

الثاني: الحرب الشاملة والمصيريّة ضدّهم:

على الرغم من الاغتيالات لم يتراجع اليهود عن التحريض والتآمر، واستمرّوا في عنادهم وتماديهم في إيذاء المسلمين ونشر الفساد، ونقضهم للمعاهدات التي وقّعوا عليها بملء اختيارهم، فكانت الحرب الشاملة والمصيريّة ضدّهم، فحاربهم النبيّ ﷺ في داخل المدينة «**بني قينقاع، وبني النضير**»، وحارب في محيطها «**بني قريظة**»، وحاربهم في خيبر التي كانت تُمثّل المعقل الأساس لهم في شبه الجزيرة العربيّة.

حروب النبيّ ﷺ ضدّ اليهود(١):

١ ـ غزوة بني قينقاع:

نظراً لكثرة المؤامرات والإفساد الذي مارسه اليهود ضدّ النبيّ ﷺ، ونقضهم للعهود والمواثيق معه، رأى النبيّ ﷺ في هذه الممارسات اليهوديّة سبباً وفرصةً للتخلّص من شرِّهم ومكرهم، فكان أوّل عملٍ منه تجاههم هو مواجهة بني قينقاع وإجلاؤهم عن المدينة. والسبب الذي حمل الرسول ﷺ على البدء بإجلاء بني قينقاع من المدينة دون غيرهم هو: أنّهم كانوا يسكنون داخل المدينة، وكانوا أوّل من غَدَرَ وخان من اليهود. ويذكر المؤرِّخون أنّ بني قينقاع كانوا يُمسكون بخيوط اقتصاد المدينة، وأكثر الناس خطراً على المسلمين لأنّهم يعيشون بينهم، ومارسوا الكثير من الأعمال الإيذائيّة، وقاموا بالحرب الباردة (الإعلامية) ضدّهم، ونشروا الأكاذيب والشعارات القبيحة، وأنشدوا القصائد التي من شأنها تحقير المسلمين والإساءة إليهم. وكانوا قد عاهدوا النبيّ ﷺ على المسالمة وعدم معاونة الأعداء، فلمّا كانت حرب بدر أظهروا البغي والحسد ونقضوا العهد، وكانوا أوّل من استجاب

لطلب قريش في نصب العداء للمسلمين والغدر بهم. وقد صعّدوا من تحدّيهم للمسلمين عندما دخلت امرأة مسلمة سوق الصاغة في المدينة ـ الذي كان تحت سيطرتهم ـ فاجتمع عليها جماعة من اليهود وأرادوها أن تكشف عن وجهها فأبَت، فعمد يهوديٌّ من خلفها وعقد طرف ثوبها إلى ظهرها، فلمّا قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها، فصاحت تستغيث بالمسلمين، فوثب رجلٌ من المسلمين على من فعل ذلك فقتله، وشدّ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستنجد أهل المسلم بالمسلمين، ووقع بينهم وبين بني قينقاع الشرّ، فجمع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم اليهود وحذّرهم وطلب منهم أن يكفّوا عن أذى المسلمين ويلتزموا بعهد الموادعة، أو يُنزل بهم ما أنزله بقريش[1]، فقالوا له: «**لا يَغُرَّنّك يا محمّد أنّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة مكّنتك من رقابهم، إنّا والله لئن حاربناك لتعلَمنّ أنّا نحن الناس، وسترى منّا ما لم تره من غيرنا**»[2].

فأنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بهذه المناسبة قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾[3].

ولذلك لم يبق أمام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلّا أن يُقاتلهم، فسار إليهم، وكان عددهم حوالي سبعمائة مقاتل، وسلّم الراية للإمام عليّ عليه السلام، وحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشدّ حصار، فقذف الله في قلوبهم الرعب، واستسلموا، وطلبوا من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يُخلّي سبيلهم وينفيهم من المدينة،

(١) يقصد بذلك حرب بدر.

(٢) راجع تاريخ الطبري، ج٢، ص١٧٢.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.

علـى أن يكون لهم نساؤهم والذريّة، وله أموالهـم والسلاح، فقبل منهم ذلك، فـوزّع أموالهـم وأسلحتهم على المسلمين، وطردهم مـن المدينة إلى أذرعات بالشـام[١].

٢ـ غزوة بني النضير:

وصلت معلومات إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مفادها أنّ بني النضير يُخطّطون لاغتياله، فقرّر إجلاءهـم عن مواضعهم بعد أن ظهـر للعيان فسادهم. وتعامـل معهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالرفـق والتسامح، حيـث أنذرهم في البداية بأنّ يخرجـوا من حصونهم وينزحوا مـن يثـرب في مدّة عشرة أيّام، ولكنّهم رفضوا الإذعان لـه أوّل الأمر، ثمّ بدا لهم الإذعـان لحكمـه صلى الله عليه وآله وسلم ورضوا بالجلاء عـن يثرب، لكنّ جماعة مـن المنافقين من بنـي عوف وعلـى رأسهم عبد اللّه بن أُبيّ بعثـوا إليهم: **«أن اثبتـوا وتمنّعوا فإنّا لا نُسلمُكم. إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم»**[٢].

إلّا أنّ عبد اللّه بن أُبي خذلهم وغدر بهم، وأنزل اللّه سبحانه بهذه المناسبة: ﴿أَلَـمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِـمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُـرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَـرُونَ﴾[٣] لذلك امتنعوا عـن الإذعان لحكم النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم واحتموا خلف حصونهم، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّـنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ...﴾[٤]. وكانت حصونهم مُحْكَمة، وكان من غير المُمكن فتحها في مدّة وجيـزة، فأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقطع نخيلهم وحرقها، ولعلّ النخيل الذي أُحرِق كان

(١) راجـع للتفصيـل: السبحانـي، جعفر، سيّد المرسليـن، مؤسسة النشر الإسلاميّ، قـم، ط١، ١٤١٣هـ، ج٢، ص١٢١ وما بعدها.

(٢) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٢، ص٢٠٠.

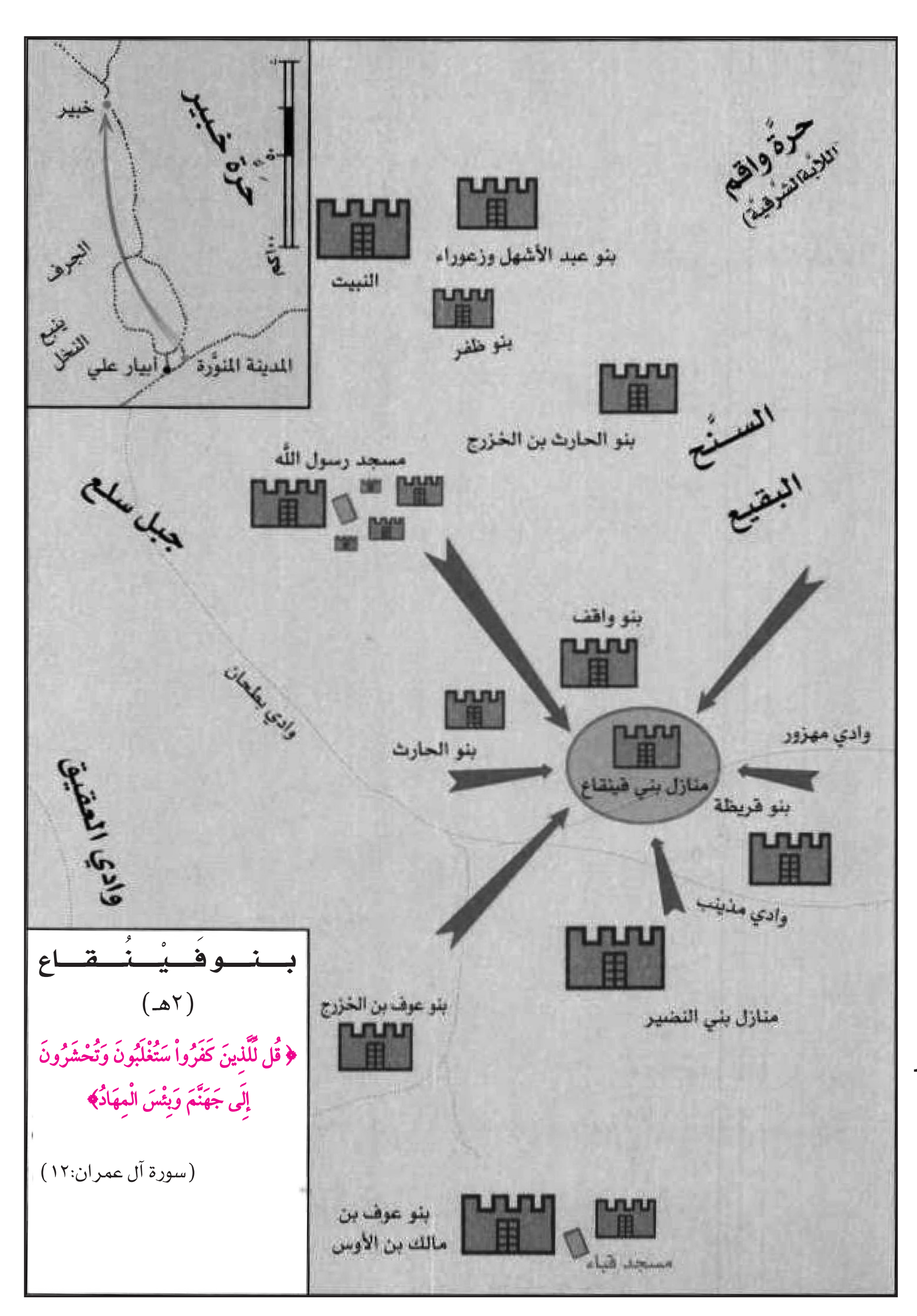
(٣) سورة الحشر، الآيتان: ١١ـ١٢.

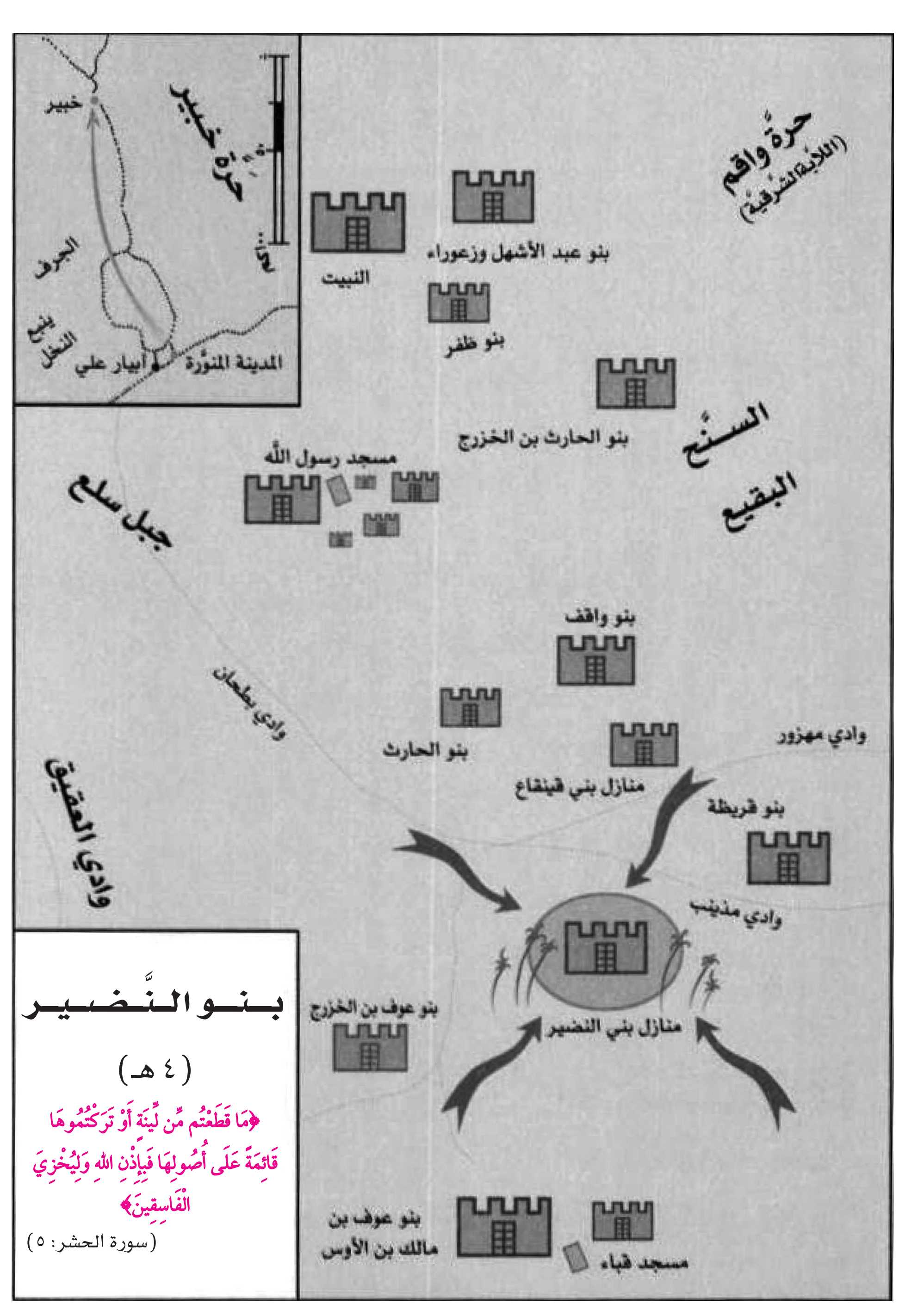
(٤) سورة الحشر، الآية: ١٤.

يُعيق حركة القتال. ولمّا عاب اليهود على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، أنزل اللّه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾[1]. وكان قطع النخل ضروريّاً ولازماً من أجل قطع آمال بني النضير، وخزيهم وخزي سائر حلفائهم وفي مقدّمهم عبد اللّه بن أُبي ومن معهم من المنافقين، وكذلك لإفهامهم تصميم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على المواجهة والتحدّي حتّى يفقدوا الأمل بجدوى المقاومة. ويظهر أنّ قطع النخيل وإحراقه، كان سبباً في تسرُّب اليأس إلى قلوبهم، إذ وجدوا أنفسهم أمام خيارين: إمّا الإذعان لحكم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإمّا الخروج من المدينة لمهاجمة المسلمين ومنعهم من إحراق نخيلهم، فاختاروا الإذعان لحكم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، خاصّة بعد أن تَمكَّن الإمام عليّ عليه السلام من قتل عشرة من فرسانهم، فطلبوا منه صلى الله عليه وآله وسلم أن يُجليهم ويكفّ عنهم، على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلّا السلاح، فرضي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

ويُشير القرآن إلى غرور بني النضير وامتناعهم بحصونهم، ظانّين أنّها ستمنعهم من أمر اللّه تعالى، كما يُشير إلى هزيمتهم وتخريبهم بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين المجاهدين بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[2].

(١) سورة الحشر، الآية: ٥.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٢.


حرّة واقم
(اللابة الشرقية)
بنو عبد الأشهل وزعوراء
النبيت
بنو ظفر
بنو الحارث بن الخزرج
السنح
البقيع
مسجد رسول الله
جبل سلع
بنو واقف
وادي بطحان
بنو الحارث
وادي مهزور
منازل بني قينقاع
بنو قريظة
وادي العقيق
وادي مذينب
بنو عوف بن الخزرج
منازل بني النضير
بنو عوف بن
مالك بن الأوس
مسجد قباء
خيبر
حرّة خيبر
الجرف
أبيار علي
المدينة المنوَّرة
بنو قينقاع
(٢هـ)
﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ
إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾
(سورة آل عمران:١٢)


بـنـو الـنَّـضـيـر
(٤ هـ)
﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾
(سورة الحشر: ٥)
خيبر
حرة خيبر
الجرف
ينبع النخل
أبيار علي
المدينة المنوّرة
حرةُ واقم
(اللابة الشرقية)
بنو عبد الأشهل وزعوراء
النبيت
بنو ظفر
بنو الحارث بن الخزرج
السنح
البقيع
مسجد رسول الله
جبل سلع
بنو واقف
وادي بطحان
بنو الحارث
منازل بني قينقاع
وادي مهزور
بنو قريظة
وادي مذينب
وادي العقيق
منازل بني النضير
بنو عوف بن الخزرج
بنو عوف بن
مالك بن الأوس
مسجد قباء



خلاصة

وقف اليهود من النبيّ ﷺ موقفاً عدائيّاً وعنصريّاً لكونه غير يهوديّ، ونقضوا العهود والمواثيق التي أبرموها معه مرّات عديدة، وعملوا على زرع الفتنة بين المسلمين.

توجّه النبيّ ﷺ في صلاته إلى بيت المقدس، فاستغلّ اليهود هذه القضيّة لتكون ذريعةً لنفث سمومهم ضدّه ﷺ، فتأذّى النبيّ ﷺ من ذلك، فأنزل الله تعالى عليه الوحي يأمره بالتوجُّه في الصلاة إلى الكعبة الشريفة.

واجه اليهود النبيّ ﷺ بأساليب عدائيّة مختلفة، وطرحوا الأسئلة التعجيزيّة، وعملوا على الضغط الاقتصاديّ على المسلمين، وحرّضوا أعداء الإسلام عليه ﷺ فواجههم بالاغتيال لكبار أصحاب الفتنة منهم.

وحيث لم تردع هذه الطرق اليهود عن الاستمرار في غيّهم، أعلن النبيّ ﷺ الحرب الشاملة ضدّهم فحارب بني قينقاع وبني النضير الموجودين في داخل المدينة، وأجلاهم عنها.



منطق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

لقد اتّفق جميع الذين وصفوا منطق رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان أحسن الناس منطقاً.

فقد سأل الإمام الحسن عليه السلام هند بن أبي هالة التميميّ أن يصف له منطق رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «**كان رسول الله متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلّم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه (الأشداق جوانب الفم أي لا يفتح فاه كلّه) ويتكلّم جوامع الكلم فصلاً لا فضولاً ولا تقصيراً فيه، دمثاً ليس بالجافي ولا المَهين، يُعظّم النعمة وإن دقّت ولا يذمّ منها شيئاً، ولا يذمّ ذوّاقاً ولا يمدحه، ولا تُغضبه الدنيا وما كان لها، إذا تُعوطي الحقّ لم يعرف أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتّى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصرُ لها، إذا أشار أشار بكفّه كلّها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا تحدّث أشار بها فضرب راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ من طرفه، جُلُّ ضحكه التبسّم ويفتر عن مثل حبِّ الغمام**»[1].

وإذا أردنا أن نبحث عن مكوّنات حلاوة منطقه صلى الله عليه وآله وسلم وحُسنه لحصلنا من ذلك على العناصر التالية:

❖ ترك الفاحش من القول: فلم يكن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم سَبَّاباً ولا فَحَّاشاً، بل كان أبعد ما يكون عن الفُحش والبذاءة في الكلام. فقد رُوي أنّه قيل له: يا رسول

(١) الطبرسيّ، مكارم الأخلاق، ص١٣.

اللّه ادعُ على المشركين! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّي لم أُبعث لعّاناً وإنّما بُعثت رحمة**»[(١)].

وعن أنس بن مالك قال: خدمت النبيّ تسع سنين فما قال لشيء أسأتَ، ولا بئس ما صنعْتَ، وكان إذا أنكر الشيء يقول: كذا قُضِي[(٢)].

❖ فصاحة لسانه: فقد كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فصيح اللسان، إذا تكلّم تكلّم بأناة وهدوء.

❖ تبسّمه أثناء التكلُّم: قال أبو الدرداء: كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه[(٣)].

❖ تكليمه للناس على قدر عقولهم: فكانت أساليب عرضه للأفكار وإجاباته عن الأسئلة تختلف في البُعد والمستوى من شخص لآخر، طبقاً للقابليّات الذهنيّة التي يتمتّع بها الأفراد، وإلى هذا أشار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «**إنَّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُكلِّم الناس على قدر عقولهم**»[(٤)].

(١) الشيخ الأميني، الغدير، ج٨، ص٢٥٢.
(٢) الأصبهاني، أخلاق النبيّ، ص ٣٦.
(٣) م.ن، ص٩٢.
(٤) الشيخ الكليني، الكافي، ج١، ص٢٣.



الدرس الثاني عشر

مؤامرات اليهود
وحروب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم معهم (٢)



أهداف الدرس

١- أن يتبيّن الطالب سبب غزوة بني قريظة.

٢- أن يستظهر خلفيّة العلاقة بين اليهود والمنافقين.

٣- أن يُلاحظ نتائج انتصار المسلمين في معركة خيبر.

٤- أن يُدرك فضل أمير المؤمنين عليه السلام في فتح حصن خيبر على يديه.



حروب النبيّ ﷺ ضدّ اليهود(٢):

٣ـ غزوة بني قريظة:

لقد كان بين يهود بني قريظة وبين رسول اللّه ﷺ عهد واتفاق على أن لا يُحاربهم ولا يُحاربوه، ولا يُعينوا عليه أحداً، غير أنّهم نقضوا العهد وتعاونوا مع قريش والمنافقين في معركة الأحزاب ضدّ رسول اللّه ﷺ ودعوته.

وبعد جلاء الأحزاب عن المدينة سمع النبيّ ﷺ بخيانتهم، فأرسل إليهم سعد بن معاذ وعبد اللّه بن رواحة، لتذكيرهم بالعهد والميثاق، فأساؤوا الردّ، وأصرّوا على نقض العهد، فسكت عنهم رسول اللّه ﷺ حتّى هُزمت قريش والأحزاب، وكسب المسلمون معركة الخندق.

وفي نفس اليوم الذي رجع فيه النبيّ ﷺ من ساحات المواجهة في الخندق قرّر الهجوم عليهم حتّى إنه ﷺ أمر من كان معه من المسلمين ألّا يُصلّوا العصر إلّا في بني قريظة، لكسب الوقت، واستثمار الموقف النفسيّ المنهار لدى اليهود وحلفائهم من المشركين والمنافقين، ولكي لا يُعطيهم الفرصة لإعادة ترتيب أوضاعهم وإنشاء علاقات تزيد في قوّتهم.. فأعطى رايته للإمام عليّ عليه السلام وتبعه المسلمون بالرغم ممّا كانوا عليه من التعب والسهر خلال حصار الأحزاب لهم.

طـوَّق المسلمون اليهود في حصونهم وأخـذوا يرمونهم بالحجارة والسهام، ولـم يجـرؤ بنو قريظة علـى أن يخرجوا من حصونهم طوال مـدّة الحصار؛ لأنّ المسلميـن أحاطوا بهم من جميع الجهات، واستمرّ الحصار أيّاماً، وقيل: عشرة أيّام، وقيل: أكثر من ذلك.

وخـلال الحصـار أرسـل ﷺ إليهـم بعض أصحابـه لمواجهتهـم فرجعوا مُنهزميـن، فبعث الإمام عليّاً عليه السلام فكان الفتـح على يديه، فاستسلموا، وطلبوا مـن النبـيّ ﷺ أن يُعاملهم كما عامل بني النضير من قبـل، فأبى عليهم رسول اللّه ﷺ ذلـك، وعرض عليهم أن يختاروا من الأوس ـ وهم حلفاؤهم ـ من شاؤوا ليحكـم فيهم، فاختـاروا **سعد بن معاذ**، ونسوا موقفهم مع سعـد حينما نقضوا العهد، وانضمّوا إلى الأحزاب ولم يستجيبوا إليه عندما حذّرهم من ذلك.

فحكـم سعد فيهم بقتل الرجـال أي المقاتلين منهم فقـط ممن نقض العهد وقاتـل، وسبي النساء والذراري ومصـادرة أموالهم وممتلكاتهم[١]. ولا شكّ في أنّ النبيّ ﷺ كان يرى فيهم هذا الرأي، لأنّه إذا عفا عنهم اليوم فسيُمثّلون معه نفسـ الدور الذي مثّلوه بالأمس حينمـا انضمُّوا لأعدائه وتآمروا سرّاً معهم، فهو ﷺ لم يأمن الغدر والتآمر اليهوديّ ضدّه مرّة أخرى، بل ربّما يشتدّ خطرهم لو تركهم ويستعصي على المسلمين بعد ذلك استئصالهم.

لذلـك أمر رسول اللّه ﷺ بتنفيذ حكم «**سعد**» في حقّ من قاتل منهم، وخرج إلـى سـوق بالمدينة فحفر بها الخنادق وقتل من قاتلـه منهم من الرجال، وأسر النسـاء والأولاد. وقد اختلـف المؤرِّخون في عـدد القتلى والأسـرى منهم، لكنّ الأقـوال في ذلك تتراوح في عـدد القتلى ما بين الثلاثمائة رجـل والألف، بينما بلـغ عدد الأسرى ما بين السبعمائـة وخمسين والألف. وبذلك تخلّص المسلمون

(١) راجع لمزيدٍ من التفاصيل حول هذه الغزوة، بحار الأنوار: ج٢٠، ص٢٣٣ ـ ٢٣٨، وتاريخ الطبري: ج٣، ص٥٣.

مـن أشدّ أعداء الدولـة الداخليّين؛ حيث قضت هذه الغـزوة القضاء التامّ على جماعـات اليهـود في المدينة، الذين كانـوا يُهدِّدون أمنهـا واستقرارها بالتآمر والتجسُّس والإشاعات والتخريب.

وقـد أشار القرآن الكريـم إلى انسحاب جيوش الأحـزاب وغزوة بني قُريظة وانتصـار المسلمين فيها بقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾[١].

٤ ـ معركة خيبر:

كان يهـود خيبر من أقوى الطوائـف اليهوديّة في بلاد الحجاز وأكثرهم عدداً وعُـدَّة وأمنعهـم حصوناً، فخيبر قرية مـن قُرى اليهود المجـاورة للمدينة، تقع على قِمّة جبل، ويُحيطها حصنٌ حجريّ ظنّ أهله أنّه مانعهم من إرادة الحقّ[٢]، وسيوف المجاهدين المؤيَّدين بنصر اللّه سبحانه. ويهود خيبر على عادة اليهود، قد استحكم بهم الغرور، وغرّهم المال والسلاح الذي بأيديهم.

وفـي حصـون خيبـر عشـرة آلاف مقاتل، كانـوا يخرجـون كلّ يـوم صفوفاً يستعرضون قوّتهم، ويسخرون مـن قوّة المسلمين وهم يُردِّدون «**محمّد يغزونا، هيهات! هيهات!**»[٣].

وهذا الاعتداد بالقوّة لم يكن ليخدع يهود خيبر وحدهم، بل كان يهود المدينة الذين يعيشون وسط المسلمين قد انخدعوا به أيضاً، فراحوا يُهدِّدون المسلمين

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٤، ص٣٦٠.

(٣) الواقدي، المغازي، ص ٦٣٧ ـ ٧٠٣، وهيهات اسم فعلٍ ماضٍ بمعنى بَعُدَ.

بتلك القوّة، ويحاولون إظهار التفوُّق العسكريّ لخيبر على المسلمين، وذلك لإشاعة الحرب النفسيّة، وإضعاف الروح المعنويّة للمسلمين.

وكانوا يُردِّدون على مسامع المسلمين: «**ما أمنع والله خيبر منكم، لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها، لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم. حصونٌ شامخات في ذُرى الجبال، إنّ بخيبر لألف دارع، وما كانت «أسد» و«غطفان» يمتنعون من العرب قاطبة إلّا بهم، فأنتم تُطيقون خيبر؟!**»[1].

أمّا الإعلام الإسلاميّ في المدينة فكان يردّ منطلقاً من الثقة بالله، والإصرار على الجهاد والمقاومة: إنّ الله قد وعد نبيّه أن يُغنمه خيبر[2]، ولا خُلف لوعد الله بالنصر.

وفي ظلّ هذه الأجواء راح الرسول ﷺ يصبر ويُصبِّر على كلّ أذى خيبر بسبب ما كانت تُمارسه ضدّ الإسلام والمسلمين.

فمنها: انطلق زعماء اليهود لدعوة القبائل العربيّة وتحزيبها ضدّ المسلمين في غزوة الخندق، وقد بذلوا الأموال في ذلك.

ومنها: خرج حييّ بن أخطب ودفع بني قريظة إلى نقض العهد في اللحظات العصيبة. وقد غدت خيبر بمرور الأيّام ملجأ يأوي إليه اليهود المُبعدون عن المدينة، ينتظرون الفرصة للانتقام من الإسلام، واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جرّدهم النبيّ ﷺ منها.

وقد اتضح هذا في الأيّام القليلة التي أعقبت هزيمة بني قُريظة، إذ بلغت خيبر أنباء هزيمة بني قُريظة فاتّصل بعض اليهود بزعيمهم «**سلام بن مشكم**» وسألوه الرأي فأجابهم: نسير إلى محمّد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد،

(١) راجع: الواقدي، المغازي، ج٢، ص٢٣٧.
(٢) م.ن.

ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب، قد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب.. ثمّ نسير إليه في عقر داره، فقالت اليهود: هذا الرأي[1]. وها هم يُحرِّضون غطفان وغيرها ويعدونهم أن يمنحوهم ثمر خيبر لسنة إن هم تحالفوا معهم ضد الإسلام والمسلمين.

لهذه الأسباب وغيرها عقد الرسول ﷺ العزم على غزوهم في حصونهم ومعاقلهم المنيعة في خيبر، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة، فجمع ﷺ جيشه وتكتّم على مسيره، وخرج من المدينة في ألف وستمائة مقاتل من المسلمين، وأعطى رايته لعليّ عليه السلام، وسلك طُرقاً تحفظ سرِّيَّة تَحرُّكه، فلم يشعر اليهود إلّا وجيش المسلمين قد نزل بساحتهم ليلاً. وكان الرسول ﷺ قد وعده الله بالنصر وأن يردّه إلى المدينة فاتحاً غانماً.

وحين فوجئوا بقوّات المسلمين، تشاوروا فيما بينهم واتفقوا على القتال فأدخلوا نساءهم وأولادهم وأموالهم في بعض الحصون، وأدخلوا ذخائرهم في حصون أُخرى، بينما دخل المقاتلون منهم في حصن عُرف بحصن النطاة أو حصن القموص، والتقى الجمعان حول هذا الحصن، ودار قتال شديد بينهما حتّى جُرح عدد كبير من المسلمين.

وكان الهجوم على الحصن قد بدأ بإرسال النبيّ ﷺ سَرِيَّة من المسلمين بقيادة أبي بكر، غير أنّه لم يستطع أن يفتح ثغرة في تحصينات العدوّ، بل عاد إلى رسول الله ﷺ منهزماً، ثمّ أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطّاب لمعاودة الكرّة، فرجع منهزماً يُجبِّن أصحابه ويُجبِّنونه، فلمّا رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: «**لأُعطينَّ الراية غداً رجلاً يُحبُّ اللهَ ورسولَه ويُحبُّه اللهُ ورسولُه، يفتح الله على يديه،**

(١) م.س.المغازي، ج٢، ص٥٣٠ ـ ٥٣١.

كـرّاراً غير فـرّار»[1]، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمام عليّاً عليه السلام، وهو أرمد، فتفل في عينيه، ثمّ قال: «**خذ هذه الراية، فامض بها حتّى يفتح الله عليك**».

فخرج الإمام عليّ عليه السلام ومعه المقاتلون المسلمون فدار قتال بينهم وبين اليهود على أبواب الحصن، وقتل الإمام عليّ عليه السلام «**مرحباً**» وهو من أبطال اليهود وصناديدهم بعدما كان قد قَتل أخاه الحارث وأكثر من ستّة من فرسان اليهود على باب الحصن، فاستولى الخوف على اليهود والتجأوا إلى الحصن وأغلقوا بابه، وكان من أمنع الحصون وأشدّها وقد حفروا حوله خندقاً يتعذّر على المسلمين اجتيازه، فاقتلع الإمام عليّ عليه السلام باب الحصن، وجعله جسراً فعبر عليه المسلمون، واستبسلوا بقيادة الإمام عليّ عليه السلام فهاجموا بقيّة الحصون وتغلّبوا على من فيها حتّى انتهوا إلى حصني الوطيح والسلالم، وكانا آخر حصونهم المنيعة وفيهما النساء والذراري والأموال.

ولمّا شعر اليهود بأنّه أُسقط ما في أيديهم، وأنّ المسلمين سيأسرونهم ويقتلونهم إن هم أصرّوا على موقفهم، استسلموا وطلبوا العفو من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأجابهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك بعد أن استولى على أموالهم، وتمّ الاتفاق بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على أن تبقى الأرض في أيديهم يعملون فيها بنصف الناتج والنصف الآخر للمسلمين.

وبعد فتح خيبر رجع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**والله ما أدري بأيِّهما أنا أشدُّ سروراً: بقدوم جعفر، أو بفتح خيبر؟**»[2].

إنّ انتصار المسلمين الساحق في خيبر يعود إلى العوامل التالية:

١ ـ التخطيط العسكريّ والتكتيك الحربيّ الدقيق.

---

(١) انظر، تاريخ الطبري، ج٢، ص٣٠٠.

(٢) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، ج٨، ص٥٠.

٢ ـ تحصيل المعلومات الدقيقة عن تمركز العدوّ داخل الحصون.

٣ ـ تفاني الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وشجاعته وبطولته النادرة، والتسديد الإلهيّ الذي مكّنه من قتل أبطال اليهود وفرسانهم، وقلع باب خيبر وفتح الحصن على يديه[١].

٥ ـ يهود فدك:

لمّا سمع يهود فدك ـ القرية اليهوديّة المجاورة لخيبر ـ بما حلَّ برفاقهم في خيبر بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة أراضيهم، فوافق صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك وصالحهم على نصف ناتج الأرض، فكانت خيبر مُلكاً للمسلمين لأنّهم استولوا عليها بالحرب، وفدك للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خاصّة لأنّه تملَّكها بالصلح، وقد وهبها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام في حياته، وسلّمها إيّاها وجعلت عُمّالها فيها، وصارت هي المُشرِفة على أعمالها وعلى ناتجها. وكانت تصرف ناتجها على فقراء بني هاشم وحسبما تشاء.

فقد جاء في الدرّ المنثور للسيوطيّ عن أبي سعيد الخدريّ أنّه قال: لمّا نزلت الآية ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة عليها السلام وأعطاها فدكاً، كما روى ذلك جماعة عن ابن عبّاس[٢].

وجاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن أبي سعيد الخدريّ: أنّه صلى الله عليه وآله وسلم وهبها لفاطمة عليها السلام، ولمّا انتهت الخلافة لأبي بكر كان أوّل ما قام به أن انتزعها من يدها، بحجّة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على حدّ زعمه قال: نحن معاشر الأنبياء لا نُورِّث ما تركناه صدقة، وأصرّ على انتزاعها من يدها بالرغم من أنّها طالبت بها وأقامت البيّنة على مُلكيّتها لها.

---

(١) راجع عوامل الانتصار في كتاب سيد المرسلين، ج٢، ص٤٠٥ ـ ٤٠٨.

(٢) انظر، فضائل الخمسة، ج٣، ص١٣٦.

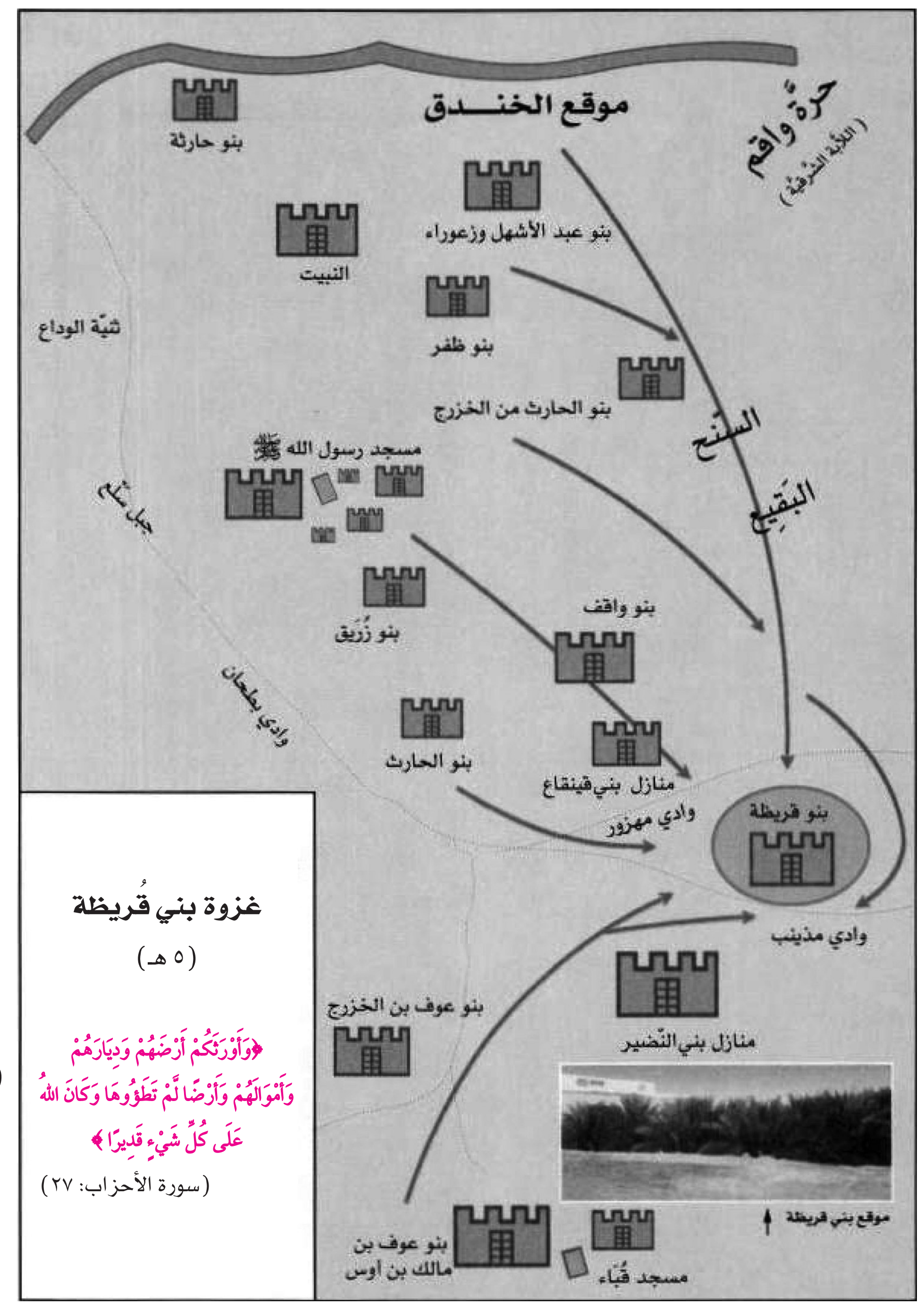
٦ ـ يهود وادي القرى وتيماء:

أمّا وادي القرى التي كان أهلها من اليهود الحربيّين الذين تآمروا على الإسلام والمسلمين، فقد توجّه إليها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وفرض الحصار عليها، ودعا أهلها إلى الإسلام، وأخبرهم أنّهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، ولكنّهم أبَوا وأصرّوا على القتال، وجرت بين الطرفين مناوشات محدودة، والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يعرض عليهم الإسلام وهم يأبون، ما دفعه إلى تشديد الحصار عليهم حيث تمكّن من فتح بلدهم عنوة، وبقي هناك أربعة أيّام قسّم خلالها الغنائم على أصحابه، وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها.

ولمّا بلغت يهود تيماء أنباء الانتصارات الإسلاميّة، صالحوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الجزية وأقاموا في بلدهم[١].

وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة تمّ تصفية آخر تجمُّع يهوديّ لعب دوره في مواجهة الإسلام ووضع العوائق في طريقه، وحبك المؤامرات ضدّه، وقُضي قضاءً تامّاً على القوّة السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة ليهود الحجاز، وغدت كلمة الإسلام وحدها هي العُليا في معظم مساحات الجزيرة العربيّة.

(١) راجع، المغازي للواقدي، ج٢، ص٧٠٩ـ٧١١، والفتوح للبلاذري، ج١، ص٣٩ـ٤٠، والتنبيه والاشراف للمسعودي، ص٢٢٤ـ٢٢٥.



غزوة بني قُريظة

(٥ هـ)

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

(سورة الأحزاب: ٢٧)



خلاصة



واصــل النبيّ ﷺ حروبه ضدّ اليهود واستطاع الانتصار عليهم في غزوة بني قُريظة، وفي معركة خيبر، وفي فدك وغير ذلك.

اختــار بنــو قُريظة حُكــم سعد بن معــاذ، ففوجئــوا بحكمه القاضــي بسبي نسائهــم وذراريهــم ومصــادرة أموالهم وممتلكاتهــم، وتبنّــى النبيّ ﷺ هذا الــرأي.

تــوّج النبــيّ ﷺ انتصاراتــه على اليهود فــي معركة خيبر، فبعــد حصارهم الطويــل أرســل النبيّ ﷺ عــدداً من أصحابــه لفتح ثغرة فــي تحصيناتهم فلم يوفّقــوا، فأعطى الرايــة للإمام علــيّ عليه السلام الذي كتب الله تعالــى النصر على يديه، وقتل زعيمهم «**مرحباً**» وهو من أبطال اليهود.

استكمل الرسول الأعظم ﷺ عمليّة القضاء على اليهود باستيلائه على قرية فدك اليهوديّة، التي صالحوا الرسول ﷺ عليها، وبحصاره لهم في وادي القرى وتيماء حيث استسلموا ورضخوا فيما بعد.



نماذج من آداب معاشرته صلى الله عليه وآله وسلم للناس:

امتاز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخُلق انسانيّ رفيع وسلوك اجتماعيّ مميّز مع الناس، على اختلاف شرائحهم وانتماءاتهم، ما جعله يمتلك عقول وقلوب الناس ويكسب محبّتهم ويجذبهم إلى طريق الله.

ونستعرض نماذج من خُلُقه الاجتماعيّ وآداب معاشرته للناس، حسبما ورد في الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام؛ الذين هم أعرف الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلوكه الفرديّ والاجتماعيّ:

❖ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طَلقَ الوجه دائم البِشر، يواجه الناس بالابتسامة، ويُحسن لقاءهم، ويعاملهم بالرفق واللين والرحمة، ولم يكن يبدو على وجهه العبوس أو الحزن أو الانقباض، بل كان بشوشاً ويُخفي أحزانه وآلامه.

فقد روى الإمام الحسن عليه السلام، عن أبيه عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دائم البِشر، سهل الخُلق، ليّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب . من الصخب وهو شدّة الصوت . ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح**»[١].

وكان يُخاطب قومه ويقول: «**يا بني عبد المطّلب إنّكم لن تَسعُوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحُسن البِشر**»[٢].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**كان أجود الناس كفّاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمّة، وألينهم عريكة،**

---

(١) الطباطبائي، سنن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ص ١٠٤.

(٢) الكليني، الكافي، ج٢، ص١٠٣.

وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة (لأوّل مرة) هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه، لم أرَ مثله قبله ولا بعده»[1].

❖ وكان صلى الله عليه وآله وسلم شديد المدارة للناس وأرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس، حتّى لقد روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**أمرني ربّي بمداراة الناس كما أمرني بالفرائض**»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أعقل الناس أشدّهم مداراة للناس، وأذلّ الناس من أهان الناس**»[3].

❖ وكان صلى الله عليه وآله وسلم أبعد الناس عن التعالي على مجتمعه أو تمييز نفسه عن أفراده، فقد كان يعيش مع الناس كواحد منهم لا يختلف عنهم في شيء، ويكره أن يتميّز عنهم، ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يجلس بين ظهراني أصحابه، فيأتي الغريب ولا يدري أيّهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى يسأل عنه.

❖ وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتفقّد أحوال الناس، ويسأل الناس عمّا في الناس، ليطّلع على أوضاعهم.

بل لقد روي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيّام سأل عنه: فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده.

❖ ومن مصاديق رِفْقه بالأُمَّة، ومعاملته لها بالحسنى: ما رواه يونس الشيباني قال: قال أبو عبد الله - الصادق - عليه السلام: كيف مداعبة بعضكم بعضاً؟

قلت: قليل.

قال عليه السلام: «**فلا**[4] **تفعلوا؟ فإنّ المداعبة من حسن الخلق، وإنّك لتُدخِل**

(١) سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ص١١٢.
(٢) الكليني، الكافي، ج٢، ص١١٧.
(٣) الشهيد الأوّل، الأربعون حديثاً، ص ٥٦.
(٤) وفي حديث آخر هلّا تفعلوا.

بها السرور على أخيك، ولقد كان رسول الله ﷺ يُداعب الرجل يُريد أن يسرّه»[1].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: «**كان رسول الله ﷺ ليُسرّ الرجل من أصحابه إذا رآه مغموماً بالمداعبة**»[2].

❖ وكان ﷺ يُفشي السلام بين الناس، فيُسلّم حتّى على الصغير منهم.

❖ وكان ﷺ يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم، ويُكنّي من لم يكن له كنية، فكان يُدعى بما كنّاه، ويكنّي أيضاً النساء اللاتي لهنّ أولاد، واللاتي لم يلدن، ويكنّي الصبيان فيستلين به قلوبهم.

❖ وكان ﷺ لا يأتيه أحد حرّ أو عبد أو أمَة إلّا قام معه في حاجته.

وعن الإمام عليّ عليه السلام: «**ما فاوضه أحدٌ قطّ في حاجة أو حديث فانصرف حتّى يكون الرجل هو الذي ينصرف، وما نازعه الحديث أحد حتّى يكون هو الذي يسكت**»[3].

❖ وكان يُكرم من يدخل عليه حتّى ربما بسط له ثوبه، ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته.

❖ وكان ﷺ لا يذمّ أحداً، ولا يُعيّر أحداً، ولا يُكلّم أحداً بشيء يكرهه، بل كان شديد الحياء حتّى لقد ورد أنّه ﷺ كان إذا أراد لوم أحد أو عتابه، يُعاتبه بكلّ حياء وخجل.

❖ ورُوي أنّ رسول الله ﷺ كان لا يدع أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتّى يحمله معه، فإن أبى قال ﷺ: «**تقدّم أمامي وأدركني في المكان الذي تُريد**»[4].

---

(١) الكليني، الكافي، ج٢، ص٦٦٣.

(٢) الطبطبائي، سنن النبي ﷺ، ص١٢٨.

(٣) م.ن.، ص ١١٩.

(٤) م.ن، ص١٢٢.





الدرس الثالث عشر

المواجهة بين الإسلام والجبهة البيزنطيّة - النصرانيّة



أهداف الدرس

١- أن يُلاحظ الطالب طبيعة المواجهة بين الإسلام والجبهة البيزنطيّة.

٢- أن يتأسّى بالصحابة المؤمنين الذين تجلّت تضحياتهم في معركة مؤتة.

٣- أن يطّلع إلى أحداث غزوة تبوك، ومحاولة اغتيال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

٤- أن يستفيد من نتائج ودروس معركة تبوك على الصعيدين التربويّ والعسكريّ.



تمهيد

لقد وقف النصارى بالإجمال من الدعوة الإسلاميّة منذ البدء موقف العطف والتأييد أحياناً. وظلُّوا كذلك إلى آخر العهد المكّي، ولم يقع بينهم وبين النبيّ ﷺ احتكاك وعداء كما وقع مع اليهود في المدينة[١].

لكنّ هذا لم يمنع الكثرة من النصارى العرب من أن تلعب دورها في العصر المدنيّ بمواجهة الإسلام، وتتّخذ المواقف العدائيّة ضدّه، على شتّى المستويات بدفعٍ من الدولة البيزنطيّة الرومانيّة.

ففي العصر المدنيّ تمكّن الإسلام من بناء دولته - التي تتجاوز في سياساتها وعلاقاتها الحدود الاقليميّة والقوميّة - التي وصلت إلى حدود الدولة البيزنطيّة وحلفائها العرب في الشمال، وهم جميعاً محسوبون على المعسكر النصرانيّ.

وبمرور الوقت واتساع نفوذ الإسلام شمالاً، ووصول أنباء انتصاراته على الوثنيّة واليهوديّة إلى قبائل الشمال.. بدأ المعسكر البيزنطيّ وحلفاؤه يشعر

(١) روي أنّ قيصر الروم كان يميل إلى اعتناق الإسلام بعد المعلومات التي توفّرت لديه عن نبوّة محمّد ﷺ. ولمّا أعلن عن هذه الرغبة واجه معارضة حادّة من الأهالي (وكانوا على الدين المسيحيّ) ومن جيش الروم، فتراجع عمّا كان قد عزم عليه. وهذا الموقف يُشير إلى أنّ أمراء الروم وقادتهم الآخرين لهم مواقف مناهضة للإسلام.

بالخوف والخطر ويقوم ببعض التصرُّفات المُعادية للإسلام والمسلمين، فبدأ مسلسل الصراع المُسلَّح بين المسلمين والنصارى. وكانت أبرز المعارك على هذا الصعيد: معركة مؤتة ومعركة تبوك.

معركة مؤتة:

كان الدافع لهذه المعركة هو الانتقام لحادثة مقتل الحارث بن عمير الأزديّ مبعوث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى ملك بُصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغسّانيّ - عامل هرَقل - في مؤتة. فقد كان لهذه الحادثة وقع شديد على المسلمين، وكان لا بُدَّ للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من أن يتّخذ موقفاً حاسماً إزاء المعتدي بعد هذا الموقف الغادر.

فجهّز النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة جعفر بن أبي طالب (رضوان الله عليه)، وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، وأمرهم بالانطلاق صوب الشمال، لتأديب القوى المعادية على فعلتها، وإشعارها بقوّة الدولة الإسلاميّة وقدرتها على ردع الغادرين والمعتدين الذين يجدون في الحماية البيزنطيّة سبباً يدفعهم إلى الجرأة والعدوان.

وتُشير الشواهد الصحيحة إلى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم جعل القيادة لجعفر بن أبي طالب، ومن بعده لزيد بن حارثة، ومن بعدهما لعبد الله بن رواحة، وترك للجيش أن يختار لقيادته من يراه صالحاً إذا أُصيب الثلاثة.

أعدَّ هرقل بعدما سمع نبأ التحرُّك الإسلاميّ جيشاً كثيفاً قوامه مئة ألف مقاتل وعسكر في «**مآب**» من أرض البلقاء.

ولمّا وصل المسلمون إلى منطقة معان جنوبيّ الأردن بَلَغَتْهُم أخبار تلك الحشود.. فأقاموا ليلتين يتداولون الرأي بينهم وقال بعضهم: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنُخبِره بعدد عدوّنا، فإمّا أن يمدّنا بالرجال وإمّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له، وكاد هذا الرأي أن يتغلّب لولا التربية الإيمانيّة والمعنويّة التي كان

لهـا دورها في صنـع القرار وتحديد الموقف في اللحظـات الحرجة، حيث وقف عبـد الله بن رواحة وقـال بكلّ إيمان وقـوّة وشجاعة: «**يا قـوم، والله.. ما نقاتل الناس بعـدد ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنّما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإمّا شهادة**»[1].

فـكان لهذه الكلمـات أثرها الطيّـب على تلـك النفوس المؤمنـة المجاهدة، فصمّموا على المُضي والقتال مهما كانت النتائج.

غـادر المسلمون معسكرهم في «**مَعان**» وانطلقوا شمـالاً حتّى إذا بلغوا تخوم «**البلقـاء**» لَقيَتْهُـم جموع الـروم وحلفاؤهم العرب في قريـة تُدعى مؤتة، وهناك دارت معركةٌ طاحنة بين الطرفين، استُشهد خلالها القادة الثلاثة على التوالي، فقرّر خالد بن الوليد الذي تولّى قيادة الجيش الانسحاب والعودة إلى المدينة.

غزوة تبوك[2]:

بعـد عودة الرسول الأعظمﷺ إلى المدينة المنوّرة في أواخر السنة الثامنة للهجـرة، فـي أعقاب دخول مكّـة وانتصاره فـي حُنين، بلغته أنبـاء خطيرة عن تحـرُّكات عسكريّـة خطيرة يعتـزم الروم وحلفاؤهـم العرب، مـن لخم وجذام وغسـان، القيـام بهـا ضدّ الإسـلام والمسلمين. وقـد قامت هـذه القبائل فعلاً بإرسال طلائعها إلى البلقاء، فقرّر النبيّﷺ أن يتصدّى لهم.

وفي معظم الغزوات كان النبيّﷺ لا يُحدِّد هدفه العسكريّ زيادة في الكتمان والسرِّيَّـة، بل إنّه كان يُعلن عن أهداف غير تلك التي يقصدها لتضليل الأعداء، أمّا في غزوة تبوك فقد بيَّن النبيّﷺ الهدف للناس «**لبُعد الشقّة وكثرة العدو، ليتأهّب الناس لذلك أهبَّته**».

---

(١) للتفصيل، راجع بحار الأنوار، ج ٢١، ص٥٠ـ ٦٣.

(٢) حصلت غزوة تبوك في رجب سنة (٩) من الهجرة.

فأرسل إلى القبائل المُسلِمة في مختلف المناطق يُعلِمهم بما عزم عليه ويستنهضهم للجهاد معه، فأجابوا دعوته إلّا المنافقين، فإنّهم راحوا يختلقون الأعذار الواهية حتّى لا يخرجوا لقتال الروم. وقد حكى القرآن عنهم ذلك فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[١].

ثمّ تمادى المنافقون في موقفهم، فلم يكتفوا بتخلّفهم عن الجهاد، بل راحوا يُثبِّطون الناس عنه ويُحرِّضون على التخلُّف والتخاذل، وقد اجتمعوا لهذه الغاية في بيت أحد اليهود، فعلم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بهم، فحرق عليهم الدار وكانوا عبرةً لغيرهم.

استكمل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تجهيز المسلمين وولّى الإمام عليّاً عليه السلام إدارة المدينة، وقال له: «**أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي؟**»[٢]. ثمّ ما لبث أن انطلق صلى الله عليه وآله وسلم في رجب من السنة التاسعة بأكبر جيش عرفه تاريخ الدعوة إلى ذلك الحين، قيل إنّه بلغ ثلاثين ألفاً، تصحبه عشرة آلاف فرس.

بدأ المسلمون مسيرتهم التي قطعوا فيها آلاف الأميال، وعانوا آلام العطش والجوع والحرّ وقلّة وسائل الركوب وبُعد الطريق.. حتّى انتهى بهم المطاف إلى تبوك في أقصى الشمال. ويبدو أنّ الروم وحلفاءهم سمعوا بأنباء هذا الجيش الكبير، وقدرته على اجتياز المصاعب، وإصراره على جهاد الأعداء، وقدّروا أنّه لو انتصر في هذه المعركة فسوف لا يقف عند حدّ، وبالتالي قد تتعرّض مواقعهم للخطر، فآثروا الانسحاب إلى الداخل، عبر أراضي الأردن وفلسطين، وربما كانوا يهدفون من ذلك - في الوقت نفسه - إلى جرِّ المسلمين إلى الداخل والانقضاض عليهم هناك. إلّا أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يُتِح لهم تحقيق هدفهم هذا،

(١) سورة التوبة، الآية: ٨١.

(٢) وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً في هذا الموقف: «**يا عليّ إنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك**»، المفيد، الإرشاد: ج١، ص١١٥.

وقـرّر عدم التوغُّـل إلى الداخل، وعسكر فـي تبوك جاعلاً إيّاهـا آخر نقطة في توغُّله شمالاً.

بقي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في تبوك حوالي عشرين يوماً يُراقب تحرُّكات الروم من دون أن يُقاتـل أحداً. وأخذ يتّصل في الوقت نفسـه بزعماء القبائل النصرانيّة المنتشرة في المنطقة المُتاخمة للحـدود، وعقد مع بعضهم معاهدات صلح وتعاون، فقطع بذلك ولاءهم للدولة البيزنطيّة وحوّلهم إلى مواطنين أو حلفاء للدولة الإسلاميّة، وهو الهدف الذي كان يسعى إلى تحقيقه منذ بدء صراعه مع الروم.

محاولة اغتيال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

من الأحداث المُهمَّة التي وقعت مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خلال عودته من تبوك محاولة اغتيالـه، فقد ذكـرت المصادر التاريخيّة أنّه حين وصـل الجيش الإسلاميّ إلى العقبـة (بين المدينة والشام) قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فإنّه أوسع لكم**» فأخذ الناس بطن الوادي وسلك هـو طريق العقبة، وكان يقود ناقته عمّار بن ياسر ويسوقها حذيفة بن اليمان، فرأى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في ضوء القمر فرسانـاً قد تلثّموا ولحقوا به من ورائه فـي حركة مُريبة فغضب صلى الله عليه وآله وسلم وصاح بهم وأمـر حذيفة أن يضرب وجوه رواحلهم؛ فتملّكهم الرعب وعرفوا بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قـد علم بمـا أضمرته نفوسهم بمؤامرتهـم، فأسرعوا تاركيـن العقبة ليُخالطوا الناس ولا تنكشف هويّتهم.

وطلـب حذيفة من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يبعـث إليهم من يقتلهم بعدما عرفهم من رواحلهم، ولكنّ رسول الرحمة عفا عنهم وأوكل أمرهم إلى الله تعالى[1].

(١) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٢١، ص٢٤٧.

نتائج تبوك وملامح الانتصار:

بعـد عشرين ليلة قضاها النبيّ ﷺ وقوّاته في تبوك، قفل عائداً إلى المدينة بعـد أن حقّق بحركته الصعبة تلـك انتصاراً على الجبهة النصرانيّة البيزنطيّة، لا يقلّ أهميّة عن انتصاراته الحاسمة على جبهات الوثنيّة واليهوديّة، وهذه أبرز ملامح الانتصار:

١ ـ فقـد كسب النبـيّ ﷺ عدداً مـن القبائل القاطنة في جنـوب الشام على الحدود إلى جانب الدولة الإسلاميّة، وقطع علاقاتها بالروم، وحصل منها علـى عهد بأنْ لا تتعاون مع أحد عليه، ولا تتّخذ من بلدانها مركزاً للعدوان على الحجاز، وبذلك ضمن النبيّ ﷺ أمن المسلمين وحدود دولتهم.

٢ ـ والانتصـار الأهمّ هـو أنّ استجابـة الرسول ﷺ لتحدّي الـروم، وتقدّمه لقتالهـم وانسحابهم من طريقه وانتظاره إيّاهـم قرابة عشرين يوماً دون أن يُحرِّكـوا ساكناً، جاء ضربـة قاسية للسيادة البيزنطيّة في بلاد الشام، وإضعافاً لمركزها وهيمنتها على القبائل التي تعيش هناك، وكسراً لجدار الخوف من القوّة البيزنطيّة، وهو انتصار نفسيّ حاسم مكّن أهالي البلاد، بعـد سنين قليلة، من تجاوز ولائهم القديم والانطلاق لضرب البيزنطيّين وإلحاق الهزائم بهم وطردهم إلى بلادهم التي جاؤوا منها.

٣ ـ صعود سُمعة المسلمين ومكانتهم وهيبتهم داخل الحجاز وخارجها؛ بحيث إنّ القبائـل - التي شعرت بمدى قوّة الدولة الجديدة وامتداد نفوذها حتّى إلـى قلب الديار التي كان أهلها يعملون لصالـح الروم - بادرت إلى حسم خيارهـا وأخذت تتهافت علـى الرسول في المدينة بعـد رجوعه من تبوك خاضعة مذعنة معلنة إسلامها وتأييدها، حتّى سُمّي ذلك العام (التاسع) بعام الوفود.

٤ـ إنّ غــزوة تبوك تُمثّل خطوة من خطــوات حركة المسلمين باتجاه الخارج، وتخطّيــاً لنطــاق العرب وجزيرتهــم إلى العالــم، وبــادرة مُتقدِّمة مهّدت الطريق لحركــة الفتوحات الإسلاميّة التي شهدتها العصور التالية لعصر النبيّ ﷺ.

مواقف ودروس من غزوة تبوك:

١ـ ميّــزت غزوة تبــوك مرّة أخــرى المُنتمين إلى معسكــر الإسلام، فكشفت المنافقيــن الذيــن تَخلَّفــوا عــن الجهــاد لأعــذار واهيــة ومحّصتهم عن المؤمنيــن المجاهدين الذين سارعــوا للانخراط في الجيشــ الإسلاميّ رغبة في الجهاد وعشقاً للشهادة.

وقــد ذكر المفسِّرون أنّ عدداً من آيــات سورة التوبة[1] نزلت بمناسبة تبوك، مقَارِنَةً بين موقف المنافقين وموقف المؤمنين من الجهاد، وفاضحةً المنافقين وأساليبهــم، مُحذِّرةً من مكرهــم ومؤامراتهم، مشدِّدةً على عدم التساهل معهم أو الاستعانة بهم أو قبول أعذارهم.

٢ـ فــي الوقت الذي تخلّــف فيه بعضٌ عن الجهاد في تبوك، مُلتمسين الأعذار الواهيــة، كان بعضٌ مــن الفقــراء المجاهدين تفيض أعينهــم من الدمع لأنّهــم لم يتمكّنوا من الخروج إلــى الجهاد، بسبب عدم امتلاكهم لمؤونته وإمكاناته.

وقــد ورد أنّ سبعــة من فقراء المسلمين جــاؤوا إلى النبــيّ ﷺ وتوسّلوا إليه أن يُهيّــىء لهــم ما يُمكِّنهم مــن الخروج معه شوقــاً إلى الجهاد فــي سبيل اللّه، فأجابهــم: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولّوا عنــه وأعينهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً لحرمانهم من شرف المشاركة، وأنزل اللّه بهذه المناسبة قوله تعالى:

---

(١) راجع سورة التوبة، الآيات: ٨١ـ٩٦.

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[1].

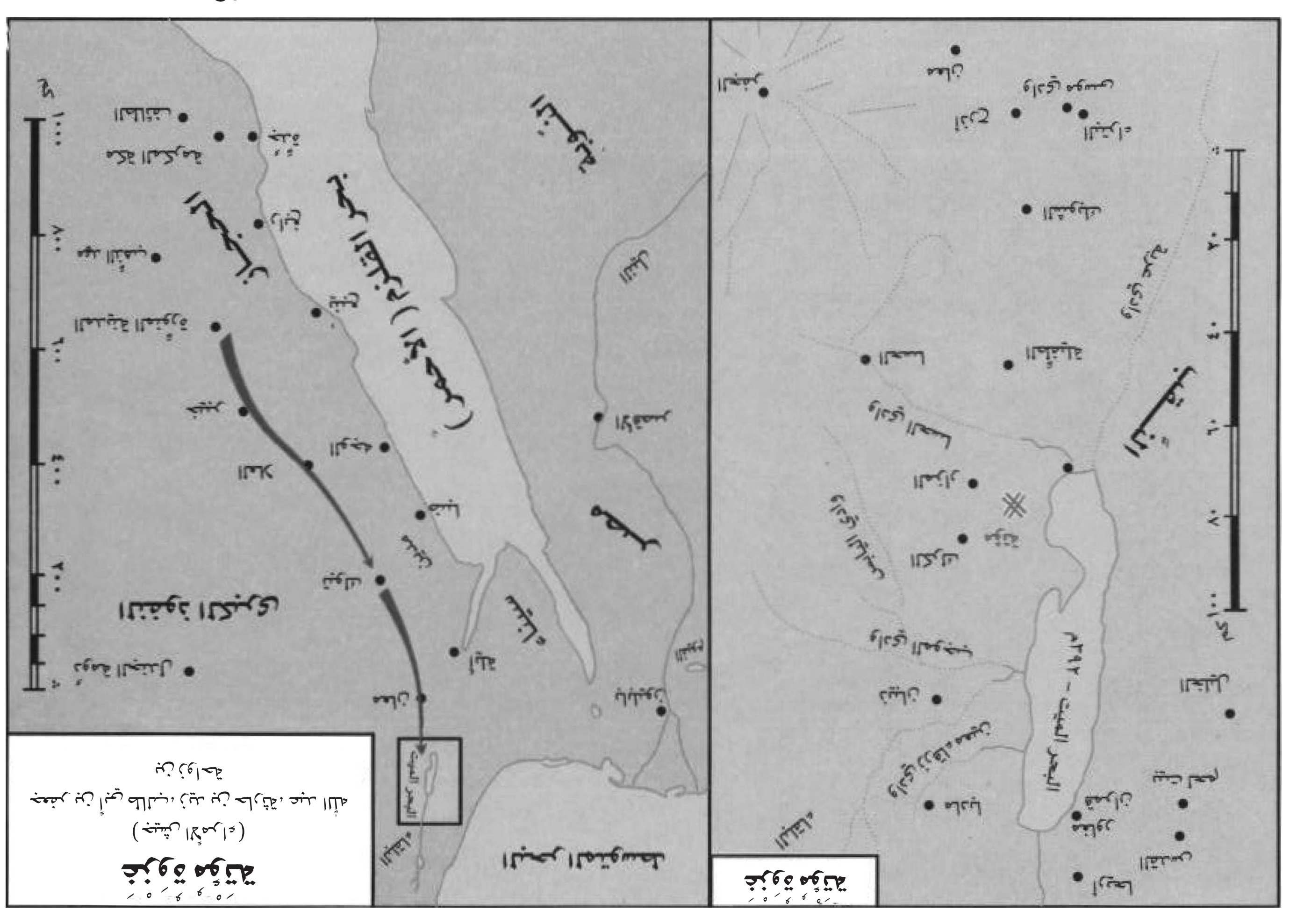
٣ ـ شارك المسلمون الأغنياء في تجهيز الجيش الإسلاميّ والإنفاق عليه حتّى «**أنّ الرجل كان يأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول: هذا البعير بينكما تتعاقبانه، ويأتي الرجل بالنفقة فيُعطيها بعض من يخرج**»، بل ورد أيضاً أنّ النساء ساهمنَ بحليّهنَّ في تبوك وشاركنَ الرجال في النفقة، حيث اشتركنَ بكلّ ما قدرنَ عليه من مسك، وأسورة ومعاضد، وخلاخيل، وقراط، وخواتيم[2].

٤ ـ إنّ اختيار الإمام عليّ عليه السلام بالذات ليكون مكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة يُدير شؤونها في غيابه، كان إجراءاً ضروريّاً يستهدف حماية المدينة وحفظ كيانها من المنافقين والأعراب الذين تخلّفوا عن تبوك بأعداد كبيرة، وكان من المُحتمل أن يستفيدوا من فرصة غياب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للانقضاض على المدينة والعبث بأمنها، فكانت الدولة بحاجة إلى شخصيّة مرهوبة الجانب تملك كفاءة القيادة والولاية، ولا تحسب لأحد حساباً مهما بلغ من القوّة والمكانة، وتقف سدّاً منيعاً في وجه كلّ من يُحاول التآمر أو العبث بأمن الدولة وكيانها، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يعلم بأنّه لا يصلح لمهمّة كهذه غير الإمام عليّ عليه السلام، وقد قال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على ما جاء في مستدرك الصحيحين: «**إنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك**»[3].

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٩١ ـ ٩٢.

(٢) راجع، الواقدي، المغازي، ج٣، ص٩٩١.

(٣) راجع، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج٢، ص٣٣٧.


غزوة مؤتة
(جيش الأمراء)
جعفر بن أبي طالب، زيد بن حارثة، عبد الله بن رواحة
البحر المتوسط
بابليون
الفيوم
النيل
الأقصر
مصر
سيناء
أيلة
البحر الميت
البلقاء
معان
تبوك
الوجه
ينبع
رابغ
جدة
مكة المكرمة
الطائف
مهد الذهب
المدينة المنورة
خيبر
العلا
النفود الكبرى
دومة الجندل
البحر الأحمر
الحجاز
كلم
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠
١٠٠٠
غزوة مؤتة
أريحا
القدس
بيت لحم
الخليل
مغاور
قمران
البحر الميت - ٣٩٢م
مادبا
وادي زرقاء معين
ذيبان
وادي الموجب
الكرك
مؤتة
المزار
وادي الحسا
الحسا
الطفيلة
الشوبك
البتراء
وادي موسى
أذرح
معان
الجفر
وادي عربة
النقب
البلقاء



خلاصة

لم تكن عداوة النصارى للمسلمين كعداوة اليهود، إلّا بدفع من الدولة البيزنطيّة الرومانيّة، بعد شعورهم بالخوف والخطر، نتيجة للانتصارات التي حقّقها الإسلام، فكانت أبرز المعارك: مؤتة وتبوك.

وكان الدافع لمعركة مؤتة الانتقام لمقتل مبعوث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى عامل هرقل، حيث أرسل صلى الله عليه وآله وسلم سريّة وجعل القيادة فيها لجعفر بن أبي طالب، وكان حشد النصارى كثيفاً مقارنة بالمسلمين، ولكنّهم صمّموا على القتال حتّى استشهد القادة الذين عيّنهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فأمر خالد بن الوليد بالانسحاب.

ثمّ بعد أن بلغ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنباء عن تحرّكات خطيرة للجبهة البيزنطيّة، قرّر صلى الله عليه وآله وسلم التصدّي لها واستنهض كلّ القبائل المسلمة، إلّا أنّ المنافقين قاموا بتثبيط الناس، فعاقبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ ولّى عليّا عليه السلام على المدينة، وخرج مع المسلمين، ولمّا وصل إلى تبوك واستقرّ فيها، آثر الروم الانسحاب بدل المواجهة، وبعد عودة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من تبوك تعرّض لمحاولة اغتيال في العقبة باءت بالفشل، نتيجة علم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وانفضاح المتآمرين.

وقد شكّلت تبوك انتصارا على الجبهة البيزنطيّة وكان له نتائج عدّة أبرزها:

كسب عدد من قبائل جنوب الشام، كسر جدار الخوف من الروم، صعود سمعة المسلمين ومكانتهم، تمهيد الطريق للفتوحات الإسلاميّة، تمايز المجاهدين عن المنافقين، مشاركة المسلمين الأغنياء في تجهيز الجيش الإسلاميّ واختيار الإمام عليّ عليه السلام كخليفة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة.





صفة مجلس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

عن الإمام الحسين عليه السلام قال: سألت أبي عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عليه السلام:

«**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يجلس ولا يقوم إلّا على ذكر الله جلّ اسمه، ولا يوطن الأماكن، وينهى عن إيطانها**» (أي لا يتّخذ لنفسه مجلساً خاصّاً يتميّز به)، «**وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يُعطي كُلّاً من جلسائه نصيبه، حتّى لا يحسب جليسه أنّ أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجة، صابره حتّى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردّه إلّا بها أو ميسور من القول، قد وسع الناس منه بسطه وخلقه، فكان لهم أباً، وصاروا عنده في الحقّ سواء**»[1].

مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، ولا تُرفع فيه الأصوات، ولا يُوهن فيه الحُرَم، ولا تُثنى فلتاته (أي لا تظهر هفواته)، متعادلون متفاضلون فيه بالتقوى، متواضعون، يوقّرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب..

وأمّا سيرته مع جلسائه، فيقول الحسين عليه السلام نقلاً عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دائم البشْر، سهل الخُلُق، ليّن الجانب، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب**» (من الصخب وهو شدة الصوت) «**ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي، فلا يؤيس منه ولا يخيب فيه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وممّا لا يعنيه. وترك**

(١) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص ٢٨٤.

الناس من ثلاث: كان لا يذمّ أحداً ولا يُعيّره، ولا يطلب عورته» (عيوبه) «ولا يتكلّم إلّا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلّم أطرق جُلساؤه كأنّ على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلّموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، متى تكلّم أنصتوا له حتّى يفرغ، حديثهم عنده حديث أوّلهم، يضحك ممّا يضحكون منه، ويتعجّب ممّا يتعجّبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتّى إن كان أصحابه ليستجلبونه، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الثناء إلّا عن مكافيء، ولا يقطع على أحد حديثه، حتّى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام»[1].

وفي مشاركته صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي كان يدور في المجلس، يقول زيد بن ثابت: كنّا إذا جلسنا إليه صلى الله عليه وآله وسلم، إن أخذنا بحديث في ذكر الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا[2].

وفي سموّ أخلاقه مع جلسائه أيضاً، ما أشار اليه الإمام الصادق عليه السلام في حديث له: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُقسّم لحظاته** (نظراته) **بين أصحابه فينظر إلى ذا، وينظر إلى ذا بالسويّة، ولم يبسط** (يمدّ) **رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجليه بين أصحابه، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده من يده حتّى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده**»[3].

(١) الأصبهاني، أخلاق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ص ١٧.
(٢) الكليني، الكافي، ج٢ ص ٦٧١.
(٣) الطبرسي، مكارم الأخلاق، ص ١٤.



الدرس الرابع عشر

البراءة من المشركين ومواجهة المنافقين



أهداف الدرس

١- أن يتعرّف الطالب إلى أسباب البراءة من المشركين.

٢- أن يُعدِّد ما تضمّنته آيات سورة البراءة.

٣- أن يُحيط علماً بواقعة المباهلة مع نصارى نجران.

٤- أن يذكر أساليب المنافقين العدائيّة.

٥- أن يُحدِّد مواقف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من حركة النفاق.



عام الوفود وتصفية الوثنيّين

كان سقـوط مكّة بأيدي المسلمين ثمّ هزيمـة التحالف الوثنيّ في حُنَيْن، آخِر ضربتين حاسمتين للوجود الوثنيّ في الجزيرة، انهار بعدها جدار الكفر وانطلقت حركة الإسلام بسرعة إلى كلّ مكان. وأدركت القبائل العربيّة أن لا مناص لها من تحديد موقفها من الإسلام ودولته، فراحت تتسابق في إرسال وفودها إلى قاعدة الإسلام - مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - لمبايعته على الإسلام ومصالحته.

ولكثرة هذه الوفود في العام التالي لفتح مكّة ومطلع الذي يليه، سمّاه المؤرّخون (عـام الوفـود). وكان في طليعة هذه الوفـود وفد ثقيف الذي قَـدِم المدينة في أعقاب عودة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة تبوك.

وفي غمـرة أفراح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بنجاح الإسلام وانتشـاره، مرض ولده إبراهيم وتوفّي في نفس العام.

البراءة من المشركين

لـم يبقَ في الجزيرة العربيّة قوّة تتمسّك بالشـرك والوثنيّة، إلّا أفراد لا يُعتدّ بهم. وانتشرت العقيدة الإسلاميّة السمحاء، وكان لا بدّ من إعلان صريح حازم،

يُلغـي كلّ مظاهر الشرك والوثنيّة، في مناسك أكبر تجمّع عباديّ سياسـيّ، وحان الوقـت المناسب لتُعلن الدولة الإسلاميّة شعاراتها فـي كلّ مكان، وتُنهي مرحلة المداراة وتأليف القلوب التي تطلّبتها المرحلة السابقة.

واختـار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «**يوم النحر في منـى**» مكاناً للإعلان، وعيَّن أبا بكر ليقرأ مطلـع سورة التوبة[١]، التـي تتضمّن إعلان البراءة بصراحـة، وفي هذه الآيات النقاط التالية:

١ – لا يدخل الجنّة كافر.

٢ – لا يطـوف فـي البيت الحـرام عُريـان (إذ كانت تقاليـد الجاهليّة تسمح بذلك)، ولا يحجّ بعد هذا العام مُشرك.

٣ – من كان بينه وبين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عهد فأجلُه إلى مُدّته، ومن لم يكن له عهد ومُدّة من المشركين فإلى أربعة أشهر، وبعد ذلك سوف يُقتل من وُجِدَ مُشركاً.

ونزل الوحي الإلهيّ على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: «**إنّه لا يؤدّي عنك إلّا أنت، أو رجل منك**».

فاستدعى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الإمام عليّاً عليه السلام وأمره أن يركب ناقته العضباء ويلحق بأبي بكر، ويأخذ منه البلاغ ويؤدّيه للناس[٢].

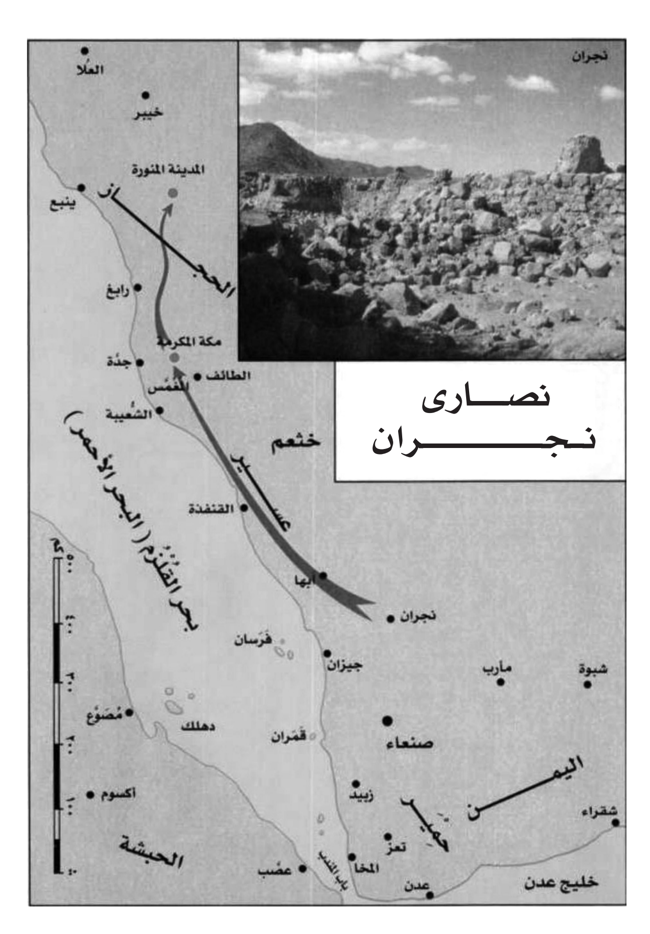
ووقـف الإمام علـيّ عليه السلام بين جمـوع الحجيج فـي العاشر مـن ذي الحجّة، وهـو يتلو البيان الإلهيّ بقوّة وجـرأة تتناسق مع حزم القـرار ووضوحه، والناس ينصتـون إليه بحذر ودقّة.. وكان أثر الإعلان على المشركين أن قَدِمُوا مسلمين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) وهـي الآيـات الأولى منها: ﴿بَـرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم... فَإِذَا انسَلَـخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ...﴾ الآيات: ١ – ٥.

(٢) ذكر هذه الواقعة: الكامل في التاريخ: ج٢/ص٢٩١، تفسير مجمع البيان: ج٥/ص١٣.

مباهلة نصارى نجران

في سياق ما كتبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قادة ورؤساء وملوك بلدان العالم، بعث كتاباً إلى أسقف نجران، يدعوه فيه مع المسيحيّين إلى عبادة الله تعالى، فاجتمع زعماء نصارى نجران لبحث الموضوع، وقرّروا أن يبعثوا وفداً إلى المدينة، وعلى رأسه الأسقف نفسه ليأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويسألوه عن دلائل نبوّته.



استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوفد، وأبدى احترامه لهم وفسح لهم المجال ليُمارسُوا طقوسهم، ثمّ عرض عليهم الإسلام فامتنعوا، وطال النقاش حول كون عيسى عليه السلام من البشر، فخلصوا إلى أن يباهلهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأمر من الله عزّ وجلّ[1] واتفقوا على اليوم اللّاحق موعداً.

وهنا وقف أسقفهم وقال لقومه: انظروا إن جاء محمّد غداً بولده وأهل بيته

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ... فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ...﴾ سورة آل عمران، الآية: ٦١.

فاحذروا مباهلته، وإن جاء بأصحابه وأتباعه فباهلوه.

وفي اليوم التالي خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المباهلة ومعه الإمام عليّ، والسيّدة فاطمة، وسبطاه الحسن والحسين عليهم السلام.

فقال عندها أسقف نجران: يا معشر النصارى إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزيـل جبلاً من مكانه لأزاله... فلا تُباهِلُوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيّ[1].

فامتنعوا عن المباهلة، وصالحهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على دفع الجزية ضمن معاهدة وردت تفاصيلها في كتب التفاسير والتاريخ[2].

حركة النفاق في المدينة

وجد المنافقون أنفسهم بعد الانتصارات الكبرى للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بين خيارين، إمّا أن يبقـوا علـى كفرهم فيُعرِّضوا أنفسهم للعقاب، وإمّـا أن ينتموا للدين الجديد. ورأى زعيم المنافقين عبد الله بن أُبيٍ بن سلول، أنّ خير وسيلة للخروج من هذا المأزق، هو الإعلان عن إسلامهم ظاهرا، والبقاء على اعتقاداتهم باطناً، وبهذا ينجون من العقاب، ويحتفظون بمعطياتهم الجاهليّة. وهذا ما سمح لهم بالقيام بعمليّة تخريب من داخل المجتمع الإسلاميّ ما أوجد قوّة جديدة في مواجهة الإسلام.

أساليب المنافقين العدائيّة

اتخّذت أساليب المنافقين ومظاهر عدائهم أشكالاً شتّى نذكر منها:

١ - مدُّ يد العون لليهود، ومساندتهم فيما كانوا يُحوكونه من مؤامرات على الإسلام، مثل وقوفهم مع بني قينقاع عندما نقضوا العهد مع الرسول

(١) بحار الأنوار. ج٢١، ص٣٣٧، إعلام الورى، الطبرسي، ص ١٢٩.

(٢) راجع: تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص٧٢، الميزان في تفسير القرآن:ج٣، ص٢٣٢.

ﷺ، ومعاونتهم لبني النضير عند حصار المسلمين لهم، عندما تآمروا على حياة النبيّ ﷺ.

٢ - ارتكاب الخيانة بالانسحاب من ميادين الجهاد في اللحظات الحرجة، كما حصل في انسحاب ابن أُبي بثُلث المقاتلين من منتصف الطريق إلى معركة أُحد، وكذلك في غزوة تبوك، وإثارتهم للشائعات التي تُثير الخوف والهزيمة في معركة الخندق حيث أحاطت الأحزاب بالمدينة.

٣ - التخريب الداخليّ وإثارة الفتنة بين فئات المسلمين، ونشر الشائعات الهدّامة، ففي غزوة بني المصطلق حاولوا إثارة الحسّ القبليّ بين المهاجرين والأنصار، وكادت أن تقع فتنة بين الطرفين لا يعلم إلا اللّه مداها لولا حكمة النبيّ ﷺ.

٤ - قيامهم بأعمال يُراد منها الإضرار بالمسلمين وتفريق صفوفهم ووحدتهم وتماسكهم، وذلك كبنائهم «**مسجد ضرار**» الذي تحدّث عنه القرآن الكريم وأطلق عليه هذه التسمية، فَكَشَفَ بذلك نيّاتهم وفَضَحَ خطّتهم[١].

موقف النبيّ ﷺ من حركة النفاق

لم يدخل النبيّ ﷺ في صراع مُسلَّح ضدّ المنافقين، كما فعل مع القوى الوثنيّة، واليهوديّة، والنصرانيّة، بالرغم من كلّ ممارساتهم التخريبيّة، وخطرهم الذي لا يقلّ عن خطر غيرهم. والأسباب التي أدّت إلى هذا الموقف من رسول اللّه ﷺ تتلخّص بما يلي:

١ - إنّ المنافقين يمتلكون القدرة على الاندساس في صفوف المسلمين والاستخفاء بينهم، وهذا ما يمنحهم القدرة على إنكار جرائمهم

(١) ذكر القرآن الكريم هذه الحادثة في قوله تعالى: ﴿والذين إتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً...﴾ سورة التوبة: ١٠٧-١٠٨.

ومكائدهم والتفلّت ممّا يُدينهم، وبالتالي لا يُمكن للنبيّ ﷺ معاقبتهم أو حتّى عزلهم.

٢ - إنّهم كانوا يتظاهرون بالإسلام، ويُخفون الكفر، وإنّما يُحاسَب الناس بحسب أعمالهم الظاهرة، فكيف يُمكن معاقبتهم والحال هذه، والمعروف عنه ﷺ أنّه كان لا يتعرّض لمن يُظهِر الإسلام بسوء؟

٣ - إنّ ممارسة القتل الجماعيّ أو الفرديّ تجاه أشخاص من أتباع النبيّ ﷺ في الظاهر، محسوبين على مُعسكره، سوف يُعطي لأعدائه في الخارج سلاحاً دعائياً لمهاجمة الإسلام، وذريعةً لتخويف الناس من الدخول فيه، وهذا ما عبّر عنه النبيّ ﷺ لعمر بن الخطّاب عندما ألحّ عليه بممارسة هذا الأسلوب تجاه المنافقين بقوله ﷺ: «**أتريد أن يتحدّث الناس أنّ محمّداً يقتل أصحابه**»[(١)].

٤ - إنّ النفاق لا يتّخذ صفة العنف، ويظهر المنافق أمام الناس بأنّه لا يكيد للإسلام. وهنا تبرز الحاجة إلى إعطاء المنافقين الفرصة للتعرُّف أكثر فأكثر إلى تعاليم الإسلام وأهدافه.

٥ - إنّ سكوته ﷺ عن المنافقين، وقَبُولهم كأعضاء في المجتمع الإسلاميّ، إنّما يُريد به المحافظة على من أسلم من أبنائهم، وإخوانهم، وآبائهم، وأقاربهم، حتّى لا تنشأ المشاكل العائليّة الحادّة فيما بينهم.

٦ - إنّ اتخاذ أيِّ إجراء ضدّ المنافقين معناه فتح جبهة جديدة، كان بالإمكان تجنّبها.

والخلاصة: إنّ مواجهة المنافقين بالعنف والقتل والصراع المُسلَّح لم تكن في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولذلك لم يلجأ النبيّ ﷺ إلى هذا الأسلوب وكان بديل هذا الأسلوب شيئاً نادراً في تاريخ الدعوات، فقد تتبّع

(١) راجع: مسند أحمد، دار صادر (بيروت)، ج٣، ص٣٥٥ وص ٣٩٣، وصحيح البخاري، ج٦، ص٦٦.

النبـيّ ﷺ خطـط المنافقين وتخريبهم بيقظة كاملة، ولـم يُحدِّد أسلوباً ثابتـاً في مجابهة مواقفهـم المتلوِّنة، وإنّما راح يضع لـكلّ حالة إجراءاً أو خطّـة تتناسب تماماً وحجـم المحاولة التخريبيّة، فنجـده ﷺ - مثلاً - أثنـاء التجهّـز لتبوك عندما علم باجتماع المنافقيـن في بيت أحد اليهود ليُثبِّطوا الناس عن الخروج، يتّخذ إجراءاً فوريّاً بحقّهم فيأمر بحرق الدار عليهم.

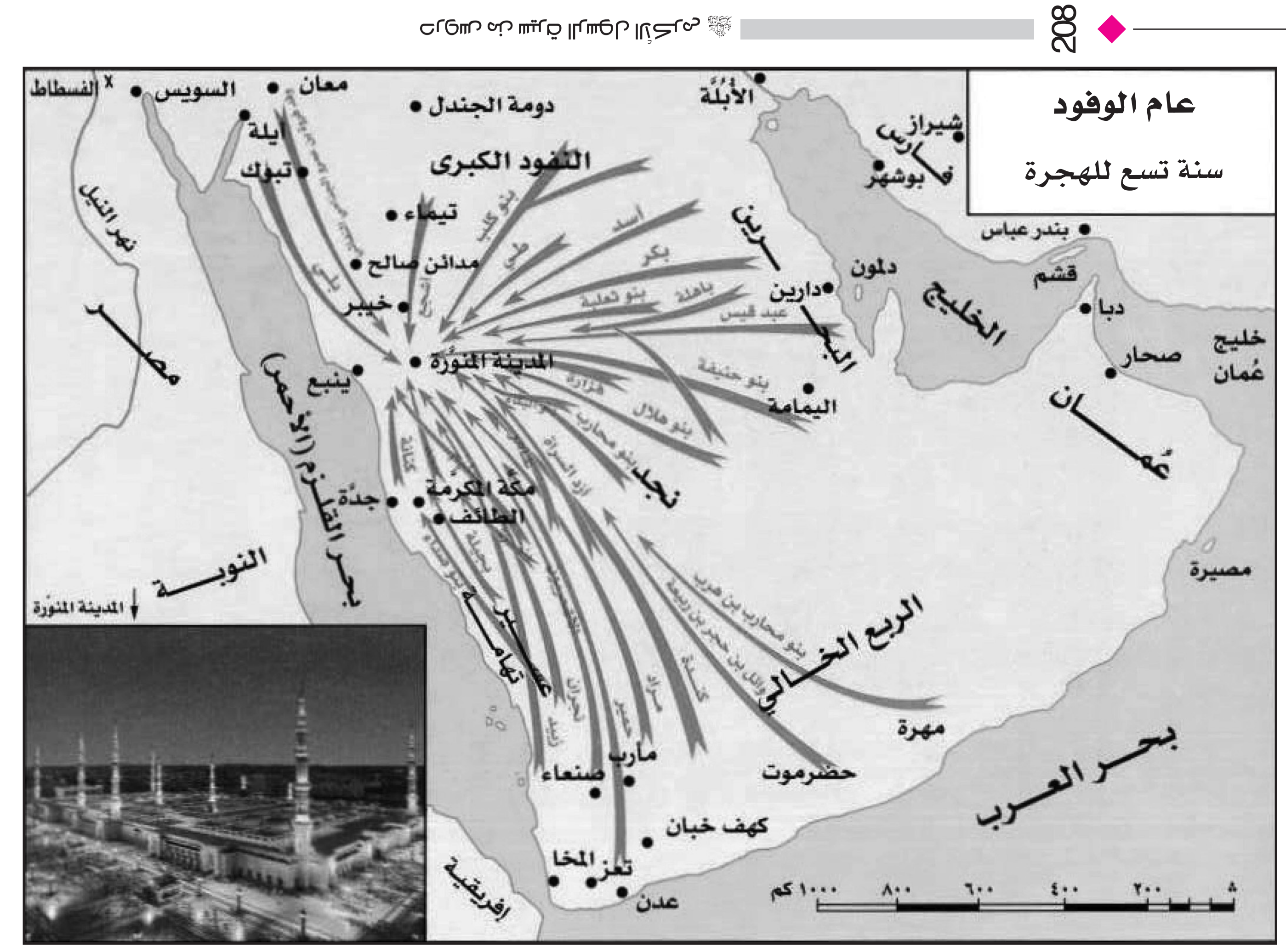
وفـي أعقاب تبوك في حادثة (مسجد ضـرار) نجده ﷺ أيضاً يتّخذ إجراءاً عمليّاً ضدّ المنافقين، فيأمر بهدم مسجد ضرار وإحراقه.

وفـي موقف آخر نجده ﷺ يفضحهم ويكشف عن حقيقتهم، وينبّه الصحابة إلى خُططهم ومؤامراتهم، ويُحذِّر الناس منهم.

وكان هـذا بطبيعته يُمثِّل حصانة ومناعة للمسلمين ضـدّ النفاق والمنافقين ومكائدهم، وإفشالاً لكلّ مُخطَّطاتهم ومؤامراتهم.

ومن وراء الرسول ﷺ كانت آيات القرآن الكريم تتنزّل من اللّه تعالى، الذي لا يخفـى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهي تفضح خططهم ومكائدهم الخبيثة قبل أن تقع، مُندِّدة بأساليبهم، مُظهرة أفعالهم، مُبيِّنة أوصافهم بدقّة.

وكلُّ ذلـك لم يمنع من قوّة الإسلام ومنعته وانتشاره، وانهيال القبائل العربيّة على المدينة مُعلنين إسلامهم أمام رسول اللّه ﷺ.


عام الوفود
سنة تسع للهجرة
الفسطاط
السويس
معان
أيلة
تبوك
دومة الجندل
النفود الكبرى
تيماء
مدائن صالح
خيبر
المدينة المنوَّرة
ينبع
جدَّة
مكة المكرمة
الطائف
الأبلَّة
شيراز
فارس
بوشهر
بندر عباس
قشم
دلمون
دارين
البحرين
الخليج
اليمامة
دبا
صحار
خليج عُمان
عُمان
نجد
مصيرة
الربع الخالي
مهرة
حضرموت
مأرب
صنعاء
كهف خبان
تعز
المخا
عدن
بحر العرب
تهامة
عسير
إفريقية
النوبة
المدينة المنوَّرة
بحر القلزم (الأحمر)
مصر
نهر النيل
بنو كلب
طيء
أسد
بكر
باهلة
بنو تغلبة
عبد قيس
بنو حنيفة
بنو هلال
فزارة
بنو محارب
أزد السراة
كنانة
نجران
زبيد
حمير
مراد
كندة
بنو محارب بن خزيمة
وائل بن حجر بن ربيعة
٠
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠
١٠٠٠ كم

خلاصة

كان العـام التاسـع الهجريّ عـام الوفود، وعام تصفية الوجـود الوثنيّ داخل الجزيـرة العربيّـة، من خلال الإعـلان الرسميّ بالبراءة مـن المشركين، الأمر الـذي أدّى بالمسلميـن إلى أن يخرجـوا من حدود الجزيـرة العربيّة للدعوة إلى الإسلام.

كانت دعوة القبائل النصرانيّة إلى حظيرة الإسلام، ثمّ دعوتها إلى المباهلة وتراجعهـا أمـام دعـوة المباهلـة، دليلاً كافيـاً على عظمـة الإسـلام، وموجباً لرضوخها للقيادة الإسلاميّة.

أمام الانتصـارات الباهرة للمسلميـن وجد المنافقون فـي المدينة أنفسهم أمام خيارين: إمّـا البقاء على الكفر، وإمّا الانتماء إلى الدين الجديد، فاختاروا الثاني من أجل القيـام بعمليّة تخريب من داخل المجتمع الإسلاميّ، ولجأوا إلى أساليب مُتعدِّدة في محاولة منهم للقضاء على الإسلام.

وقـف النبيّ ﷺ تجاه حركـة النفاق موقفاً حكيماً، فلـم يُقاتلهم، ولم يُشهِر السيف في مواجهتهم، بل عمد إلى فضح مكائدهم، والتشهير بهم أحياناً، فضلاً عن الأسلوب القرآنيّ في تنبيه المسلمين من المنافقين.



سلوكه ﷺ العسكريّ والأمنيّ:

يذكر المحلّلون العسكريّون أنّ رسول اللّه ﷺ كان قائداً عسكريّاً فذّاً، وقد أدار المعارك العسكريّة التي خاضها ضدّ المشركين واليهود وغيرهم من أعداء الإسلام، بكفاءة وخبرة عالية، وهذه نماذج من سلوكه وتدابيره العسكريّة والأمنيّة.

١ - **التجسُّس العسكريّ:** ويبدو أنّه لم تخل معركة من معارك الإسلام الكبرى، إلّا واستخدم النبيّ ﷺ فيها التجسُّس العسكريّ، وقام بجمع المعلومات عن العدوّ، واستطلع تحرُّكاته وأوضاعه المختلفة، عن طريق العيون والطلائع وغيرهم.

فعندما خرج إلى **بدر**، بعث بسبسة بن عمرو الجهنيّ وعديّ بن أبي الزغباء الجهنيّ يتجسّسان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره.

وفي **أُحُد** أرسل ﷺ الحبّاب بن المنذر إلى القوم، فدخل فيهم وقدّر عددهم وحجم عتادهم ونظر إلى جميع ما يُريد، وبعثه سرّاً وقال له: لا تُخبرني بين أَحَدٍ من المسلمين إلّا أن ترى قلّة فرجع فأخبره خالياً.

وقام بهذه المهمّة حذيفة بن اليمان يوم الخندق.

كما بعث عبد اللّه بن حدرد عيناً على هوازن لجمع المعلومات عن موقفهم وخطّتهم في حُنَيْن، وبريدة بن الحصيب عيناً على بني المصطلق، وعبد اللّه بن رواحة عيناً على غطفان وغيرهم كثير.

٢ - **الكتمان والسرِيَّة وأمن المعلومات:** فقد كان ﷺ يُحيط تحرُّكاته العسكريّة بالسرّيّة التامّة، ويحرص على كتمان أهدافه والجهة التي يقصدها، حتّى عن

المقرّبين، لئلا تتسرّب المعلومات الى العدوّ فيستفيد منها، وحرصاً منه ﷺ على تحقيق عنصر المباغتة ومفاجئة العدوّ، فعندما قرّر النبيّ ﷺ فتح مكّة أخفى نياته ولم يُطلِع المسلمين على وجهته، وقال ﷺ: «**اللهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها في بلادها**»[1].

وقد روي أنّه ﷺ كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها.

ولم يكتف ﷺ باتّخاذ هذه الاحتياطات، بل كان يُراقب الطرق ويتّخذ إجراءات أمنيّة مشدّدة، كمنع السفر ونحوه، كما في فتح مكّة، لئلّا تتسرّب المعلومات عن تحرُّكاته العسكريّة عن طريق المنافقين والذين في قلوبهم مرض وغيرهم من أعداء الإسلام.

٣ - **الحرب النفسيّة:** واستخدم النبيّ ﷺ الحرب النفسيّة ضدّ العدوّ، بُغية تحطيم معنويّاته وشلّ إرادته وتفتيت وحدته الداخليّة، وبثّ الرعب والخوف واليأس في قلوب أعدائه.

فقد كان يأمر أصحابه بهجاء قريش، وقد كان يقوم بهذه المهمّة حسّان بن ثابت وعبد اللّه بن رواحة وغيرهما، وكان يقول ﷺ: «**اهجوا قريشاً فإنّه أشدّ عليها من رشقٍ بالنبل**»[2].

وفي عمرة القضاء قال ﷺ لأصحابه: «**ارملوا بالبيت ثلاثاً ليرى المشركون قوّتكم**»[3]. فلما رمّلوا قالت قريش: ما وهنتهم.

وعندما سار لفتح مكّة ووصل إلى مشارفها أمر ﷺ أصحابه في النهار بجمع الحطب، ولمّا دخل الليل أمرهم بالتفرّق وإشعال النيران في كلّ مكان، ليوهم العدوّ

(١) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٢٠١.

(٢) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج٧، ص١٦٤.

(٣) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج١، ص٣٧٣.

بأنّـه أمام حشد كبير لا طاقة لـه على مواجهته. حتّى إنّ أحد أصحابه يقول: لقد كنّا تلـك الليالي نوقـد خمسمائة نار حتّى تُرى من المكان البعيـد، وذهب ذِكرُ معسكرنا ونيراننا في كلّ وجه حتّى كان ممّا كبت اللّه تعالى عدوّنا.

كما أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يدخل مكّة فاتحاً استعرض جيش المسلمين، وأمر العبّاس بن عبـد المطّلب أن يحبس أبا سفيان في المضيق الـذي تزدحم فيه الخيل، حتّى ينظر إلـى المسلمين وقوّتهم، فحبسه العبّاس، وجعلت القبائل المسلمة تمرّ مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كتيبة كتيبة على أبي سفيان، في أكبر استعراض للقوّة شهدته المنطقة آنذاك.



الدرس الخامس عشر

الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلم ومستقبل الرسالة والدولة الإسلاميّة



أهداف الدرس

١- أن يستعرض الطالب قصّة الغدير وتعيين الوصيّ عليه السلام.

٢- أن يحدِّد سبب ظهور المُتنبِّئين.

٣- أن يذكر خلفيّات التعبئة العامّة لغزو الروم.

٤- أن يُحدِّد نتيجة الحيلولة دون كتابة الوصيّة.

٥- أن يتعرّف على مَنْ لازم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في لحظاته الأخيرة.



تعيين الوصي والقيادة النائبة

أتــمّ المسلمون حجّهم الأكبر وهم يحفّــون بالنبيّ ﷺ، وقد أخذوا مناسكهم عنه، وقرّر ﷺ أن يعود إلى المدينة، ولمّا بلغ موكب الحجيج العظيم «**رابغ**» قرب «**غدير خم**»، وقبل أن يتفرّق الحجيج إلى بلدانهم من هذه المنطقة، نزل الوحي الإلهيّ بآية التبليغ قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1].

إنّ هــذا الخطاب الإلهيّ كان يأمر الرسول ﷺ بأمر مهمّ، ويجعل على عاتقه مسؤوليّــة عظيمــة. فأيّ تبليغ طُلب من الرسول ﷺ إنجــازه وهو لم يقم به بعد، وقد أمضى النبيّ ﷺ ما يُقارب من ثلاثة وعشرين عاماً يُبلّغ آيات الله وأحكامه، ويدعــو الناس إلى دين الله، وقد نال ما نال مــن عظيم المحن والبلاء والجهد، كي يُقال له: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

وهنــا أصدر النبــيّ ﷺ أوامره بأنّ تقــف القوافل حتّى يلحق آخرهــا بأوّلها، فــي يوم شديد الحرّ كان يضطرّ المرء فيه إلــى أن يُغطّي رأسه، ويقي قدميه من

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

شدّة حرّ الرمضاء، ليتلو عليهم أمر السماء، ويكمل تبليغ الرسالة الخاتمة. إنّها الحكمة الإلهيّة بأنّ يتمّ التبليغ في هذا المكان وفي هذا الظرف، كي يبقى عالقاً في وجدان الأُمّة، حيّاً في ذاكرتها على مرّ الزمن، حفاظاً على الرسالة والأُمّة الإسلاميّة.

وجُمعت الرحال وصعد عليها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن صلّى في جموع المسلمين، فحمد اللّه وأثنى عليه وقال بصوت رفيع يسمعه كلّ من حضر[1]:

«**أيّها الناس يوشك أن أُدعى فأجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك بلّغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيراً. قال** صلى الله عليه وآله وسلم: **ألستم تشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّ جنّته حقّ وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك قال** صلى الله عليه وآله وسلم: **اللهمّ اشهد.**

ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: **فإنّي فرطكم على الحوض وأنتم واردون عليّ الحوض، وإنّ عرضه ما بين صنعاء وبُصرى، فيه أقداح عدد النجوم من فضّة، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين.**

فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول اللّه؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: **الثقل الأكبر كتاب الله، طرف بيد الله عزّ وجلّ، وطرف بأيديكم فتمسّكوا به لا تضلّوا. والآخر الأصغر عترتي. وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تُقصّروا عنهما فتهلكوا.**

ثمّ أخذ بيد الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى رُئي بياض إبطيهما، وعرفه الناس أجمعون.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟** قالوا: اللّه

---

(١) ينقل خصوصيّة لتلك البقعة من الأرض، أنّ الصوت يسمع على بُعد مسافة حتى لو كان همساً.

ورسولـه أعلم، قال ﷺ: **إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه** - يقولها ثلاث مرات -» .

ثمّ قال ﷺ: «**اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه، وأحبّ من أحبّه وابغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله وأدرِ الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلّغ الشاهد الغائب**».

ثمّ لم يتفرّقوا حتّى نزل أمين وحي الله بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[1]، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضى الربّ برسالتي والولاية لعليّ بعدي**».

ثـمّ أمر ﷺ أن تُنصب خيمة لعلـيّ عليه السلام ، وأن يدخل عليـه المسلمون فوجاً فوجـاً ، ليُسلّمـوا عليه بإمـرة المؤمنين، ففعـل الناس ذلك كلّهـم، وأمر أزواجه وسائر نساء المؤمنين ممّن معه أن يفعلن ذلك.

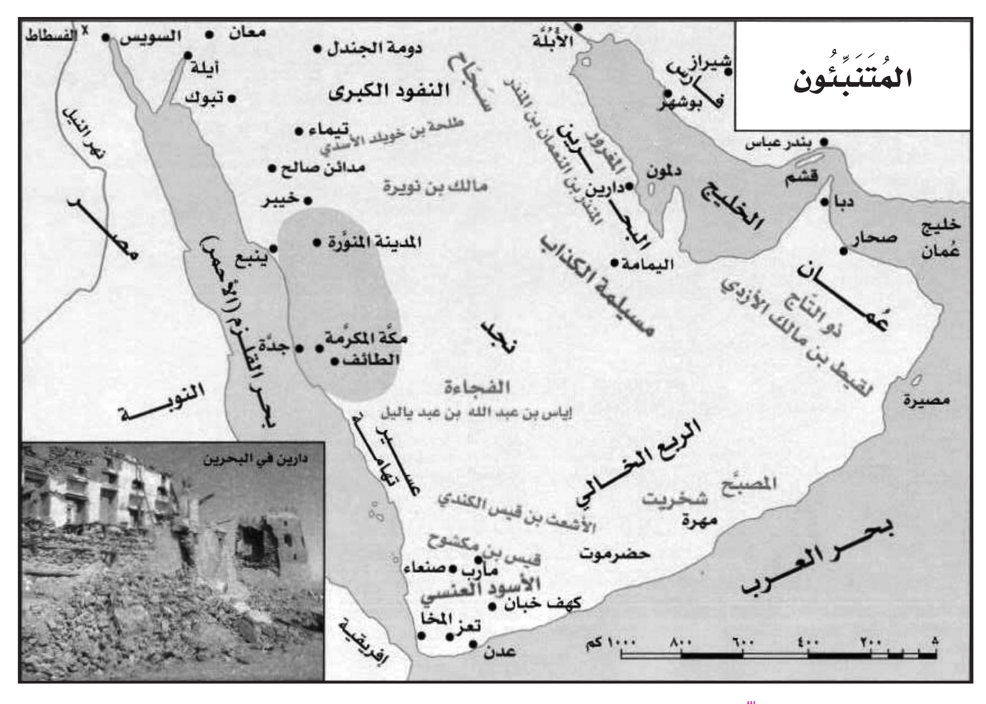
وكان فـي مقدّمـة المهنّئين أبو بكر وعمر بن الخطّاب، كلٌّ يقول: بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة[2].

تفرّقـت جمـوع الحجيج مـن غدير خمّ نحـو العـراق والشام واليمـن، ويمّم النبـيّ ﷺ بأصحابه صوب المدينة. وحمل الجميع وصيّة الرسول ﷺ بالقيادة النائبـة، لتستمـرّ حركة الرسالـة الإسلاميّة بنهـج يتعمّق فـي النفوس، وتجتاز العقبات بعد أن يرحل عنها صاحب الرسالة ﷺ ، ويكون قد عيّن لصيانة رسالته وقيادة أُمّته شخصاً نموذجيّاً في حمل هموم الرسالة، والحرص على نجاحها، لا تأخذه في الله لومة لائم ولم يُشرك بالله طرفة عين.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) راجع تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص١١٢؛ مسند أحمد، ج٤، ص٢٨١؛ البداية والنهاية، ج٥، ص٢١٣؛ موسوعة الغدير، ج١، ص٤٣، ١٦٥، ١٩٦، ٢١٥، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٧، ٣٧٩، ٣٩٢، ٤٠٢، وج١١، ص١٣١.



ظهور المتنبّئين

بعد أن انبسط سلطان الدين الإلهيّ في ربوع الجزيرة وما حاذاها، وانحازت القبائـل جميعاً إلـى دولة الرسـول ﷺ، لِمَا رأوه مـن العـزّة والاستقلال الذي اكتسبوه في ظلال دولته المباركة، ولِمَا لاحظوه من حرصه على أن يكون خليفته فـي أمّتـه ودولته، والقائـم على شؤون رسالتـه من اعتبره القـرآن الكريم نفس الرسـول العظيم ﷺ[1]، فمـن الطبيعيّ جـدّاً للنفوس السليمـة بفطرتها أن تُخلص الـولاء لهـذا الرسـول ﷺ ودولتـه الفتيّـة.

ولـم يَعُد ذا بال أن يتمـرّد بعض العرب ويرتدّ عن ولائه السياسيّ بل العقيديّ وهـو يرى النبيّ ﷺ سلطانـاً وحاكماً مُتنفّذاً ليس إلّا، كمـا كان أبو سفيان يرى النبيّ كذلك.

(١) راجع آية المباهلة وقصّتها في الدروس السابقة.

غير أنّ الأذكياء من هؤلاء كانوا يرون صلاحهم في الخضوع لهذا الكيان الجديد، وكانوا يُخطّطون للنفوذ إلى مراكز القوّة في الدولة الجديدة، والأغبياء منهم بدؤوا التمرّد على النبيّ ﷺ طالبين منه أن يُقسِّم سلطانه.

إنّ الطمع في الشرف الذي نالته قريش يوم أصبح منها محمّد ﷺ نبيّاً - كما ظنّ الجاهلون - كان ممّا دفع بعضهم لأن يدّعي النبوّة، فهذا «**مسيلمة**» يكتب للنبيّ ﷺ ويدّعي النبوّة ليُشارك النبيّ ﷺ في سلطان الأرض، ولمّا وقف النبيّ ﷺ على مضمون الرسالة التفت إلى من حملها إليه وقال: «**لولا أنّ الرسل لا تُقتَل، لضربت أعناقكما لأنّكما أسلمتما من قبل وقبلتما برسالتي، فلِمَ اتّبعتما هذا الأحمق وتركتما دينكما؟**».

ثمّ ردّ على مسيلمة الكذّاب برسالة بعثها إليه، جاء فيها: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم، من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب. السلام على مَن اتّبعَ الهدى، أمّا بعد فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين**»[1].

التعبئة العامّة لغزو الروم[2]

وأبدى النبيّ ﷺ اهتماماً كبيراً للحدود الشماليّة للدولة الإسلاميّة، حيث دولة الروم المنظّمة وصاحبة الجيش القويّ. وأمّا فارس فلم تكن ذات أثر مُقلق؛ لأنّ علامات الانهيار كانت قد بدت عليها، كما أنّها لم تكن تمتلك عقيدة روحيّة تدافع عنها كالمسيحيّة لدى الروم.

على أنّ بعض عناصر الشغب والنفاق كانت قد أُجليت عن الدولة الإسلاميّة، فاتّجهت إلى الشام، وكان وجود نصارى نجران في الجنوب أيضاً عاملاً سياسيّاً يدفع الروم لنصرتهم.

(١) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٢، ص٦٠٠.

(٢) عقد النبيّ ﷺ اللواء لأسامة في صفر عام ١١هـ.

وكلّ هذه لم تكن عوامل آنيّة عاجلة تستدعي الاهتمام الكبير، الذي ظهر واضحاً من إعداد النبيّ ﷺ لجيش كبير يضمّ كبار الصحابة ما خلا عليّاً وبعض المُخلصين معه.

من هنا يظهر أنّ النبيّ ﷺ كان يُريد أن يخلو الجوّ السياسيّ من أحداث تُعيق استلام وصيّه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام زمام السلطة من بعده، بعد أن لمس تحسُّساً وانزعاجاً من بعض الأطراف، لتأكيده المستمرّ على مرجعيّة الإمام عليّ عليه السلام لإتمام مسيرة الرسالة الإسلاميّة، فأراد النبيّ ﷺ أن تخلو المدينة من أيّ توتّر سياسيّ ليتمّ للإمام عليّ عليه السلام ما خطّط ﷺ من استلام مقاليد الخلافة من بعده، ولهذا عقد النبيّ ﷺ لواء المسلمين وسلّمه إلى «**أُسامة بن زيد**» القائد الشاب الذي نصّبه الرسول ﷺ في مغزى واضح وإشارة بليغة إلى أهمّيّة الكفاءة في القيادة، وجعل تحت إمرته شيوخ الأنصار والمهاجرين، وقال ﷺ له: «**سِر إلى موضع قتل أبيك، فأوطئهم الخيل فقد ولّيتك هذا الجيش، فاغزُ صباحاً وشنّ الغارة...**».

ولكنّ روح التمرُّد وقلّة الانضباط التي كانت تبدر من بعض المسلمين أخذت تعترض على التسليم لأمر النبيّ ﷺ، ولعلّها كانت جاهلة بالأهداف والمصالح العليا للإسلام والتي قد عناها النبيّ ﷺ، وهو المعصوم المُسدَّد من قبل الله سبحانه.

وبلغ النبيّ ﷺ ذلك فغضب وخرج وهو يلتحف قطيفة، وقد عصَّبَ جبهته بعصابة من ألم الحمّى التي أصابته، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال ﷺ:

«**أمّا بعد، أيّها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أُسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أُسامة فقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله كان للإمارة خليقاً وإنّ ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس**

إليّ وإنّهما لمخيّلان لكلّ خير[١]، واستوصوا به خيراً فإنّه من خياركم»[٢].

واشتدّت الحمّى برسول اللّه ﷺ، ولم يشغله ثقل المرض عن الاهتمام الكبير منه لخروج الجيش، فكان يقول ﷺ: «**أنفذوا جيش أُسامة**»[٣] لكلّ من يعوده من أصحابه ويزيد إصراراً بقوله: «**جهّزوا جيش أُسامة لعن الله من تخلّف عنه**»[٤].

وأوصل بعض المسلمين أنبـاء تردّي صحّة النبيّ ﷺ إلى معسكر المسلمين في «**الجرف**» فرجع أُسامة يعود النبيّ ﷺ فحثّه على المضيّ نحو هدفه الذي رسمه له قائلاً له: «**أُغدُ على بركة الله**».

فعاد أُسامة مُسرِعاً إلى جيشه يحثّه على الخروج، ولكنّ المتقاعسين وذوي الأطماع في الخلافة تمكّنوا من عرقلة مسيرة الجيش، زاعمين أنّ النبيّ ﷺ يحتضر، بالرغم من إصرار الرسول ﷺ على التعجيل في المسير وعدم التخلّف عنه.

الحيلولة دون كتابة الوصيّة

ورغم ثقل الحمّى وألم المرض خرج النبيّ ﷺ مستنداً إلى الإمام عليّ عليه السلام والفضل بـن العبّاس، ليُصلّـي بالناس وليقطع بذلك الطريق علـى الوصوليّين، كـي لا يتّخذوها حجّـة ويقتنصوا الزعامة التي طمحوا لهـا من قبل، وقد عصوا الرسول ﷺ وتخلّفوا عن أمره بالخروج مع جيش أُسامة.

وحيـن أتمّ الصـلاة التفت ﷺ إلى الناس قائـلاً: «**أيّها الناس سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإنّي والله ما تُمسكون عليّ بشيء، إنّي لم أُحلّ إلّا ما أحلّ الله، ولم أُحرِّم إلّا ما حرّم الله**»[٥].

(١) بمعنى أنّهما ممن يتفرّس فيهما كلّ خير. والخوليّ: هو الراعي الحسن القيام على المال. راجع المنجد مادّة خلل.

(٢) الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٣٦.

(٣) م.ن، ج٢، ص١٣٧.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص٢٣.

(٥) السيرة النبويّة، ج٢، ص٦٥٤؛ الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢١٥.

فأطلق ﷺ بقوله هذا تحذيراً آخر أن لا يعصوه وإن لاحت في الأُفق نواياهم السيّئة التي ستجلب الويلات على الأُمّة إذ يتزعّمها جهّالها.

واشتدّ المرض على النبيّ ﷺ واجتمع الصحابة في داره، ولحق بهم من تخلّف عن جيش أُسامة، فلامهم النبيّ ﷺ واعتذروا بأعذار واهية. وحاول النبيّ ﷺ أن يُعرقل المؤامرة السياسيّة التي كان يتوقّعها من بعد وفاته، فقال ﷺ للحاضرين عنده: «**إيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده**».

فقال عمر بن الخطاب: «**إنّ رسول الله قد غلبه الوجع**[1] **وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله**».

ووقع التنازع والاختلاف، وقالت النسوة من وراء الحجاب: إئتوا رسول الله ﷺ بحاجته. فقال عمر: اسكتن فإنّكن صويحبات يوسف، إذا مرض عصرتنّ أعينكنّ وإذا صحّ أخذتنّ بعنقه، فقال رسول الله ﷺ: «**هنّ خير منكم**»[2]. ثمّ قال ﷺ: «**قوموا عنّي لا ينبغي عندي التنازع**».

وكم كانت الأُمّة بحاجة ماسّة لكتاب الرسول ﷺ هذا، حتّى أنّ ابن عبّاس كان يأسف كلمّا كان يذكر ذلك ويقول: «**الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله**»[3].

ولم يُصرّ نبيّ الرحمة ﷺ على الكتاب بعد اختلافهم عنده، خوفاً من تماديهم في الإساءة ونكرانهم لما هو أكبر، فقد علم ﷺ بما في نفوسهم، وحين راجعوه ثانية بشأن الكتاب قال ﷺ: «**أَبَعْدَ الذي قلتم**[4]**؟!**» وأوصاهم بثلاث وصايا تذكر بعض كتب التأريخ اثنتين منها وهما: إخراج المشركين من جزيرة العرب،

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، وكتاب الجهاد، باب جوائز الوفد، ج١، ص٣٧.

(٢) الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٤٤؛ كنز العمال، ج٣، ص١٣٨.

(٣) صحيح البخاري كتاب العلم، ج١، ص٢٢، وج٢، ص١٤؛ الملل والنحل، ج١، ص٢٢؛ الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٤٤.

(٤) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٢٢، ص٤٦٩.

وإجازة الوفد كما كان يُجيزهم، وتزعم هذه الكتب نسيان الثالثة.

وعلّق السيّد **محسن الأمين** على ذلك قائلاً: والمُتأمِّل لا يكاد يشكّ في أنّ الثالثة سكت عنها المُحدِّثون عمداً لا نسياناً، وأنّ السياسة اضطرّتهم إلى السكوت عنها عمداً وتناسيها، وأنّها هي التي طلب الدواة والكتف ليكتبها لهم[١].

اللحظات الأخيرة من عمر النبيّ ﷺ

وأقبلت السيّدة الزهراء عليها السلام وهي تجرّ أذيالها بحزن، وتتطلّع إلى أبيها وهو يوشك أن يلتحق بربّه، فجلست عنده مُنكسرة القلب دامعة العين، ودنت منه فأخبرها ﷺ أنّه قد حضر أجله، وأنّه يُقبَض في وجعه هذا، فبكت عليها السلام، ثمّ ما لبثت أن تلقّت البشرى منه ﷺ بأنّها ستكون أوّل أهله لحوقاً به[٢].

وكان الإمام عليّ عليه السلام يُلازم الرسول ﷺ كظلّه، حتّى آخر لحظات حياته الشريفة، وهو يوصيه ويُعلِّمه ويضع سرّه عنده.

نعم، في الساعة الأخيرة قال رسول الله ﷺ: «**ادعوا لي أخي**»، وكان ﷺ قد بعثه في حاجة فجاءه بعض المسلمين فلم يعبأ بهم الرسول ﷺ حتّى جاء الإمام عليّ عليه السلام فقال ﷺ له: «**أُدنُ منّي**». فدنا الإمام عليه السلام فاستند إليه، فلم يزل مستنداً إليه يُكلِّمه حتى بدت عليه ﷺ علامات الاحتضار[٣]. وتوفّي رسول الله ﷺ وهو في حِجر الإمام عليّ عليه السلام كما قد صرّح بذلك الإمام عليه السلام نفسه في إحدى خطبه الشهيرة[٤].

(١) الأمين، السيّد محسن، أعيان الشيعة، ج١، ص٢٩٤.

(٢) الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٤٧؛ الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢١٩.

(٣) م.ن. ج٢، ص٢٦٣.

(٤) نهج البلاغة، خطبة ١٩٧.


من كنت مولاه فهذا
علي مولاه
اللهم وال من والاه
وعاد من عاداه

خلاصة

أتـمّ المسلمون حجّهم الأكبر وهم يحفّون بالنبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقبل أن يتفرّقوا إلى بلدانهم وفي غدير خمّ نزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

فوقـف صلى الله عليه وآله وسلم خطيباً بهم آخذاً بيد الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام قائلاً: «... **فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه...**».

فنـزل الوحي مـن الله بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾. ثمّ بايع الجميع عليّاً عليه السلام بإمرة المؤمنين وخلافة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكان في مقدّمتهم أبو بكر وعمر بن الخطاب.

وبعـد انبسـاط السلطـان الإلهيّ انضـمّ جمع كبير مـن الناس إلـى صفوف المسلمين وخضع من أضمر النفاق لهذا السلطان أيساً من التمرّد عليه، وادّعى بعض النبوّة كمسيلمة الكذّاب.

أبـدى النبيّ اهتماماً كبيـراً للحدود الشماليّة مع دولة الـروم، لما تشكّله من خطر، فأنفذ صلى الله عليه وآله وسلم جيشاً كبيراً ضمّنه كبار وجوه الصحابة بقيادة أسامة بن زيد، لمواجهـة هذا الخطر ولكي يخلو الجـوّ السياسيّ من أحداث تُعيق استلام وصيّة الإمام عليّ عليه السلام زمام السلطة بعد أن اشتدّ منه صلى الله عليه وآله وسلم المرض.

ولكنّ روح التمرّد بدت من بعض المسلمين منعت انفاذ ذلك الجيش، وحالت دون كتابة وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ثـمّ ما لبث صلى الله عليه وآله وسلم إلّا قليلاً حتّى غادر الدنيا الفانية بين يدي وصيّه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام.



سلوكه القيادي:

كما كان رسول الله ﷺ عظيماً في أخلاقه الشخصيّة والاجتماعيّة، فقد كان عظيماً في خُلُقه السياسيّ كرجل دولة..

وهذه بعض ملامح سلوكه القياديّ وأخلاقه السياسيّة:

أ. **العدل والتدبير:** فقد كان ﷺ عادلاً حكيماً مُدبِّراً، وقد روى الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**كان رسول الله ﷺ يُقسِّم صدقة أهل البوادي في أهل البوادي، وصدقة أهل الحضر في أهل الحضر**»(1).

واستطاع بحكمته وتدبيره الحدّ من العداوات والأحقاد والبغضاء والحروب التي كانت سائدة بين القبائل.

ب. **حماية القوانين:** فقد كان ﷺ حريصاً على حفظ النظام العامّ، ورعاية التشريعات الإسلاميّة وحمايتها وعدم مخالفتها. ولم يُجامل أحداً فيما يعني تطبيق الشريعة وإنزال العقوبة بالمُذنِب كائناً من كان.

ففي فتح مكّة ارتكبت امرأة من بني مخزوم جريمة السرقة، وثبتت السرقة عليها من الوجهة القضائيّة، لكنّ قومها الذين كانت الترسُّبات القبليّة ما تزال تعشّش في أدمغتهم، رأوا أنّ إنزال العقاب بها يخدش مكانتهم ويُلحق العار بشرفهم، فبذلوا جهدهم وتوسّطوا لعلّهم يستطيعون رفع العقاب عنها، وأرسلوا أسامة بن زيد- الذي كان موضع احترام عند النبيّ ﷺ مثل أبيه - وسيطاً يتشفّع لها عند النبيّ، فغضب النبيّ ﷺ وقال له: «**ما هذا محلّ شفاعة**»، وأصدر أمره ﷺ بإنزال العقوبة بها وإجراء حدود الله.

(1) الكليني، الكافي ج3، ص 554.

ولكي يُزيل عن أذهان الناس فكرة المحاباة في تطبيق التشريع وإقامة حدود الله، خطب ﷺ في الناس ذلك اليوم مُشيراً إلى هذه الحادثة، ذاكراً أنّ الأقوام والأمم السابقة قد بادت وانقرضت لأنّها لم تعدل في إجراء الحدود، فعندما كان أحد أفراد الطبقات العليا يرتكب جُرماً كان يُعفى من العقاب، وإذا ارتكب أحد أفراد الطبقة الدنيا جريمة مماثلة عوقب عليها، ثمّ أقسم أنّه ﷺ لا يتساهل في إجراء حدود الله حتّى على أقرب المقرّبين إليه.

ولم يكن يرى نفسه ﷺ أنّه فوق التشريع، بل إنّه التزم وطبّق بدقّة ما ألزم به المجتمع..

ج. الالتزام بالعهود والمواثيق: فلم يحدث إطلاقاً أن أخلّ ﷺ بعهوده التي أبرمها مع أعدائه، وقد أخلّت قريش بعهدها معه، وأخلّ اليهود بعهودهم ومواثيقهم، ولكنّه لم يُخلّ أبداً بعهده معهم.

د. الالتزام بمبدأ احترام الآخرين: وهو المبدأ الخُلُقيّ الذي اتّبعه النبيّ ﷺ مع زعماء الدول الذين لم يكونوا على دينه، ففي الرسائل التي بعث بها الرسول الأعظم ﷺ إلى زعماء العالم آنذاك، نجد أنّ النبيّ ﷺ رغم تصلّبه وتشدّده في ذات الله، قد طبّق مبدأ الاحترام مع هؤلاء عندما خاطب **كسرى** بـ(عظيم فارس) و**قيصر** بـ(عظيم الروم)، وذلك من أجل أن يكشف لهم أنّ الإسلام هو الدين الذي جمع كلّ المبادىء السامية والقيم الأخلاقيّة.

هـ. بُعدُ النظر: إنّ الدارس لسيرة الرسول ﷺ يرى أنّ الله تعالى أعطاه من بُعدِ النظرِ ما لم يُعطِ غيره. لقد رأينا بُعدَ نظره يوم وضعت قريشٌ الشروط لصلح الحديبية، فقد رأى بعض أصحابه أنّ في هذه الشروط إجحافاً بالمسلمين، ورأى فيها رسولُ الله ﷺ ـ بما آتاه الله من بُعدِ النظر

ـ النصرَ للمسلمين، ورأى أنّ قريشاً بوضعِها هذه الشروط إنما تحفُرُ قبْرَها بيدها، وتكتب دمارَ أطروحتها بقلمها.

ورأينا بُعْدَ نظره في تألُّفه عبد اللّه بن أبيّ بن سلول ـ وكان ذا شوكة ـ يوم قَيْنُقاع ويوم بني النضير ويوم بني المصطلق، وبقي رسولُ اللّه ﷺ يتألّفه حتّى انكشف نفاقُه، وظهرت عداوته للإسلام والمسلمين، فجعل قومه بعد ذلك إذا أساءَ الإساءة هُمُ الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنِّفونه، وعندها قال رسول اللّه ﷺ لعمر بن الخطاب: «**كيف ترى يا عمر؟ أما واللّه لو قتلتُه يوم قلت لي: اقتله، لأُرعِدَتْ له أُنفٌ. لو أمرتُها اليوم بقتله لقتَلَته، فقال عمر: قد. واللّه. علمتُ أنّ أمَر رسولِ اللّه أعظم بركة من أمري**»[1].

(١) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج٢، ص٢٩٣.

الفهرس

